نحو تأصيل إسلامي للتاريخ

الأمة المسلمة

أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

الدولة العثمانية

الجزء الثاني

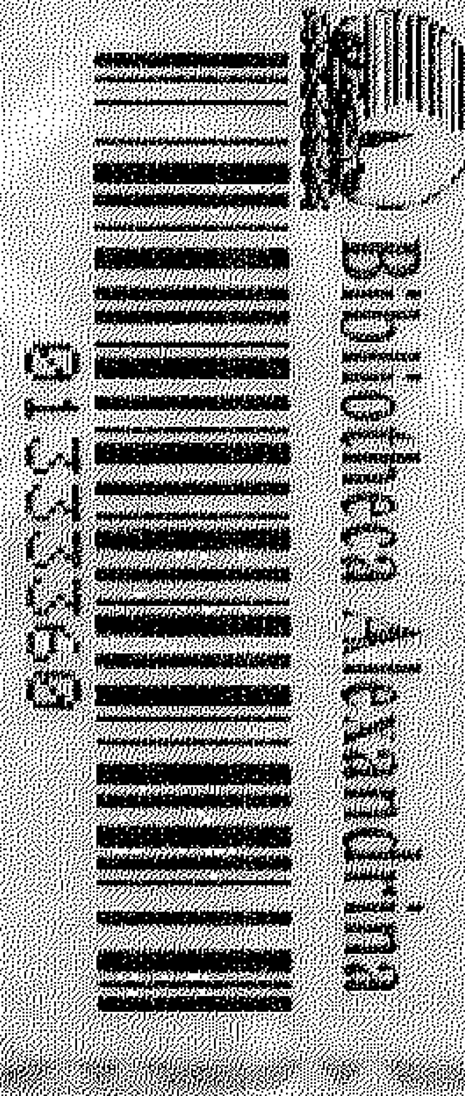
٦٩٩ - ١٣٤٣ هجرية

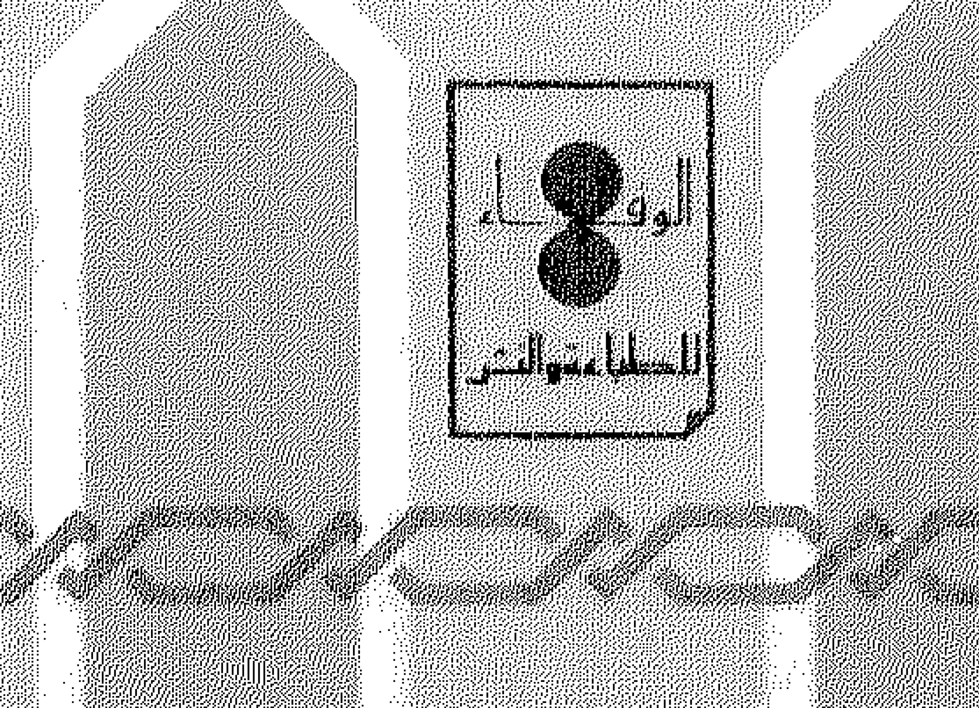
١٢٩٩ - ١٩٢٤ ميلادية

الدكتور جمال عبد الهادي محمد مسعود

الدكتورة وفاء محمد رفعت جمعة

على أحمد لبن

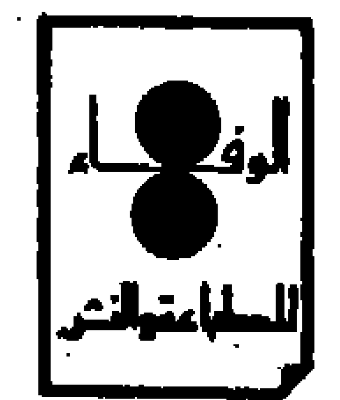




الدولة العثمانية

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٢٤٢٧٧٢١ / ٢٥٦٢٢٢٠ / ٢٥٦٢٢٣٠

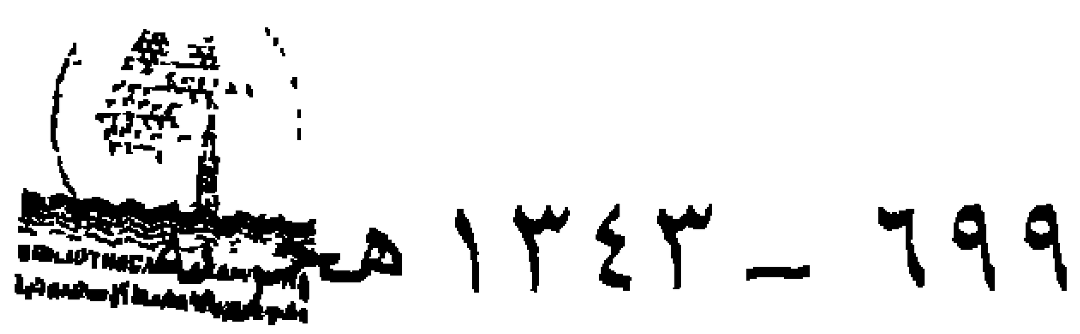
المكتبة : أمام كلية الطب ت: ٢٤٧٤٢٣ ص ب : ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

نحو تأصيل إسلامي للتاريخ

الأمة المسلمة

أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

الدولة العثمانية



٦٩٩ - ١٣٤٣ هـ

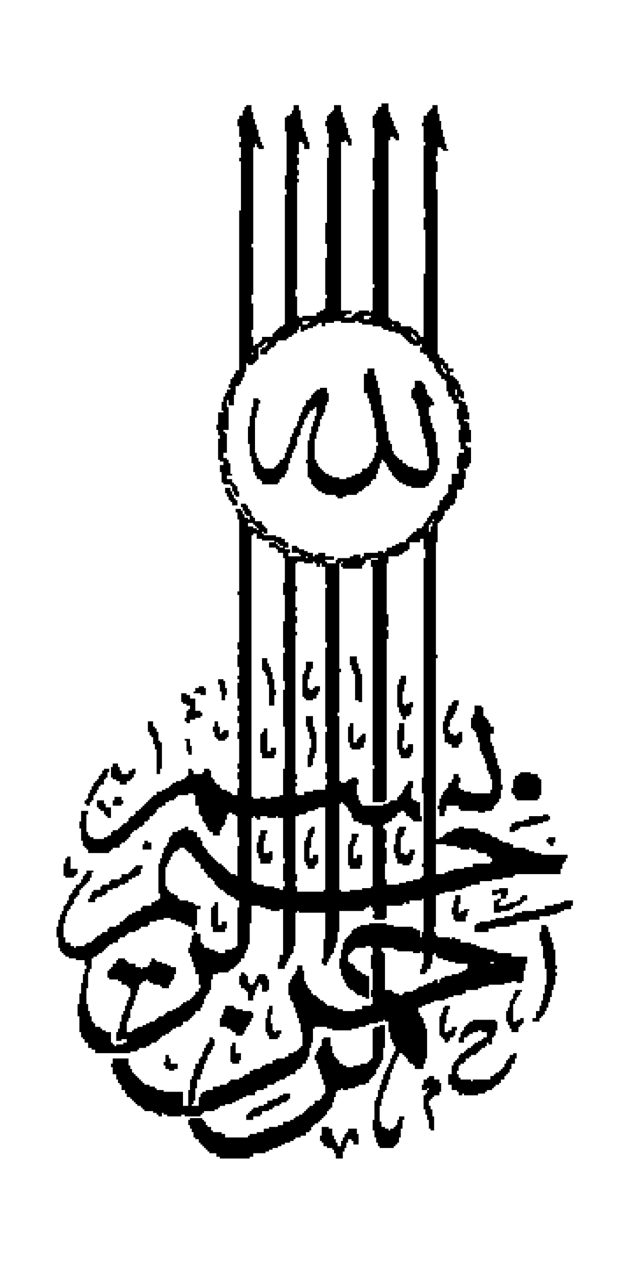
١٢٩٩ - ١٩٢٤ م

الجزء الثاني

الدكتور جمال عبد الهادي محمد مسعود

الدكتورة وفاء محمد رفعت جمعة

علي أحمد لبن



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه ونؤمن به ونتوكل عليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى علمنا: **﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾** آية ٩٢ سورة الأنبياء.

ونشهد أن زعيمنا ومعلمنا رسول الله محمد ﷺ الذى علمنا: «أيها الناس إن الرب واحد وإن الدين واحد، وإن الأب واحد .. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبعد ....

فهذا هو الجزء الثانى من تاريخ الدولة العثمانية (٦٩٩-١٣٤٣هـ/ ١٢٩٩-١٩٢٤م) وهو يتكون من :

أولا: باب بعنوان تاريخ الدولة العثمانية منذ عهد السلطان عبد الحميد الثانى وهذا الباب يتكون من سبعة فصول :

الفصل الأول: السلطان عبد الحميد الثانى فى مواجهة المؤامرة الأوروبية لإسقاط الخلافة العثمانية.

الفصل الثانى: ضباط الانقلاب العسكرى بتخطيط من الإنجليز يعزلون خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثانى.

الفصل الثالث: تقويم فترة حكم السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى.

الفصل الرابع: انهيار الدولة العثمانية فى عهود: السلطان محمد الخامس والسلطان محمد السادس والسلطان عبد المجيد بن عبد العزيز.

الفصل الخامس: الزعماء والشعراء والكتاب يبكون الدولة العثمانية.

الفصل السادس: العلماء يكشفون دور اليهود والصليبيين فى إلغاء الخلافة وينبهون الأمة إلى أن إقامة الخلافة الإسلامية فريضة فى رقاب المسلمين.

الفصل السابع: تقويم فترة حكم الدولة العثمانية.

وما توفيقنا إلا بالله

المؤلفون

الباب الأول

تاريخ الدولة العثمانية

منذ

عهد السلطان عبد الحميد الثانى

(١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م)

الفصل الأول

السلطان عبد الحميد الثانى

فى مواجهة المؤامرة الأوربية لإسقاط الخلافة العثمانية

* المؤامرة الأوربية : تهدف إلى تمزيق العالم الإسلامى إلى دويلات طائفية وعرقية والسيطرة على أرضها وثرواتها بعد ردّ أهلها كفّاراً حسداً من عند أنفسهم .
* الوسائل الأوربية : إشعال الفتن الطائفية بين المسلمين والنصارى ؛ وبين أبناء الأمة وأولياء الأمر ، ثم التدخل بحجة حماية الأقليات النصرانية ؛ أو بحجة حماية الديمقراطية وحقوق الإنسان وسيادة القانون .
* أوربًا تعتمد فى تحقيق الهدف على الغزو العسكرى والغزو الفكرى والهيمنة الاقتصادية .
* اختطاف فتاة بلغارية نصرانية فى سلانيك وهى فى الطريق لإشهار إسلامها بصفة رسمية.
* تمرد الأقليات النصرانية فى بلغارستان وصربيا والجبل الأسود والبوسنة والهرسك وخروجهم على الدولة العثمانية .
* مذكرة لندن إلى الدولة العثمانية كانت بمثابة تمهيداً للهجوم الروسى على الدولة العثمانية بحجة حماية الأقليات النصرانية فى صربيا والجبل الأسود .
* معاهدة سان اسطفانوس تكرّس تمزيق الدولة العثمانية إلى كيانات طائفية .
* بريطانيا تحتل جزيرة قبرص ومصر وفلسطين .
* فرنسا تحتل الجزائر وتونس وسورية ولبنان فيما بعد .
* الدرس المستفاد :

هذه هى استراتيجية أوربا التى تعمل على تنفيذها فى العالم الإسلامى وخاصة العربى فى تسعينات القرن العشرين الميلادى : تمزيقه إلى دويلات طائفية (نصرانية ويهودية قوية ، وإسلامية ضعيفة (كانتونات) وذلك من خلال إشعال الفتن بين أبناء الأمة ثم التدخل العسكرى بحجة حماية الأقليات وحماية الديمقراطية وحقوق الإنسان والسلام الاجتماعى قال تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ (ق : ٣٧)

السلطان عبد الحميد فى مواجهة

المؤامرة الأوربية لإسقاط الخلافة

المتتبع لتاريخ هذه الفترة (١٢٩٣ هـ - ١٣٢٧ هـ) يلاحظ بوضوح المؤامرة الأوربية اليهودية التى تتستر باسم الصليب والتى تهدف إلى القضاء على الحكومة الإسلامية تماماً، وتمزيق الدولة العثمانية واغتصابها والسيطرة عليها عسكرياً واقتصادياً وفكرياً والعمل لإقامة دولة يهودية على أرض فلسطين . وقد تبنى أبناء أوربا عدة وسائل لتحقيق أهدافهم . وهى :

أ- الغزو العسكرى المحدود ، والتهام ديار الإسلام قطعة قطعة كما كانت تفعل روسيا والنمسا ، وبعد الالتهام ترفع الدول المغتصبة شعار الرغبة فى السلام وإيقاف الحرب وعقد معاهدات السلام مع القسم على احترامها ، وبعد أن يتم ذلك تعاود إشعال الحروب لاغتصاب جزء آخر من ديار الإسلام ، مثلما فعلت روسيا وغيرها من الدول الأوربية .

ب- تدمير الدولة من الداخل بيد أبنائها، وذلك من خلال التشجيع لقوى المعارضة بإقامة التنظيمات السرية لقلب نظام الخلافة مثل تنظيم تركيا الفتاة والاتحاد والترقى(الاتحاديون)و تنظيم الكماليين(نسبة إلى كمال أتاتورك)، وأيضا من خلال إحياء القوميات، وإثارة الفتنة الطائفية بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، لإيجاد الفرصة للتدخل الأوروبى لحماية ما يسمونة الأقليات .

ج- طمس هوية الأمة المسلمة عبر البعثات التنصيرية الأمريكية والروسية والفرنسية والإنجليزية التى كانت تحاول تنصير المسلمين عبر المدارس التى كانت تنشئها (الجامعة اليسوعية التى أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية) وعبر الخدمات الصحية والمساعدات العينية .

أسباب نجاح المتآمرين

«وما كان ذلك لينجح لولا ضعف الإيمان بالله واليوم الآخر فى قلوب الأمة لأن الله يقول :

﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا

وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

ومن الذين عاونوا الأعداء على تحقيق مخططاتهم (١) ، قطاع ضخم ممن ينتسبون إلى الأمة المسلمة ، كانوا بمثابة الأداة الطيعة الفعالة لتنفيذ مخططات الأعداء ، وكانوا قد وصلوا إلى عدد من المراكز الرئيسية فى الدولة ومن هؤلاء يهود الدونمة الذين أظهروا الإسلام تقية لتحقيق أهدافهم وقد نسى الناس أصلهم .

السلطان عبد الحميد يرعى مصالح الأمة ويواجه المؤامرة :

فى هذه الظروف البالغة القسوة حاول السلطان عبد الحميد الثانى منع الدولة من السقوط ، وقد نجح بفضل الله فى تأخير سقوطها لمدة ثلاثين عاماً ، وقد تناولت إصلاحات السلطان عبد الحميد مجالات الحياة الاقتصادية والعامة والاجتماعية والتعليمية، كما حاول القضاء على المظالم التى يتعرض لها أهل الولايات كما حاول التصدى للمؤامرة الأوربية على الخلافة الإسلامية ، ومن أبرز أعماله إصدار أوامر (خط همايونى) بتاريخ ٢١ شعبان ١٢٩٣ هـ (١٠ سبتمبر ١٨٧٦م) لإصلاح أحوال الدولة.

ومما يلفت النظر فى هذا الخط :

أ - حرص عبد الحميد الثانى على أن تكون القوانين طبقاً لأحكام الشرع الشريف المقدس.

ب- الإشارة إلى تمرد الأقليات النصرانية فى أطراف هرسك وبوسنة «بإغراء أرباب الأغراض» ومسألة عصيان الصرب ، والدم المهرق فى الطرفين إنما هو دم أولاد وطن واحد .. وأضاف السلطان عبد الحميد : «يلزم التشبث بالتدابير المؤثرة (٢) المؤدية لاستئصالها» .

كما كان السلطان عبد الحميد حريصاً على تشكيل مجالس شعبية تعاون الدولة فى أداء مهمتها ، لهذا أصدر قراراً فى ٥ شوال سنة ١٢٦٢ هـ (٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧٦) بتنظيم مجلس عمومى (برلمان) يتكون من مجلسين : أحدهما ينتخب الأهالى أعضاءه ، ويسمى «مجلس المبعوثان» ، والآخر : يعين أعضاؤه من طرف الدولة ويسمى «مجلس الأعيان» ، وبهذا يعطى أبناء الملل جميعاً من رعايا الدولة العثمانية الفرصة للتعبير عن مطالبهم والإصلاح لأحوالهم، فيقطع بذلك الطريق على التدخل الأجنبى بحجة إصلاح أحوال النصارى .

وأصدر أيضاً قانوناً أساسياً للدولة يشتمل على مائة وتسع عشرة مادة فى ٤ من ذى الحجة ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م ضمن لجميع رعايا الدولة الحرية والمساواة أمام القانون ، وأتاح حرية التعليم مع جعله إجباريا على جميع العثمانيين ، كما أتاح حرية المطبوعات ، وبين إختصاصات مجلسى «المبعوثان والأعيان» ، وكيفية الانتخاب ، وأن جميع الرعايا يطلق عليهم اسم عثمانى ، وأن الدين الرسمى هو دين الإسلام ، وأن الدولة جسم واحد وأمر بإبطال المصادرة فى الأموال على العموم والتعذيب فى التحقيق والسخرة على وجه العموم ، وعدم جواز عزل القضاة إلا بسبب شرعى .. كما ركز السلطان عبد الحميد على أهمية الشورى .

ولكن السلطان عبد الحميد كان يفتقد الرجال الثقات ، وكانت المؤامرات تحيط به من كل جانب ، والتى تولى جانب منها رجال ينتسبون إلى الأمة العثمانية ، ومن هؤلاء: مدحت باشا الذى عارض هذه الإصلاحات وتآمر على عزل السلطان عبد الحميد، ويقال إنه كان يسعى فى إسقاط نظام الخلافة الإسلامية وتطبيق النظام الأوربى اللاديني ولهذا عزله السلطان عبد الحميد الثانى فى ٢١ محرم ١٢٩٤هـ / ٥ فبراير ١٨٧٧م.

وفى ٤ ربيع الأول سنة ١٢٩٤ هـ (١٩ مارس ١٨٧٧م) فتح البرلمان العثمانى الأول (تقليداً لأبناء أوربا) ، وعند افتتاحه تليت كلمة السلطان عبد الحميد التى تحدثت عن الأسباب التى أدّت إلى ازدهار الدولة فى عصر أجداده والأسباب التى أدت إلى تأخرها فى عصره (٣) فقال :

«بينما كانت ثروة الدولة والمالية وسعادتهما صاعدتين فى درجة الترقى فى تلك الأعصار والأزمان فى ظل حماية العدالة ووقاية القوانين ، أخذنا بالانحطاط تدريجيا بسبب قلة الانقياد للشرع الشريف والقوانين الموضوعة ، وتبدلت تلك القوة بالضعف».

وأشارت كلمة السلطان عبد الحميد إلى أن الدولة على امتداد عهودها لم تكن مدينة لأحد، وأنّها استدانت بهدف مواجهة الحروب التى تنجم عن تمرد ثوار الصرب ، وبوسنة وهرسك والجبل الأسود ، وعدوان روسيا على البلاد (٤) ، يقول : «فقد اضطررت لأجل المحافظة قبل كل شىء على حقوقنا أن أزيد معسكراتنا فى جميع البلاد حتى وضعت تحت السلاح نحو ستمائة ألف عسكرى للقضاء على الاضطرابات التى تهدد أمن الأمة ووحدتها » .

ومثال ذلك : الاضطرابات الطائفية التى وقعت فى بلاد الهرسك وفى الصرب والجبل الأسود وربما النمسا أيضاً التى كانت تطمع فى الاستيلاء على ولايتى البوسنة

والهرسك فى أوائل (١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م) ، والتى كانت تهدف إلى الانفصال عن دولة الخلافة ، وكان يمكن أن تنتهى هذه الاضطرابات بالإجراءات التى اتخذها السلطان عبد الحميد الثانى ، ولكن أبناء أوربا ، النمسا وروسيا وفرنسا وإنجلترا حرصوا على استمرار الاضطرابات (الفتن الطائفية) وسلخ ولاية الهرسك والبوسنة عن جسد الدولة العثمانية .

وهنا يبدو التدخل الأوربى الأجنبى واضحًا فى شئون الدولة العثمانية بحجة حماية الأقليات النصرانية ، حينما حدثت حادثة بمدينة سلانيك فى بلاد اليونان نسبها الأوربيون إلى تعصب الإسلام الدينى مع أن منشأها المسيحيون ضد المسلمين .

حادثة سالونيك والتدخل الأوربى فى شئون الدولة العثمانية :

وتفصيل هذه الحادثة أن فتاة بلغارية نصرانية اعتنقت الدين الإسلامى طائعة مختارة، وأتت إلى سلانيك في ١٢٩٣ هـ (٥ مايو سنة ١٨٧٦م) لإثبات إسلامها شرعًا ، فتعرض لها أوباش الأروام فى الطريق حيث تم توجيهها إلى دار الحكومة واختطفوها من أيدى المحافظين عليها بالقوة ، وأخذوها أولا فى القنصلية الأمريكية ثم فى أحد بيوتات كبرائهم ، ولما اشتهر هذا الخبر بين المسلمين ، هاجوا وطالبوا من الوالى البحث عن الفتاة وتخليصها من أيدى مختطفيها ، ولما فشلت الحكومة فى العثور عليها اجتمع المسلمون وحدثت فتنة أدت إلى مقتل القنصل الفرنسى والقنصل الألمانى الذى أشيع أن الفتاة فى بيته . وقد اتخذت أوروبا من هذه الحادثة وسيلة للتدخل فى شئون الدولة ، وعلى الفور اجتمع وزراء روسيا والنمسا وألمانيا (دى بسمارك) ، وحرروا إنذاراً إلى الباب العالى (الدولة العثمانية) وافقت عليه دولتا إيطاليا وفرنسا فى ١٢٩٢ هـ (١٣ مايو ١٨٧٥م) يطالبون فيه بمطالب منها : تعيين مجلس دولى (أوربى بالطبع) لمراجعة تنفيذ وإجراء كل ما فيه إصلاح حال النصارى فى هذه الولايات ، وأن تبرم الدولة العثمانية هدنة مع الثائرين (المتمردين) العملاء للوصول إلى اتفاق مرض لهم ، وإن لم يتم اتفاق مع المتمردين ، تكون للدول الأوربية الموقعة على الإنذار (لائحة برلين) الحق فى استعمال القوة لإجبار الدولة العثمانية على تنفيذ مطالب نصارى الهرسك والبوسنة (٥) .

ويعلق صاحب كتاب الدولة العلية على ذلك بقوله :

«نرى فى ذلك ... أن الدول الأوربية كانت متفقة على محاربة الدولة (العثمانية) لتقسيم أملاكها (٦) فيما بينهم ، أو على الأقل سلخ جميع الولايات التى بها نصارى،

إذ أن الدول النصرانية لا يمكن أن تخفى تألمها من وجود بعض النصارى تحت سلطة المسلمين، فالمسألة إذن -كما ذكرنا- وكررنا سياسة دينية أو بالأحرى دينية أكثر منها سياسية » .

أما الباب العالى فلم يقبل هذه الطلبات المجحفة بحقوقه على رعاياه ، ولم يرعه هذا التهديد والوعيد .

الخلاصة

وهكذا يتضح لك أيها القارئ الكريم الأسلوب الذى تلجأ إليه الدول الأوربية الاستعمارية ، إنها تعتمد على الأقليات غير المسلمة لإشاعة الفتنة والاضطرابات داخل بلاد المسلمين ، ثم تتدخل عسكرياً بحجة حماية النصارى ، والهدف الحقيقى ليس حماية النصارى ، فالنصارى يعيشون آمنين على عقائدهم وأنفسهم وأموالهم وديارهم فى دولة الإسلام منذ ثلاثة عشر قرناً من الزمان ، أى أن الهدف هو احتلال ديار الإسلام وتمزيقها.

وهذا هو الهدف الذى يتبناه ما يسمى بالنظام الدولى الجديد لتحقيق الهيمنة العسكرية والاقتصادية والعسكرية على بلاد المسلمين (٧) .

فهل تفيق الأمة وتنتبه إلى هؤلاء الأعداء ، وتمتنع عن معاونتهم فى تحقيق أهدافهم وتقاوم مخططاتهم ؟ وهل يدرك النصارى أنهم بتصرفاتهم إنما يعاونون أعداء الأمة ، وأن هذا ليس فى مصلحتهم ؟ . وليعتبروا بما حدث فى لبنان وما يحدث فى كل بقاع الأرض .

روسيا الصليبية تثير الفتنة بين المسلين والنصارى

تمرد البلغار وخروجهم على دولة الخلافة

ذكر كتاب تاريخ الدولة العلية (٨) أن الروس شكلوا عدة جمعيات (سرية)، وقد بذلت هذه الجمعيات مساعيها (بمساعدة الحكومة الروسية) لإثارة الاضطرابات فى البوسنة والهرسك فنجحت ، وكان لهذه الجمعيات عدة فروع فى بلاد البلغار لتوزيع المال والسلاح سراً على النصارى من سكانها ، وتحريضهم على عصيان الدولة العثمانية وطلب الاستقلال ، وكان لها أيضاً مركز مهم فى مدينة ڤيينا «عاصمة النمسا» ترسل منه الأسلحة وغيرها عن طريق رومانيا إلى المتمردين ، مما يثبت أن للنمسا ضلعاً فى هذه الحركة العصيانية ، وبهذه المساعى الخبيثة الشيطانية كفر البلغاريون بنعمة دولة الإسلام

عليهم التى لم تتصد لهم بتغيير دينهم أو إماتة لغتهم بل ساعدتهم بعدم تعرضها لهم على حفظ جنسيتهم (قوميتهم) ، وقام المتمردون يطالبون بالاستقلال (أى الانفصال عن جسد الدولة الأم) بناء على إيعاز أرباب الدسائس من الأجانب» .

وحصلت عدة حركات عصيانية (تمرد) من البلغار فى سبتمبر وأكتوبر ١٨٧٥م(١٢٩٢هـ) أطفئت بسرعة .

وفى أبريل ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) عقد المتآمرون البلغار فى إحدى مدنها مؤتمراً حضره مندوبون من اللجان المركزية ، (ڤيينا وبوخارست عاصمة رومانيا التى كانت لم تزل تحت حكم الدولة العثمانية) ، وقرروا إعلان الخروج على الدولة العثمانية ، وزعموا أن روسيا مستعدة لمدهم بالجيوش لو تغلبت عليهم جيوش الدولة العثمانية وتدفع لهم أيضاً قيمة ما يتلف من مساكنهم ومزروعاتهم . وقرر المتآمرون أن يبدأ التمرد على الدولة العثمانية بقتل المسلمين وإيقاد النار فى مدينة أدرنة فى مائة موضع وفى مدينة فيليبه فى ستين موضع ، ثم يهجم ثلاثة آلاف نفر على مدينة «بازار جق» .

وفى أول مايو سنة ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) نُفذ أغلب القرارات وحصلت عدة مذابح فى كثير من القرى قتل فيها كثير من المسلمين لتجريدهم من السلاح وعدم إمكانهم رد القوة بمثلها ، ولكن بفضل الله تمكنت الدولة العثمانية من إخماد هذه الفتنة بالقوة المسلحة .

ولما كادت تخيب مساعى دعاة الفتنة والفساد من البلغار أشاعوا بأوروبا أنّ العساكر العثمانية ارتكبت ما لا يرتكبه المتبربرون ؛ وأسدلوا الغطاء على ما اقترفه البلغاريون من قتل المسلمين فى بادئ الأمر ، وهولوا من المسألة ليستميلوا الرأى الأوربى إليهم وفتح موضوع المسألة الشرقية ، وتكلم بعض وزراء الدول الأوربية بما يمس كرامة الدولة العثمانية ، ومن هؤلاء : «جلادستون» الإنجليزى الذى ألقى الخطب الرنانة وألف الرسائل المطولة طعناً على الدولة العثمانية ناسياً لها ما لم يسمع بمثله فى التاريخ ، ناسياً ما فعلته حكومة الإنجليز مع الأيرلنديين وأهالى أستراليا الأصليين الذين أعدمتهم عساكرها والمهاجرون من سكانها رمياً بالرصاص . وهاج الرأى العام خصوصاً فى انجلترا ضد الدولة العثمانية وطالبت الحكومة الإنجليزية فى ١٨ سبتمبر ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) بالتحقيق فيما نسب للمسلمين وبعثت رسالة لوم للدولة العثمانية على ما نسب إليها من تقصير حال النصارى وطلبت من السلطان عبد الحميد باسم ملكة إنجلترا ، تعويض الثائرين (المتمردين) ، وبناء ما تهدم الكنائس والبيوت على مصاريف الدولة ومجازاة المأمورين الذين أمروا بإجراء ما سماه بالفظائع ، وتعيين والى نصرانى على بلغاريا وإن

كان مسلماً يكون له مستشارين نصارى (٩) .

الخلاصة :

وهكذا يتضح للقارئ الكريم أن أوروبا –ومنها روسيا وإنجلترا– كانت حريصة على إثارة الفتن الطائفية بين المسلمين والنصارى ، واتخاذ ذلك وسيلة للتدخل فى شئون الدولة العثمانية لتمزيقها إلى دويلات طائفية والسيطرة على مواردها .

وهو نفس الشيء الذى يفعله ما يسمى بالنظام العالمى الجديد الآن لتمزيق العالم الإسلامى من إثارة الفتن بين أبناء مصر والسودان (١٠) وغيرها ، وهو نفس الشيء الذى فعله فى منطقة الخليج حينما أشعل الحرب بين العراق وإيران ، وبين العراق والكويت ، وصدق الله القائل : **﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾** (إبراهيم : ٤٦).

وقد علق على ذلك كاتب الدولة العلية (١١) بقوله : «فليتأمل القارئ إلى نسبة التوحش للدولة التى لم تأت غير ما تأتيه غيرها من الدول لو حصلت بها ثورة داخلية ، مع أن روسيا ارتكبت وما زالت إلى الآن ترتكب مع يهود بلادها (ومع أهل تركستان الشرقية والغربية المسلمين) ما لم يسمع به أيام تيمورلنك من الطرد والنهب والمصادرة (والإبادة وانتهاك الأعراض) ، وكذلك مع أهالى بولونيا ، وليتذكر المطلع ما فعلته فرنسا فى الجزائر، والنمسا وروسيا معاً فى بلاد المجر سنة ١٢٦٢هـ (١٨٤٥م) ، وما فعلته إنجلترا نفسها فى أيرلندا ، ويحكم بعد ذلك بأن دعوى دول أوروبا بنشر المدنية والمدافعة عنها حقيقة بالاعتبار أو أنها مجرد شباك لا تقصد بها إلا التدخل فى الشرق (بلاد المسلمين) والتهامه قطعة بعد أخرى ، وتخليص النصارى منهم من سلطان المسلمين الذين ما ارتكبوا معهم إثماً إلا عدم التعرض لدينهم ولغتهم والمحافظة على جنسيتهم ، فقوبلوا بالكفران» .

نصارى الصرب والجبل الأسود بدسائس أوروبا يخرجون على الدولة العثمانية

ما فعلته روسيا مع باقى الدول النصرانية (بالاتفاق مع النمسا وألمانيا) لإيجاد الاضطرابات الداخلية فى بلاد الدولة العلية الإسلامية لإضعافها فى البوسنة والهرسك وبلاد البلغار على سبيل المثال ، فعلته فى أماكن أخرى ، لقد أوعزت إلى أميرى الصرب والجبل الأسود بإعلان الحرب علي الدولة العثمانية ، وأمدتهما بالسلاح ، بل إن روسيا أرسلت العديد من الضباط بقيادة أحد قوادها (الجنرال تشرنايف) إلى بلاد الصرب ليقود

زمام جيشها ، وبذا كانت روسيا هى التى تحارب الدولة العثمانية باسم الصرب (١٢) .

وتحركت الجيوش الصربية بقيادة الجنرال تشرنايف الروسى فى عام ١٢٩٣ هـ (يولية ١٨٧٦م) وكذلك جيش الجبل الأسود ضد الدولة العثمانية ، ولكن شاء الله أن يهزم الأوروبيون المشركون فى ١٥ يولية على يد الجيش العثمانى بقيادة عثمان باشا الغازى وعبد الكريم باشا السردار .

وبعد أن رُدَّت جيوش المتمردين ، فكر عبد الكريم باشا القائد العثمانى فى توجيه قواه لافتتاح مدينة بلغراد ، وواصل تنفيذ خطته ، وأوقع الفشل فى صفوف الصربيين ، وولى كثير منهم الأدبار .. وفى اللحظة الأخيرة التى كان يستعد فيها لدخول بلغراد ، جاءت الأوامر من العاصمة بتوقيف القتال وعدم الزحف على بلغراد ... والسبب التدخل الأوربى الصليبى ؟!

وأبلغت القيادة العثمانية سفراء الدول الأوربية فى عام ١٢٩٣هـ (سبتمبر ١٨٧٦م) أنها لا تقبل الصلح إلا بعدة شروط منها ، وأهمها :

أولا : يأتى أمير الصرب إلى مقر الخلافة العظمى ليقدم واجبات الخضوع والعبودية إلى قيادة الدولة العثمانية .

ثانياً : أن يلغى الرديف فى بلاد الصرب وألا يزيد عدد الجيش الصربى عن عشرة آلاف مقاتل (١٣).

ولكن رفضت الدول الأوربية هذه الاقتراحات ، وتقدمت باقتراحات مضادة منها :

وقف الحرب فوراً مع الصرب ؛ من الذى أشعلها أيها المجرمون أليست الصرب والجبل الأسود ؟؟

وانسحاب القوات العثمانية من صربيا ، وتأسيس إدارة وطنية مستقلة فى البوسنة والهرسك وبلاد البلغار لمراقبة أعمال موظفى الدولة العثمانية .

ورفضت الدولة العثمانية الشروط الأوروبية ، وواصلت القوات العثمانية زحفها لتأديب المتمردين فى عام ١٢٩٣ هـ (٢٩ أكتوبر سنة ١٨٧٦م) ودخلوا مدينة جونيس، ودليجراد واتجهوا إلى بلغراد عاصمة بلاد الصرب .

لقد أزعجت الانتصارات العثمانية حكومات أوربّا . واجتمع المتآمرون (دول أوربا) وقرروا إرسال برقية إلى قيادة الدولة العثمانية يطالبون بإيقاف الحرب فوراً ومهادنة الصرب والجبل الأسود لمدة ستة أسابيع أو شهرين ، وإن لم يجب هذا الطلب فى مسافة ثمانية

وأربعين ساعة ينسحب السفير الروسى هو وجميع موظفى السفارة من العاصمة العثمانية(١٤) .

واضطرت الدولة العثمانية إلى قبول طلب الدول الأوربية منعًا للعراقيل السياسية ومنحت لمحاربيها هدنة لمدة شهرين مدت فيما بعد إلى شهر مارس سنة ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) .

وفى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٧٦ (١٢٩٣هـ) دعا وزير خارجية انجلترا دول أوروبا لعقد مؤتمر فى الآستانة (استانبول) لتسوية حالة مسيحى الدولة بكيفية ثابتة.

وما دَخْلُ إنجلترا؟ هذه مسائل من صميم الأمور الداخلية للدولة العثمانية التى فى ظل حكمها تمتع أهل الكتاب بالأمن والأمان على عقائدهم وأموالهم وأعراضهم وديارهم ، والدليل نمو أعدادهم، وثرواتهم ، وأملاكهم . إنه الحقد الصليبى وصدق الله القائل : **﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾** (البقرة : ٢١٧).

وفى هذه الأثناء كانت روسيا تعد العدة لإعلان الحرب على الدولة العثمانية ودعم الصرب وقد ألقى قيصر روسيا خطابا فى موسكو فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) أثنى فى خلاله على شجاعة أهالى الجبل الأسود (١٥) وثبات الصربيين وفى سفارة روسيا باستانبول عقد مندوبو الدول الأوربية روسيا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والمجر والنمسا عدة اجتماعات من ١١ إلى ١٧ ديسمبر بدون حضور مندوب الدولة العثمانية ، وقرروا تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين يكون ولاتها من النصارى الأجانب أو التابعين للدولة وأن تشكل قوة جندرمة (شرطة) من النصارى يكون ضباطها من مسلمين ونصارى تعينهم الدولة وأن تشكل لجنة دولية لمدة سنة لمراقبة تنفيذ المقترحات ، وتعطى نفس الامتيازات إلى ولايتى البوسنة والهرسك .

وفى حالة عدم قبول الاقتراحات تقوم الدول الأوربية بسحب سفرائها من عاصمة الدولة العثمانية وقطع العلاقات مع الدولة العثمانية ، مع اتخاذ الطرق الإجبارية لإكراهها على قبول اقتراحاتها .

واجتمع المؤتمرون (المتآمرون) من أبناء أوروبا فى ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦م (١٢٩٢هـ) بصفة رسمية فى سراى البحرية تحت رئاسة صفوت باشا (وزير خارجية الدولة العثمانية) وفى يوم انعقاده تم إعلان القانون الأساسى الذى ساوى بين جميع رعايا الدولة .

ولهذا فقد رفضت الدولة العثمانية طلبات المؤتمر الأوربى فى ٢١ يناير سنة ١٨٧٧ (١٢٩٤هـ) وأعلنت أنّها مستعدة لتشكيل مجالس إنتخابية فى البوسنة والهرسك والبلغار نصف أعضائها من المسلمين والنصف الآخر من النصارى وأنّها (أى الدولة العثمانية) مصرة على رفض اللجان المختلطة (لجان المراقبة الدولية) وعدم التنازل عن أية أراض للصرب والجبل الأسود .

وهددت أوربا وتوعدت ، وانسحب سفراؤها ما عدا القنصل الروسى من الآستانة(١٦) فى ٢٣ يناير سنة ١٨٧٧ (١٢٩٤هـ) ما عدا المجر التى خالج فؤادها الإخلاص والولاء للأمة العثمانية فى هذا الوقت المريع ، وتجمهر تلامذة المدرسة العليا فى بودابست عاصمة المجر ، وقرروا إرسال وفد من اثنى عشر تلميذاً منهم ليقدم سيفاً ثميناً لعبد الكريم باشا قائد عموم الجيوش العثمانية ، ويعبر عن سعادتهم البالغة لما كانوا يتمتعون به من حرية وأمن على عقائدهم وأعراضهم ودمائهم فى حماية الدولة العثمانية ، ويندد بموقف روسيا عدوة الحرية والإسلام .

وعلى الجانب الآخر استمرت المشاورات بين دول أوربا وروسيا عما يجب عمله بشأن رفض الدولة العثمانية لمطالبهم ، والهدف -كما زعموا- هو حماية النصارى وتحسين أحوالهم ، هذه هى أوربا .. حقيقتها . إنها عريقة فى الإجرام والتآمر على العالم الإسلامى .

وفى هذه الأثناء كانت الدولة العثمانية قد عقدت صلحاً مع إمارة الصرب (١٧) ، مع تجديد الهدنة مع الجبل الأسود ، وبدأت نار الفتنة تخبو ولكن أنى لرؤوس الفتنة أن تكف عن إشعال الفتن والمؤامرات والكيد لدولة الخلافة . إنها الطبيعة الأوربية التى جبلت على الحقد والتآمر والكيد وصدق ربنا رب العالمين إذ يقول : ﴿ **ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء** ﴾ (النساء : ٨٩) . وقال تعالى : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾ (البقرة : ١٢٠).

ولهذا أرسل الأمير غور شاكوف الروسى إلى سفيره فى لندن لائحة فى ١١ مارس تسمى لائحة لندن ، لإطلاع الحكومة الإنجليزية عليها ، فإذا صادقت عليها، عرضت على سفراء الدول الأوربية فى لندن ، فإذا حازت القبول ، يوقع عليها وترسل إلى الحكومة العثمانية للعمل بها وإلا فتصير الدول الأوربية حرة فى إجراء ما يلزم لراحة رعايا الدولة العثمانية النصارى (من الذى طلب منكم ذلك أيها الأعداء .. أيها الخونة .. أيها المجرمون يا من لا عهود لهم ؟

واجتمع السفراء فى ٣١ مارس ١٨٧٧ (١٢٩٤هـ) بوزارة الخارجية وأمضوا

اللائحة ووقعها وزير خارجية إنجلترا وسفراء فرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وروسيا وأرسلوها إلى الباب العالى (الدولة العثمانية) .

إن الإطلاع على مذكرة لندن الأوربية الموجهة إلى الدولة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى تعكس لنا عراقة أوربا فى الجريمة ، إذ أنها تتحدث عن الغاية التى من أجلها أرسلت المذكرة :

إجراء الصلح في الشرق وتحسين أحوال النصارى سكان الممالك العثمانية لأجل بقاء السلامة والطمأنينة بأوربا .. وأن سفراء دول أوربا سيقومون بمراقبة تنفيذ الدولة العثمانية لهذا الطلب ، فإذا لاحظت أن الدولة قد قصّرت فإن أوربّا ستتخذ الإجراءات الكفيلة لتأمين خير النصارى ولإبقاء السلم عموماً .

وقد علق الأستاذ محمد فريد على ذلك بقوله : وقد أتينا على ذكر هذه اللائحة ليرى القارئ تعصب الدول (الأوربيه) لحماية النصارى بالدولة ، مع أنه لو تدخلت الدولة (العثمانية) فى شئون إحدى الدول الأوربية وطلبت من فرنسا مثلا عدم التعرض لما يمس الأمة الإسلامية بالجزائر أو مساواة المسلمين بها بالنصارى واليهود – لشددوا النكير عليها ، ورموها بالتعصب الدينى المتصفين هم به دون غيرهم ، ولكن هى القوة ، ففى التمدن الغربى الحديث (الاستعمار) أن تسود على كل حق تحت راية الإنسانية والمساواة (والآن السلام العالمى) وما هى إلا ألفاظ لا معانى لها إلا فيما يلائم مصالحهم(١٨) .

ولنا على مذكرة لندن الأوربية عدة ملاحظات :

أولا : إن الدولة العثمانية كانت تعتبر النصارى واليهود أهل الكتاب مواطنين عثمانيين يأمنون على عقائدهم وأموالهم ودمائهم وديارهم ، لأن الله أمرهم بذلك قال تعالى : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولن يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾ (الممتحنة: ٨).

وعلى مدار ستمائة سنة – هى عمر الدولة العثمانية ، نمت أعداد أهل الكتاب ونمت ثرواتهم ، ونالوا حظهم الوافر من التعليم ، وشغلوا المناصب المختلفة فى الدولة .

ثانياً : إن نصارى الدولة العثمانية لم يتحركوا ضد الدولة العثمانية إلا بسبب دفع الأوربيين لهم ، وإن كانوا هم مستعدين نفسياً للتآمر ، فالله يقول : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾ (البقرة : ١٢٠) . ويقول الله تعالى : ﴿ **لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة** ﴾ (التوبة : ١٠) . ويقول : ﴿ **إن**

يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ﴾ (الممتحنة : ٢).

ولعل ما يجرى للمسلمين من الصرب على أرض البوسنة والهرسك (عام ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤) ، وما يجرى للمسلمين على أرض فلسطين المحتلة – ما يؤكد هذه الحقائق، وما يجرى للمسلمين على أرض شاشان (القوقاز) يؤكد أن ملة الكفر واحدة، أن الصرب والروس ملة واحدة.

بالإضافة إلى ما سبق فإن صاحب كتاب الدولة العلية(١٩) قد ذكر أن روسيا كانت تخش من الصلح بين الدولة العثمانية وصربيا والجبل الأسود فتضيع عليها فرصة الحرب التى كلفتها مبالغ طائلة ؛ هل عرفنا من الذى يشيع الفتنة الطائفية فى بلاد المسلمين ؟

ورفضت الحكومة العثمانية مذكرة لندن الأوربية ، لأنها تهدد استقلال الدولة العثمانية ، وتعتبر تدخلا فى شئونها الداخلية ، وأعلنت تصميمها على الدفاع عن شرف الدولة وعدم الانصياع لطلبات أوربا الصليبية ، كما أنها فى نفس الوقت أعلنت أنها شرعت فعلا فى إجراء الإصلاحات التى وعدت بها ، وأن الفتن التى حدثت فى الولايات العثمانية إنما نشأت نتيجة إغواء المغويين من الخارج وأن الدولة العثمانية من حيث كونها مشتعلة لا تذعن بأن تكون تحت مراقبة الدول الأوربية مفردة كانت أو مجموعة فى أثناء إجراءاتها إصلاح أحوال النصارى العثمانيين ، وأنها لا ترضخ لتهديد أو وعيد ، وأنه اتكالا على الله البارى واعتماداً على العدل أنها تنكر كل ما يحكم به عليها أحد من دون موافقتها ، وجازمة بأن تحافظ على المقام الذى أقامها فيه القادر عز وجل وقدّره لها ، فلا تزال تدفع كل ما من شأنه أن يجحف بالأصول العمومية على اعتبار أن خليفة المسلمين مسئول عن سلامة العالم الإسلامى كله (٢٠) .

واهتبلت روسيا (٢١) الفرصة وأعلنت بمساعدة رومانيا (الأفلاق) الحرب على الدولة العثمانية !! أين دول أوروبا الموقعة على معاهدة باريس فى ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٦م (١٢٧٣هـ) !! إنهم لا أيمان لهم ، ولا عهود .. ومن هنا كان أمر الله بقوله: ﴿ **قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون** ﴾ (التوبة : ١٢)

وصدرت الأوامر من القيادة العثمانية لمواجهة العدو الروسى ، وأصدر شيخ الإسلام بتاريخ جمادى الأول ١٢٩٤هـ الموافق ٢١ مايو ١٨٧٧م فتوى بوجوب القتال على كل مسلم ، وكانت مواقع وبطولات لمجاهدين مسلمين سطروا صفحات بيضاء فى تاريخ

الجهاد ضد أعداء الإسلام ، أمثال الغازى عثمان باشا عندما حصرته جنود روسيا فى حادثة (بلفنة) (شمال بلاد البلغار وشمال شرق صوفيا) ، والغازى أحمد مختار باشا فى جهات قارص وارضروم (٢٢) .

وأعلنت رومانيا الحرب على الدولة العثمانية وانضمت قواتهم إلى قوات الروس ، وعلى درب الخيانة سار شعب الجبل الأسود ، وكذلك جميع النصارى فى بلاد أوربا.

وكان القدر الذى لا يملك الإنسان أمامه إلا الاسترجاع ، لقد هزمت القوات العثمانية للمرة الأولى منذ ستمائة عام ، وأسباب الهزيمة ليست كثرة عدد وعدة العدو أو قلة عدد وعدة العثمانيين ، ولكن السبب يكمن فى ضعف الإيمان بالله واليوم الآخر وحب الدنيا وكراهية الموت الذى عشش فى قلوب الذين ينتسبون إلى الإسلام ، وكذلك حياة الترف التى كانت تعيشها الأمة .

وأسفرت الحرب عن تمزيق أجزاء من دولة الخلافة العثمانية ، والأخطر من ذلك ما تعرض له المسلمون من إيذاء مادى ونفسى على يد النصارى الذين ظلوا آمنين على أرواحهم وممتلكاتهم وعقائدهم طيلة حكم الدولة العثمانية (٦٠٠ سنة تقريباً) من سنة ٦٩٩ حتى ١٣٤٧هـ وبمجرد انفصالهم وإمساكهم بزمام السلطة فى البلاد انطلقوا يذبحون المسلمين ويطاردونهم ويأخذون أموالهم وأملاكهم .. مما دفع المسلمين إلى الهجرة فراراً بأنفسهم (٢٣) إلى العاصمة العثمانية (اسلامبول)، وهذه مصيبة المصائب، الفرار ، ألم يكونوا يتوقعون ذلك فيعدون لكل أمر عدته .. كما أمر ربنا فى قوله: **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾** (الأنفال : ٦٠).

ألم يعلموا من قرآنهم معنى : **﴿ خذوا حذركم ﴾** (النساء : ٧١) ألم يتعلموا أنّ أعداءهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، فيحذروهم ويعملوا ليخضدّوا شوكتهم .

وامتد التمرد ضد الدولة العثمانية (دولة الخلافة) ، والإيذاء للمسلمين إلى بقية الولايات العثمانية ، مقدونية ، وتساليا ، وجزيرة كريت بدسائس من مملكة اليونان .. اعتماداً على الأقليات غير المسلمة (٢٤).

واضطر –أو لم يكن مضطراً– مندوب الدولة العثمانية إلى توقيع اتفاقيتين ، لمنح الإستقلال الإدارى للبلغار ، والاستقلال السياسى لرومانيا والجبل الأسود ، وإعطائهم بعض أراض من أملاك الدولة العثمانية وتقرير غرامة حربية لروسيا تدفع نقداً أو بشيكات، أو يستعاض عنها ببعض القلاع والحصون .

فصل جديد من المؤامرة الأوربية :

وتوقف العدوان الروسى الأوروبى الصليبى على الدولة العثمانية فى ٣١ يناير ١٨٧٨ (١٢٩٥هـ) بعد اجتذاذ أجزاء من جسد الدولة العثمانية الإسلامية - ريثما يتم ازدراد القضمة التى قضمها استعداداً لجولة أخرى ثالثة .

وحينما علمت دول أوروبا بأخبار الهدنة ، طلبت النمسا من إنجلترا عقد مؤتمر ضمن الدول الموقعة على معاهدة باريس ١٢٧٣هـ (١٨٥٦م) للنظر فى شروط الصلح ، خوفاً من انفراد روسيا بالغنيمة أو بالفريسة (٢٥).

والدليل أنّه حينما أشيع أنّ العساكر الروسية احتلت الآستانة (إسلامبول) أمرت الحكومة الإنجليزية أسطولها بالتوجه إلى الآستانة (إسلامبول) لمراقبة تحركات القوات الروسية ، ودخل الأسطول الإنجليزى فعلا إلى مياه البوسفور (٢٦).

وتوالت النكبات على الدولة العثمانية ، وبدأت رؤوس الأفاعى الأوربية تتربص بالدولة العثمانية الجريحة فى الداخل، وفى ١٧ مايو وقعت فتنة فى قصر جراغان (العاصمة إسلامبول) على أيدى من ينتسبون إلى الإسلام (على سعاوى ناظر المكتب السلطانى الذى يتعلم فيه أولاد السلطان عبد الحميد) وصالح بك ... وكانت هذه الفتنة تستهدف قتل السلطان عبد الحميد وإثارة الفتنة فى البلاد وتمكين الروس من احتلال العاصمة بدعوى حماية من بها من النصارى ، ولكن الله سلم وقتل رؤوس الفتنة (٢٧) .

ولم تقف الفتنة بالداخل عند هذا الحد ، فقد أشعلت الحرائق فى يوم ٢٠ جمادى الأولى (٢٢ مايو) التى التهمت جزءاً عظيماً من الباب العالى ودائرة شورى الدولة وتوابعها ، ودائرة الأحكام العدلية ، والتشريفات ، والداخلية ، وغيرها مع جميع ما فيها من الأمتعة والمفروشات والأوراق الرسمية ، وقد نسب الكتاب هذا الحريق إلى المتمردين الدين فشلوا فى تحقيق أهدافهم من وراء حادثة قصر جراغان» .

إن روسيا الصليبية لم تكتف بما اغتصبته وكذلك دول أوروبا لم تكتف بما حققت ، فروسيا تريد أن تحتل (الآستانة) العاصمة «إسلامبول» تريد أن تطلق عليها اسم مدينة قسطنطينوبل بدلا من مدينة الإسلام (إسلامبول) : تريد أن تعيدها إلى عهد الجاهلية .. عهد الشرك .. وذلك بحجة حماية النصارى فى الداخل .

وهذا يلقى بظلال الشك : أن روسيا كانت وراء حادثة قصر جراغان (٢٨) ، وحريق الباب العالى ، لإيجاد المبرر لاحتلال الآستانة (هل تعلمنا أن العدو هو وراء ما

يحدث فى ديار الإسلام من فتن طائفية وحرائق وحوادث ، لأنها وسيلة لتمزيق واحتلال ديارنا وسلب ثرواتنا .. هل نقرأ التاريخ قراءة واعية ؟

ولكن ، هل تسمح بقية الدول الأوربية بذلك ؟ طبعا لا . لأن ذلك يعنى أن روسيا قد التهمت الوجبة (الفريسة) كلها ، ومن هنا كان تهديد إنجلترا لروسيا بأنها لا تسمح مطلقاً باحتلال الآستانة ، وأنّه لو دخلت العساكر الروسية إليها تكون مسؤولة عما ينجم عن ذلك من أخطار (٢٩) ، واستجابت روسيا وظلت عساكرها خارج المدينة (العاصمة إسلامبول) .

روسيا الصليبية الأرثوذكسية تجبر الباب العالى على توقيع معاهدة اسطفانوس لتصفية الدولة العثمانية وإنشاء الكيانات الطائفية النصرانية :

وتعددت الاتصالات بين حكام روسيا وحكام الدولة العثمانية لتوقيع ما يسمى بالصلح النهائى ، وهو فى الحقيقة لم يكن صلحاً ، إنّما شروطاً مجحفة أملتها الحكومة الروسية على الدولة العثمانية ، وطلبت توقيعها قبل يوم ٣ مارس سنة ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ) (الموافق عيد القيصر وإلا تبطل الهدنة وتتقدم العساكر الروسية إلى العاصمة إسلامبول (الآستانة)، ووقع المندوبان العثمانيان على المعاهدة مع من لا عهود لهم (وهى التى تسمى بمعاهدة اسطفانوس)(٣٠) ، وصاح عساكر الاحتلال صيحة النصر ، وأقام لهم أحد القساوسة صلاة حافلة فى ميدان الاستعراض ، نزل فى أثنائها جميع القواد والضباط الروس النصارى عن ظهور خيولهم وجميع الجنود وجثوا على الأرض .

وكان بودنا أن نعرض لنصوص هذه المعاهدة لنرى مدى الخسارة والظلم الذى تعهدت روسيا الصليبية أن تحدثه للدولة العثمانية ؛ وكان بودنا أن نعرض لنصوص معاهدة القديس إسطفانوس ١٩ آذار ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ) ونعرض معها لاتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٩م ولاتفاقية مؤتمر مدريد (١٩٩١) ، لكى ندرك أنّ الحرب التى أعلنها الصليبيون أعداء الإسلام على الأمة المسلمة منذ زمن طويل لم يخب أوارها بعد .

ويكفى أن نشير أن هذه الاتفاقية (إسطفانوس) قد مزّقت أجزاء من الدولة العثمانية وأقامت عليها كيانات مستقلة (دويلات طائفية أو كانتونات) مثل الجبل الأسود ، وصربيا ، ورومانيا ، وبلغاريا ، واقترن ذلك بتخلى الدولة العثمانية عن أجزاء من ديار الإسلام ، فمهدت الطريق بذلك أمام تصفية الإسلام والمسلمين داخل ديار الإسلام (وهو ما يجرى الترتيب لأحداثه فى العالم العربى فيما تبقى من التسعينات ؛ كما ذكر

جارودى فى كتابه «ملف إسرائيل» ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٢).

لقد أصرت الاتفاقية على تصفية القوة العسكرية (٣١) العثمانية (الجيش العثمانى الإسلامى) فى البلاد المغتصبة ، وأصّرت أيضاً على ضرورة تعويض الروس عن الخسائر المدنية والعسكرية نتيجة الحرب التى أعلنتها هى ، ولم يكن للعثمانيين يد فى إشعالها ، وهكذا نلمح الظلم البين المعتدى يفرض على المعتدى عليه أن يعوضه عن خسائره نتيجة عدوانه عليه !.

وكما يقول صاحب كتاب «تاريخ الدولة العلية» : إن الحرب الروسية الأخيرة قد «محت تركية أوربا بأجمعها تقريباً من العالم السياسى» (٣٢) .

موقف دول أوربا من اتفاقية سان اسطفانوس :

إنجلترا تنظر بعين الشك إلى نتائج هذه المعاهدة ، نتيجة وجود القوات الروسية بالقرب من بوغاز البوسفور ، وخوفاً من ازدياد نفوذ روسيا فى الهند نتيجة هذه المعاهدة ، ولهذا كانت إنجلترا أشد معارضة من غيرها لهذه المعاهدة وتود تعديلها رغماً عن روسيا.

أما النمسا فكانت معارضتها للمعاهدة بسبب رغبتها فى أن يكون لها نصيب مع روسيا فى بلاد الإسلام . تريد أن يكون إقليم البوسنة والهرسك من نصيبها .

لهذه الأسباب دعت النمسا فى ٧ مارس ١٨٧٨ (١٢٩٥هـ) جميع الدول الأوربية لعقد مؤتمر فى مدينة برلين تحت رئاسة الأمير بسمارك المعضد لها على احتلال البوسنة والهرسك ، اشترطت انجلترا لحضورها ضرورة إعادة النظر فى نصوص معاهدة اسطفانوس لأنها توقع الضرر بمصالح إنجلترا (الإستعمارية) على حد زعمها ، وبعد أخذ ورد تم تعديل بعض نصوصها (٣٣) بما يحقق مصالح إنجلترا فى ٣٠ مايو ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ).

انجلترا تحتل جزيرة قبرص الإسلامية (٣٤)

والعجيب أن المؤامرة الاستعمارية لم تتوقف بعد ذلك على كافة الجهات العسكرية والسياسية ، والدليل أن انجلترا استطاعت أن تقنع الحكومة العثمانية بعد كل ما حدث بتوقيع معاهدة دفاعية مع حكومة إنجلترا (مع أعداء الأمة المسلمة) ضد روسيا لو تقدمت نحو بلاد الأناضول (تركيا) ، ويتعهد الباب العالى لحكومة إنجلترا بإجراء إجراءات الإصلاحات اللازمة لتحسين حال النصارى ، بهذه الجهات حتى لا يميلوا لروسيا. (وهل هذه كانت تحتاج إلى معاهدات ، فالنصارى يعيشون آمنين مطمئنين لهم كافة الحقوق المدنية ، ولا يقبلوا عساكر الإنجليز منقذين كما حصل فى بلاد البلغار) ، وأن

تسمح الدولة العلية لإنجلترا باحتلال جزيرة قبرص وإدارة شئونها لتكون على مقربة من حدود روسيا ويتسنى لها صد هجماتها .

والسؤال الذى نطرحه : هل وفَّت إنجلترا بعهودها ؟ هل خرجت من قبرص؟(٣٥) هل قامت بحماية الدولة العثمانية من روسيا الصليبية ؟ والإجابة بالنفى .

وفى ٤ يونيو ١٨٧٨م (١٢٩٦هـ) أضيفت إلى مقررات مؤتمر برلين إضافات تجعل احتلال بريطانيا لقبرص احتلالا أبدياً ؛ إذ علقت خروجها منها على خروج روسيا من مدينتى باطوم (٣٦) وقارص اللتين أضيفتا إلى أملاك روسيا إضافة قطعية ، والعجيب أن الدولة المحتلة (إنجلترا) قبلت أن يبقى فى الجزيرة محكمة شرعية للنظر فى القضايا التى تخص مسلمى الجزيرة ، وأن تعين الدولة العثمانية ناظراً للأوقاف مع آخر إنجليزى لإدارة الأملاك والعقارات والجوامع والمساجد والمدارس والمكاتب وغيرها من الإدارة الدينية الجديدة .

والأنكى من ذلك أن العدو المحتل الإنجليزى قد صار له الحق أن يشترى وبأسعار مناسبة أراضى الجزيرة ، أو الأملاك التى يرون شراءها لازما لإجراء أشغال نافعة .

فرض التصفية على الدولة العثمانية عبر معاهدة برلين :

انطلق «بسمارك» يدعو أوربا للاجتماع فى برلين يوم ١٣ يونيو ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ) واستجاب للنداء كل من : النمسا ، وألمانيا ، والمجر ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، وحضر كمراقب مندوبو اليونان ، وبلغاريا ، وصربيا والجبل الأسود ، وحضر مندوب الدولة العثمانية ووقع على قرارات المؤتمر ، ليعطيها بذلك الصفة الشرعية ، وكانت قرارات المؤتمر امتداداً للمؤتمرات السابقة وهى المزيد من اقتطاع أملاك الدولة الإسلامية على عهد آل عثمان . والشىء الملفت للنظر أن فرنسا طلبت قبل الاجتماع عدم مناقشة وضع مصر وبلاد الشام (سورية وفلسطين)(٣٧) ، مما يؤكد أن النية كانت مبيتة قبل الحرب العالمية الأولى ، وقبل توقيع معاهدة (سايكس – بيكو) ١٩١٦م (١٣٣٥هـ) وقبل وعد بالفور على احتلال بريطانيا لمصر ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) وفلسطين ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) تمهيداً لإقامة الكيان اليهودى ، وأن تكون سوريا ولبنان من نصيب فرنسا ١٣٤١ هـ (١٩٢٢م) ، فى الوقت الذى تغض فيه بريطانيا الطرف عن احتلال فرنسا لبقية بلاد الشمال الإفريقى إلا ليبيا فتكون من نصيب إيطاليا عام ١٩١١م (١٣٢٩هـ) .

وهكذا نرى أوربا تعمل من خلال استراتيجية (خطة بعيدة المدى) لتحقيق أهداف

محددة وهى ضرب الخلافة الإسلامية ، وتمزيق العالم الإسلامى إلى دويلات عرقية وطائفية ودينية نصرانية ويهودية ، وتوزيعها مغانم لدول أوربا للسيطرة عليها والاستفادة بخيرها بعد ردّ أهلها كفاراً حسداً من عند أنفسهم . يتضح ذلك من الاطلاع على قرارات مؤتمر برلين ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ))(٣٨) والتى بمقتضاها قامت دويلات نصرانية على أرض بلغارستان ، والجبل الأسود ، والصرب ، ورومانيا ، والبوسنة والهرسك (تحت النفوذ النمسوى والمجرى) واغتصبت «روسيا» أراضى : أردهان ، وقارص ، وباطوم، ومرسى باطوم وجميع الأراضى الواقعة بين روسيا وتركيا القديمة بعد أن ظلت هذه البلاد جزءاً من الدولة الإسلامية عدة ستمائة سنة أو يزيد .

بالإضافة إلى ما سبق فإن الدولة العثمانية قد أجبرت على سحب عساكرها (المجاهدين) وهدم سائر القلاع والحصون التى كانت قائمة فى تلك البلاد على نفقتها.

والأنكى من ذلك أصبح المسلمون فى تلك البلاد تحت سلطان دولة نصرانية لا ترقب فى مؤمن إلا ولا ذمة ، مما دفع الكثيرين منها إلى الهجرة تاركين الأموال والديار ، بل إن قرارات المؤتمر أعطت لدول أوربا الحق فى مراقبة أمور الدولة العلية الداخلية بحجة حماية النصارى عموماً ، وحماية الأرض من تعدى الأكراد والجراكسة المسلمين عليهم، كما أنها أعطت أملاك الدولة العثمانية (ديار الإسلام) لدول لم تشترك فى حرب ضد الدولة مثل : اليونان وإيران (التى سلمت إليها مدينة قطور) .

هذا عن القرارات الظاهرة للمؤتمر . أما المقررات السرية فتبدوا واضحة بعد ذلك فى احتلال فرنسا للجزائر عام ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠م) (٣٩) وتونس (١٢٩٩هـ ١٨٨١م) وسوريا ولبنان فيما بعد ، وإحتلال انجلترا لمصر (٤٠) ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢م) ولفلسطين ١٣٢٧هـ (١٩١٨م) .

فرنسا تحتل تونس عام ١٢٩٩هـ (١٨٨١م) بحجة عجيبة:

لقد ادعت فرنسا التى كانت تحتل الجزائر ، أن هناك استفزازات على الحدود ، وعلى الفور حركت قوة من ثلاثين ألف جندى باتجاه العاصمة ، وحاصرت قصر الباى (والى تونس) وأجبرته على توقيع معاهدة وافق بموجبها على الاحتلال الفرنسى بحجة إعادة النظام والأمن ، وقامت فرنسا بالسيطرة على مالية تونس ، وعلى الصعيد الخارجى أصبحت هى المتحدث باسم تونس ، كل ذلك تحت سمع وبصر بل وبموافقة دول أوربّا بما فى ذلك ألمانيا .

وقد حدث هذا فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى الذى قدم احتجاجات إلى

الدول الأوربية وأمر بإرسال قوات بحرية وبرية لتحرير تونس وحماية طرابلس الغرب ، كما أصدر أمراً بعزل حاكم تونس الذى قبل بالاحتلال الفرنسي ولم يرفع راية الجهاد ، وتدخلت ألمانيا لتهدئة خاطر السلطان ونصحته بأهمية حل المسألة عن طريق المفاوضات ، أما فرنسا فقد اعتبرت قرارات السلطان عبد الحميد بمثابة إعلان الحرب عليها وأصبح الأسطول الفرنسى وجها لوجه فى مواجهة الأسطول العثمانى . لهذا آثر السلطان عبد الحميد الثانى – وقد أحس أنه إزاء مؤامرة أوربية صليبية عليه عدم التمادى فى تصعيد الموقف العسكرى ، والقبول بالمفاوضات نظراً لأنه لم يمض على الحرب العثمانية الروسية إلا ثلاث سنوات خرجت منها الدولة منهوكة القوى .

ورغم ذلك فقد وصلت تعزيزات عثمانية ١٨ فيلق وعشرة آلاف بندقية إلى طرابلس الغرب لتعزيز حرب المجاهدين ضد الفرنسيين(٤١) .

مصادر ومراجع الفصل الأول

(١) وهذا هو الهدف الذى يحرص على تحقيقه ما يسمى بالنظام الدولى الجديد . يراجع التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ؛ عمر فروخ وآخرون المكتبة العصرية بيروت ؛ الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها : أ.د. عبد العزيز محمد الشناوى ؛ السياسة الدولية وفلسطين : د. محمد كمال الدسوقى ؛ ملف إسرائيل : جارودى ، دار الشروق ؛ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر : أ.د: محمد محمد حسين ؛ الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية : د. مصطفى حلمى ، دار الدعوة ، جريدة عرب تيمس ، عدد ١٠٧ صفحة ٣٨ بتاريخ ١١-٢٠ ديسمبر ١٩٩٢م ؛ مذكرات السلطان عبد الحميد : ترجمة وتقديم أ.د. محمد حرب عبد الحميد ، دار الأنصار بالقاهرة .

(٢) تاريخ الدولة العلية : صفحة ٨٧ مـ ٥٨٩ .

(٣) تاريخ الدولة العلية : صفحة ٥٩٣ ، ٥٨٩ ، ٧٠٨ .

(٤) المرجع السابق صفحة ٩٥ ، ٥٩٦ .

(٥) تاريخ الدولة العلية صفحة ٦٠٣ و ٦٠٤ ، الدولة العثمانية دولة إسلامية ، ج٢ صفحة ٨٤٦ .

(٦) لقد عاصر حكم السلطان عبد الحميد الزحف الاستعمارى الأوربى فى أعنف مراحله على ما تبقى من أقاليم لم يكن قد وصل إليها الاستعمار بعد فى أسيا وإفريقيه والاقيانوسيه وقد سادت فى هذه الفترة نظريتان استعماريتان ، ركنت إليها السياسة الأوربية : «فظهرت النظرية البيولوجية السياسية ، وكان من مبادئها أن للدول الكبرى الحق فى التهام الدول الصغرى وأن الشعوب الصغرى يجب أن تفنى أمام الدول الكبرى وقد لقيت هذه النظرية تأييداً وانتشاراً واسعين فى القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) تبريراً لضراوة الزحف الاستعمارى الأوربى على أقاليم شتى فى أنحاء العالم : وصحبت هذه النظرية نظرية استعمارية أخرى أطلق عليها Res Nullius أى الأرض التى لا صاحب لها (الملك المباح) وقد تنادى إليها غلاة المستعمرين ومن مبادئها إباحة استعمال الأقاليم التى تمتلكها شعوب مختلفة أو قبائل منعزلة عن ركب الحياة وغير نصرانية وخارج القارة الأوربية فإن هذه الأقاليم التى تسكنها أمثال هذه الشعوب أو القبائل تعتبر فى حكم المهجورة التى لا يعرف لها صحاب ، وتصبح هذه المناطق ممتلكات شرعية لأول دولة تستطيع بقواتها المسلحة أو ببعض أفراد منها أن ترفع علمها فوق ربوعها . وقد وضع مؤتمر برلين (١٨٨٤-١٨٨٥) الذى قام بتوزيع إفريقيا (الفريسة) بين أبناء أوربا عدة شروط لهذا الاستيلاء حتى يحدث جميع آثاره القانونية فى المجال الدولى . من أهم هذه الشروط: شرط الحيازة وشرط الإدارة (الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، أ.د. عبد العزيز محمد الشناوى : مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ ، ج٢ ، ص ١٠٢٩ .

(٧) ملف إسرائيل : جارودى ؛ عرب تيمس ، جريدة ، عدد ١٠٧ ، ص ٣٨ ، بتاريخ ١١-٢٠ ديسمبر

١٩٩٢ تحت عنوان المصريون فى مهب الريح ؛ فتاوى علماء المسلمين عدم جواز التنازل عن شبر من أرض فلسطين ؛ الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها : أ.د. عبد العزيز محمد الشناوى ، ج٢ ، ص ٨٤١ – ٨٤٦ .

(٨) صفحة ٦٠٥.

(٩) ارجع إلى نص رسالة اللورد دربى وزير خارجية إنجلترا إلى هنرى اليوث سفير إنجلترا فى الأستانة (تاريخ الدولة العلية ، صفحة ٦٠٧ – ٦٠٩) .

(١٠) جريدة عرب تيمس ، العدد ١٠٧ بتاريخ ١١–٢٠ ديسمبر ١٩٩٢ ، صفحة ٣٨ ؛ ملف إسرائيل ، مذابح البوسنة والهرسك ، أندلس جريدة فى أوروبا : أ.د. فوزى محمد طايل ، الزهراء للإعلام .

(١١) صفحة ٦٠٩.

(١٢) ما أشبه اليوم بالأمس فما يحدث على أرض البوسنة والهرسك الآن هو الذى حدث بالأمس ؛ فروسيا هى التى تمد الصرب بالسلاح والذخائر والغذاء الأموال لإبادة المسلمين وتشريد أبنائهم وانتهاك أعراضهم ، بل والتجارة بأعضائهم (الكلى والكبد) .

(١٣) وهذا ما تفرضه أوربا وأمريكا وروسيا على بلاد العالم الإسلامى . تقليص عدد العاملين فى الجيش، تشوين معداته . عدم تمكينه من تصنيع سلاحه وذخيرته . عدم تطوير قدراته الهجومية أو الدفاعية .. شغله بأعمال مدنية – فى الوقت الذى يطور أبناء أوروبا وأمريكا واليهود الصليبيين قواتهم المسلحة ، ودخلوا عصر السلاح النووى والسلاح الكيميائى والجرثومى ورفعوا من الكفاءة القتالية لقواتهم المسلحة للزحف على دول الإسلام .

(١٤) هل عرفنا لماذا تدعم روسيا وبلغاريا والجبل الأسود والمجر واليونان وإنجلترا وفرنسا والفاتيكان وأمريكا، الصرب الأرثوذكس اليوم ؟ هل أيقنّا أن الأمم المتحدة ومجلس الأمم وغالب الأنظمة الحاكمة فى العالم، هى اليوم مطية لتحقيق مخططات أعداء الإسلام .

(١٥) هل نفق يا أمتنا ؟ هذه أحداث ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) ، هل عرفت لماذا تدعم روسيا الصليبية الأرثوذكسية الصرب والجبل الأسود ضد شعب البوسنة والهرسك المسلم ؟ هل عرفت لماذا تدعم فرنسا والفاتيكان كرواتيا ضد شعبنا المسلم فى البوسنة والهرسك ؟ إنّه الحقد الصليبى اليهودى يا أمتنا ، وإلى الله المشتكى وهو المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله ، على كل ما يحدث فى البوسنة والهرسك ليس بعيداً منا ، تاريخ الدولة العلية ، صفحة ٦١٦ ؛ الدولة العثمانية دولة إسلامية ج٢ ص ١٠٦٥ وما بعدها.

(١٦) تاريخ الدولة العلية ، صفحة ٦١٧ .

(١٧) المرجع السابق ، صفحة ٦١٥ – ٦١٩ .

(١٨) المرجع السابق ، ص ٦٢١ .

(١٩) صفحة ٦١٩.

(٢٠) المرجع السابق ، ص ٦٢٥ ، ٦٢٦ .

(٢١) لقد اغتصبت روسيا معظم آسيا الوسطى ومعظم القوقاز الذى مزقته إلى أربعة عشرة دولة أهمها الشاشان وداغستان ، وجورجيا ، وأنغوشيا فيما بين سنوات ١٨٦٥ ، ١٨٦٨م ؛ كما اغتصبت تركستان الغربية بما فيها طشقند وسمرقند وتوغلت فى تركستان الشرقية بعد ذلك (المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، محمود شاكر، المكتب الإسلامى؛ المسلمون فى آسيا الوسطى والبلقان، أ.د. محمد حرب، المركز المصرى للدراسات العثمانية، آثار تفكك الاتحاد السوفييتى على أمن الأمة الإسلامية، لواء أ.ح. دكتور فوزى محمد طايل، دار الوفاء.

(٢٢) المرجع السابق ، صفحة ٦٢٧ - ٦٣٨ .

(٢٣) المرجع السابق ، صفحة ٦٣٩ - ٦٤١ ، مثلما وقع للمسلمين على يد البلغار النصارى .

(٢٤) المرجع السابق ، ص ٦٤٠ ، ١٤١ ، وهكذا استطاع أبناء أوربا تمزيق أجزاء من جسد الدولة الإسلامية وإقامات كيانات نصرانية عليها تحت حجة منح الاستقلال للأقليات النصرانية .

(٢٥) المرجع السابق ، ص : ٦٤١ .

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٦٤٢ .

(٢٧) المرجع السابق ، صفحة ٦٤٨ ، ٦٤٩ .

(٢٨) الدولة العثمانية دولة إسلامية ، ج٢ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ .

(٢٩) تاريخ الدولة العلية ، ص ٦٤٩ .

(٣٠) سان استيفانوس ، معناها القديس استيفان ، وهى قرية أو ضاحية من ضواحى إستانبول على الضفة الأوربية وتقع على بحر مرمرة ، نصوص المعاهدة ، صفحة ٦٥٢ - ٦٦٤ ، تاريخ الدولة العلية ؛ الدولة العثمانية دولة إسلامية ، ج٢ ، ص ١٠٠٩ .

(٣١) تاريخ الدولة العلية ، صفحة ٦٥٧ .

(٣٢) المرجع السابق ، صفحة ٦٦٤ .

(٣٣) المرجع السابق ، صفحة ٦٦٩ .

(٣٤) إنجلترا تتعهد بالدفاع عن الدولة العثمانية ضد روسيا . كيف يستقيم هذا ؟ أليست هى المسئولة عما ينزل وسينزل بالأمة من نكبات ؟ هل نسيت الدولة العثمانية فريضة الولاء والبراء ؟ هل نسيت أن الكافرين لا أيمان لهم ، وأنّ لهم أهدافًا لا يتنازلون عنها ، كما قال رب العالمين : **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾** (البقرة : ١٢٠) كيف تسمح الدولة العثمانية باحتلال جزء من ديار الإسلام جزيرة قبرص التى تشكل قواعد عسكرية متقدمة لحماية العالم

الإسلامى ؟ ، تاريخ الدولة العلية ، ٦٧٠ ، ٦٧١.

(٣٥) لأن احتلال قبرص الإسلامية كان جزءاً من مخطط لتأمين الطريق إلى مستعمرات إنجلترا فى الهند. ولهذا احتلت من قبل رأس الرجاء الصالح ، (جنوب إفريقية) وكذلك بوغاز جبل طارق وجزيرة مالطة ، وهكذا يؤمِّن العدو الأوربى الطريق إلى ديار الإسلام المغتصبة؛ الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها: أ.د. عبد العزيز محمد الشناوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ١٩٨٠ ، ج٢ ، ص ٨٣٠ .

(٣٦) ولا تزال هذه المدن تحت السيطرة الروسية رغم تفكك الاتحاد السوفياتى حتى الآن ، تاريخ الدولة العلية ص : ٦٧٤، وهى جزء من القوقاز الإسلامية .

(٣٧) تاريخ الدولة العلية ، ص ٦٧٤ ، الدولة العثمانية دولة إسلامية ، ج٢ ، ٨٣٠ ؛ وقد ذكر الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوى تصريحات نيقولا الأول الصليبى الأرثوذكسى قيصر روسيا ١٢٤١-١٢٧٢هـ (١٨٢٥-١٨٥٥م) : «إن سلطان الدولة العثمانية رجل مريض للغاية ، قد يلفظ أنفاسه الأخيرة فجأة ، وإن من الخير للسلام العالمى أن تفكر الدول الأوربية ملياً فى توزيع ممتلكاته قبل وفاته» وقد اقترح قيصر روسيا مشروعاً لتوزيع تركه الدولة الإسلامية بين أبناء أوربا .

(٣٨) تاريخ الدولة العلية ، ص ٦٧٨ ، ٦٩٩ .

(٣٩) المرجع السابق ص ٦٩٩ ؛ العهد العثمانى ، ص ١٩٧ .

(٤٠) لقد استغلت إنجلترا ما حدث فى مصر من حركات نتيجة الديون التى تراكمت على الحكومة بعد فتح قناة السويس وتبذير الخديوى إسماعيل وخلعه وتولية ابنه توفيق ، وتدخلت فى شئون مصر ، وانتصرت على قوات عرابى واحتلت البلاد (مصر) عام ١٢٩٩هـ (١٨٨٢م) ، عصر إسماعيل ، ج١ ، ج٢ ، عبد الرحمن الرافعى ، دار المعارف ؛ الثورة العرابية ، نفس المؤلف .

(٤١) وهكذا اغتصبت أوربا (فرنسا) الجزائر ، نتيجة ضعف الخلافة العثمانية التى ظلت تحمى العالم العربى ثلاثة قرون ونصف تقريباً ؛ ولم تكتف بهذا بل زحفت إلى تونس وبعدها المغرب وبهذا سقطت بلاد المسلمين فى قبضة فرنسا الصليبية التى أصدرت قرارات باعتبار تونس والجزائر وفرنسا امتداد لفرنسا (أى أرضا فرنسيه) . وهكذا وقعت بلاد المسلمين فى قبضة السلطة النصرانية ، ونحيت شريعة الإسلام ومنهاجه ، تاريخ الدولة العثمانية : د. على حسون ، المكتب الإسلامى ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ؛ المجتمع الإسلامى المعاصر، ج١ (المدخل)، ج٢ (أفريقيا)، أ. على لبن و د. جمال عبد الهادى، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة، ١٩٩٤م.

الفصل الثانى

ضباط الانقلاب العسكرى بتخطيط من الانجليز

يعزلون خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثانى

- جمعيات سرية وعلنية تعمل لتقويض حكم السلطان عبد الحميد الثانى .

- جمعية الاتحاد والترقى العثمانية تقوم بانقلاب (١) عسكرى فى شهر يوليو ١٩٠٨ (١٣٢٦هـ) .

- إجبار السلطان عبد الحميد على إصدار قرار بإعادة العمل بالمشروطية (٢) (الدستور). فى ٢٤ يوليو عام ١٩٠٨ (١٣٢٦هـ)

- مظاهرات شعبية يتزعمها أئمة المساجد وفريق من علماء الدين الإسلامى وطلبة المعاهد الدينية وضباط الجيش تنادى بعودة الشريعة الإسلامية وإلغاء الدستور وتهتف «فلتعش الشريعة المحمدية».

- المظاهرات تعم استانبول وأنحاء الأناضول .

- الانقلابيون ينتهزون الفرصة ويدبّرون مذابح بين النصارى الأرمن ويتخذون ذلك ذريعة لاسقاط الخليفة واغتصاب السلطة .

- قوات عسكرية تزحف من سالونيك على إستانبول وتحتلها فى ٢٤ ابريل ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ) بعد قتال مرير بحجة مواجهة أحداث الشغب ، لعزل السلطان واغتصاب السلطة .

- الانقلابيون يخلعون السلطان عبد الحميد الثانى وينفونه إلى مدينة سالونيك.

- الانقلابيون يعينون الأمير محمد رشاد (محمد الخامس) خليفة ذرا للرماد فى العيون وكأنهم ليسوا ضد دولة الخلافة وإنما هم ضد تصرفات الخليفة !!!

- الانقلابيون يحولون جمعيتهم من منظمة سرية إلى حزب سياسى علنى فى شهر ابريل عام (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ) وينفردون بالحكم .

- البدء فى تصفية دولة الخلافة الإسلامية من الداخل وتنحية (٣)

الشريعة .

ما كان لأعداء الإسلام أن ينالوا من الإسلام ودياره وأهله دون الاعتماد على بعض ممن ينتسبون إلى هذا الدين ، يحيكون المؤامرات بالداخل ويفتحون الطريق أمام العدو إلى ديار الإسلام ، ومن هؤلاء: مدحت باشا الذى كانوا يسمونه أبا الأحرار لأنه كان يسعى إلى تحرير الدولة العثمانية من ضوابط الإسلام الشرعية ، وإسقاط نظام الخلافة وأن يكون للأمة دستوراً مستقى من القوانين الأوروبية ، وأن يكون للأمة مجلساً تشريعياً على نمط المجالس الأوروبية ، يراقب ويحاسب السلطة التنفيذية.

والفكرة فى ظاهرها تستهوى قصار النظر ، لأنها تعطى الإنسان، وتعطى الأمة حق التشريع ، وتنسى ان التشريع حق لله، الذى شرع للناس ما هو صالح لكل زمان ومكان، وأغناهم به عن القوانين الأوروبية (الفرنسية وغيرها) ، والأمة المسلمة ظلت تقود العالم بهذا التشريع الإسلامى طيلة عهد النبى محمد ﷺ والخلفاء الراشدين وبنى أمية وبنى العباس وآل عثمان ، وإن جدّت قضايا فباب الاجتهاد مفتوح فى حدود النصوص الثابتة من القرآن والسنة .

كما أن الشورى أصل من أصول الإسلام ؛ وأهل العقد والحل هم أهل الشورى ، بل إن جماهير الأمة كانوا يستشارون فى القضايا المصيرية للأمة طيلة عهود الدولة الإسلامية .

اذن ما كانت الأمة فى حاجة الى قوانين الشرق أو الغرب أو أنظمته السياسية ولكن الأمة قد رزئت فى عهود ضعفها بشباب غرّ (أمثال مدحت باشا) قدّر له أن يختلط بأبناء أوروبا «أعداء الإسلام» فكان صيداً سهلا وظّفه أبناء أوروبا لضرب الشريعة والمنهاج الإسلامى بإحلال الأنظمة والقوانين الأوروبية الوضعية محلّها ، كخطوة أولى لسلخ العالم الإسلامى من إسلامه والتنكر له ، وضرب الخلافة على اعتبار أن الإسلام يشكل عقبة ضخمة فى وجه الأطماع الأوروبية فى ثروات وديار العالم الإسلامى .

ولما كان من الصعوبة تحقيق ذلك بالطريقة العادية لعلم الأعداء أن الأمة المسلمة لا يمكن ان تفرط فى إسلامها وشريعتها ، لجأ الأعداء الى تشكيل التنظيمات السرية داخل وخارج ديار الإسلام؛ مثل: تركيا الفتاة (نواة الاتحاد والترقى) وغيرها ، وأيضاً استقطاب طبقة العسكريين لتحقيق تطلعاتهم بالقوة ، كما لجأوا إلى تدبير المؤامرات بالداخل وإحياء النعرات العصبية ، وذلك فى الوقت الذى تكالب فيه الأعداء (أبناء أوروبا) على الأمة المسلمة على امتداد جبهات القتال .

ولتحقيق الهدف ، خلع الأعداء السلطان مراد سنة (١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م)، وجاءوا بالسلطان عبد الحميد الثانى (وكان يبلغ من العمر أربعة وثلاثون عاماً) على وعد منه لمدحت باشا بمنح الأمة ما يسمى بالقانون الأساسى، وامتاع الأمة العثمانية بالحرية ، وتعيين بعض أعوان مدحت باشا (نامق كمال بك، وضياء باشا) فى بعض مناصب الدولة لتحقيق أهدافهم . ولكن السلطان عبد الحميد كان فطناً لما يراد بالشريعة وبالأمة رغم صغر سنّه ، فرفض تنفيذ ما طلب منه ، وبدأ يحيط نفسه بالعناصر المخلصة لمعاونته ضد العناصرَ التى تتآمر على الشريعة الإسلامية ، وتحت ضغط الحروب الصليبية الروسية الصربية وغيرها . وتحت ضغط الدول الأوروبية عين السلطان (٤) عبد الحميد، مدحت باشا صدراً أعظم (أى رئيساً للوزارة) فأعلن منح الأمة العثمانية الدستور والحرية فى ذى الحجة (١٢٩٥هـ / ١٨٧٧).

وهل كانت الأمة قبل ذلك بدون دستور ؟ وهل كانت الأمة قبل ذلك غير حرة؟ إنها الشعارات الكاذبة! إنها الطعم الذى يحوى السمّ الزعاف واجتمع مجلس المبعوثين(٥) (نواب الأمة على اختلاف مللهم) ويبدو أن السلطان عبد الحميد قد فعل ذلك على سبيل المناورة لأنه أدرك حجم المؤامرة على الخلافة والإسلام، إذ سرعان ما أوقف اجتماعات مجلس المبعوثين ، وبدأ ما سماه مدحت باشا واعوانه عهد الإستبداد ، وبعدها تتابعت الأحداث على النحو التالى :

أولا : أقال السلطان عبد الحميد ، مدحت باشا عام ١٢٩٤هـ / ١٨٧٦م باعتباره مرتكباً للخيانة العظمى للأسباب التالية :

ا) أنه قد ثبت اتصاله وولاؤه للإنجليز فى وقت كان «دزرائيلى» اليهودى رئيساً للوزارة الإنجليزية .

ب) حرْصه على فرض الوصاية الأوروبية الاستعمارية على دولة الخلافة العثمانية ، والتضحية باستقلال بلاده .

ج) مكّن ٤٨ نائباً نصرانياً من مجموع ١١٧ نائباً من الدخول إلى مجلس المبعوثان(٦) .

ثانياً : نكّل السلطان «عبد الحميد » بكل من يدعو إلى ترك الإسلام أو الاعتماد على الغرب أعداء الإسلام .

ثالثاً : ركز جهده على تقوية الجيش .

رابعاً : دعا السلطان « عبد الحميد » إلى ضرورة دعم الخلافة الإسلامية ، وتقوية

الجامعة الإسلامية ، وهنا أدرك أعداء الإسلام (أبناء أوروبا منهم) وأعوانهم من المنافقين ، والأقليات غير الإسلامية - خاصة اليهود - أنه لا سبيل لتحقيق أهدافهم إلا بعد ضرب الخلافة ؛ لأنها الراعي الذى يحمى الأمة من أعدائها بفضل الله سبحانه وتعالى .

ولضرب الخلافة شكل الاتحاديون (جماعة الاتحاد والترقى) تنظيماً سرياً فى «سلانيك » «بقيادة «طلعت باشا » وسبعة من أصدقائه منهم : «أحمد رضا بك» ، وانضم لهذا التنظيم السرّى فيما بعد بعض ضباط الجيش أمثال : المقدم جمال باشا، والرائد فتحى بك ، وقائد الجناح نيازى الذى كان قادماً من الشام .

وكانت المؤامرة :

-اغتيال الفريق «شمسى باشا » قائد الجيش العثمانى .

إشاعة الإضطرابات داخل البلاد .

قائد الجناح «نيازى» ، أحد أفراد تنظيم الإتحاد والترقى، يقوم بانقلاب عسكرى ، ويضع يده على مركز البريد فى «رسنة »

- إنذار إلى السلطان «عبد الحميد الثانى » يطالبه بإعادة العمل بالدستور وإطلاق الحريات بدون قيد أو شرط وتتابعت أحداث التمرد فى مناستر، وسلانيك، وحول استانبول، وجرى اغتيال رجالات الإسلام (منهم عدد كبير من الضباط) أعوان السلطان عبد الحميد .

أجبر الانقلابيون السلطان عبد الحميد على إقالة الوزارة (١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨م) وتعيين شيخاً للاسلام (جمال الدين) إعلان الدستور والحريات تحت الشعار الماسونى اليهودى (الحرية - العدالة - المساواة - الأخوة). وأطلق الإنقلابيون سراح المساجين الجنائيين .

ولكن الهدف الأساسى لم يتحقق بعد وهو إسقاط الخلافة وتمزيق الدولة العثمانية.

اجتماع بين بعض قادة الإنقلاب : طلعت الماسونى وجاويد اليهودى وأنور ورحمى ورؤساء المصالح الحكومية ، وقرروا إشاعة الفوضى فى البلاد تمهيداً لانقلاب عسكرى آخر يطيح بالسلطان عبد الحميد الثانى .

وكان وراء الخونة جميعاً :

وكالة المخابرات المركزية(٧) البريطانية: التى كانت تمسك بالخيوط جميعاً والصحافة التى أصبحت رهن إشارتهم، والمنظمات اليهودية السرية التى كانت تطمع فى إقامة وطن لهم على أرض فلسطين، ورجال الاتحاد والترقى الذين رفعوا الشعارات الماسونية ليخفوا أطماعهم فى قصر يلدز وخزينته بالذات ، أى أنهم مجموعة من اللصوص ، وهؤلاء هم عملاء اليهودية.

* الأعداء والخونة يخططون لأحداث يتخذونها سنداً لعزل السلطان عبد الحميد.

* بعض المشايخ يلقبون دروسا فى الوعظ داخل ثكنات القوات الخاصة (طاشى قشلة وبيك أوغلى) .

* اجتماع فرقة القوات الخاصة .

* دخول شخص ينتحل صفة جنرال ومعه ضباط آخرون (منهم مدحت شكرى من قادة الاتحاديين) على مقر الفرقة ، وخطب خطبة وذيّلها بما زعمه: أن السلطان عبد الحميد بافتاء من شيخ الإسلام يطلب من الجنود لبس القبعة بدلا من الطربوش، ونزع طربوشه ولبس قبعته ثم انصرف . ولا يخفى ماذا كان يعنى لبس قبعة بالنسبة لشخص مسلم فى ذلك (٨) الزمن فهو تشبه بالكافرين الذين أمر المسلمون بمخالفتهم .

وانتقل المنتحلون إلى ثكنة المدفعية ومثّلوا نفس الدور الذى مثّلوه فى الفرقة الخاصة، وبعد ذلك بثّ ضباط مزيفون بين الجنود؛ بغية إثارة المشاعر وبدأ الهياج فى ثكنات الجيش وقام الخونة المزيفون بإلقاء الخطب الحماسية لإثارة الناس وادعوا غيرتهم على الدين وعلى شريعة الله وتظاهروا باستنكار تلك الفعلة الشنيعة (لبس القبعة بدلا من الطربوش) وخرجت الفتنة إلى الشارع وخرج المساجين يعيثون فى الأرض فساداً ، ووقعت اغتيالات ، وطالب جموع المتظاهرين بما يلى:

(١) إحياء الشريعة الإسلامية (انظر أعداء الشريعة يطالبون بإعادتها) .

(٢) عزل الصدر الأعظم وناظرى الحربية والبحرية .

(٣) طرد أحمد رضا بك / وحسين جاهد بك وجاويد بك ورحمى بك وطلعت وإسماعيل حقى من المجلس (أعوان الاتحاد والترقى يطالبون بعزل قادة الاتحاد (٩) والترقى) .

وتتابعت حلقات المؤامرة واجتمع مجلس «المبعوثان» اجتماعاً فوق العادة (خمسة أفراد فقط) وقرروا إجابة مطالب الثوار ، وانتخبوا وفداً منهم (المتآمرين) ليبلّغ السلطان عبد الحميد قرارهم ، وتعيين توفيق باشا صدراً أعظم، وأدهم باشا ناظراً للحربية واجتمع

مجلس المبعوثان مرة أخرى وقرر قبول استقالة أحمد رضا بك ، وابتلع الناس الطعم القاتل وسارت الأمور كما رسمها المتآمرون . وبعدها انقلبت الجرائد إلى الطعن فى السلطان عبد الحميد واتهمته بالاستبداد . وفى أعقابها تحركت الفصائل العسكرية لتنظيم الاتحاد والترقى باتجاه العاصمة لتنفيد الجزء الثانى من المؤامرة .

وحاول السلطان عبد الحميد الثانى تهدئة الأمة بعد أن تبين حجم المؤمرة فأعلن أنه لم يصدر أية أوامر بشأن لبس القبعة بدلا من الطربوش ، وكشف أمر المزيفين الذين أشاعوا ذلك عنه ، وطلب إبلاغ ذلك إلى أبنائه الجنود والضباط بالثكنات : «لم أصدر مثل هذا الأمر تجاه أمتى ولن أصدره أبداً . لقد حرص الأعداء بهذه الأعمال تحقيق أهدافهم الخبيثة فأطلب منهم ألا يصدقوا ذلك وليبقوا فى ثكناتهم ولا يلجأوا إلى السلاح»(١٠) .

كما أن السلطان عبد الحميد -رحمه الله- أمر بعدم مقاومة الجيش الثالث (الذى تسمى بجيش الحركة) الذى وصل من الرومللى والذى كان قد وصل إلى إستفانوس من ضواحى إسلامبول على اعتبار أنهم أتراك مسلمون .

وهدأت الأحوال ولكن رؤوس الفتنة لم تهدأ . فقد تحرك -كما قلنا- الجيش العثمانى المرابط فى سلانيك وبه بعض الضباط الذين ينتمون إلى تنظيم الاتحاد والترقى السرى الماسونى، بقياده محمود شوكت باشا حتى وصلوا العاصمة، وتتابعت الأحداث:

- مهاجمة الثكنات العسكرية المجاورة لقصر السلطان .

- المتمردون بقيادة أنور باشا يهاجمون قصر السلطان عبد الحميد ويذبحون الجنود العثمانيين المسلمين داخل القصر ذبح الخراف (حوالى ١٢٠٠ شخص) ويسرقون خزانة(١١) القصر (هؤلاء هم دعاة الحرية! الضباط العظام!! إنهم قتلة!! ولصوص) .

ثم أعلن المتمردون الاحكام العرفية (العسكرية) وحظر التجول من بعد المغرب.

وذكر الدكتور على حسون بارك الله فيه : «أنه قد تم ضبط النسخ الأصلية لكافة مخططات الفتنة وأن وكالة الاستخبارات الإنجليزية كانت (١٢) وراءها .

- مخلب الحركة (المتآمرون من تنظيم الاتحاد والترقى) يقررون خلع السلطان عبد الحميد الثانى . وكان لابد من سند شرعى يسوغ لهم عزل خليفة المسلمين.

واجتمع مجلس المبعوثان فى جلسة مشتركة وقرروا بناءً على فتوى ذات وجهين استصدرها الاتحاديون (المفرقون حقيقة لوحدة الأمة) تحت الضغط والإكراه من شيخ الإسلام بعزل السلطان عبد الحميد وتولية محمد رشاد (الخامس) مكانه (وذلك ليظهروا

أمام الناس أنهم ليسوا ضد الخلافة وإنما هم ضد تصرفات الخليفة ، وذلك لضمان عدم ثورة الشعب إذا تبين الحقيقة) .

المجلس يشكل وفدا لابلاغ السلطان عبد الحميد القرار.

الوفد المكون من : الفريق عارف حكمت ، وارام أفندى الأرمنى، وعمانويل قراصو اليهودى نائب سلانيك، وأسعد طوبطانى الأرناؤوطى الخائن ، يتوجه إلى السلطان العثمانى لإبلاغه قرار العزل .

السلطان عبد الحميد الثانى يرد بكل ثبات «ذلك تقدير العزيز العليم» ثم تساءل من الذى جاء بهذا اليهودى «قراصو» إلى مقام الخلافة. وقبض على السلطان عبد الحميد وأرسل مع نسائه وأولاده إلى مقر يهود الدونمة سلانيك فى عام ١٣٢٨هـ ، ٢٧ ابريل ١٩٠٩م وبقى سجيناً فى حوزة من يسمون الاتحاديين حتى مات(١٣).

مصادر ومراجع الفصل الثانى

(١) أطلق عليه تعبير مهذب هو الانقلاب الدستورى واستأثرت الجمعية بالنفوذ وغدا السلطان عبد الحميد فى الظل .

(٢) وهو الدستور الذى كان قد أصدره فى الثالث والعشرين من شهر ديسمبر كانون أول سنة ١٨٧٦ م .

(٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية ص : ١٠٠٦ - ١٠٠٧ .

(٤) اجتمع سفراء أوروبا ، روسيا ، وإنجلترا وفرنسا فى العاصمة إستانبول وضغطوا على السلطان «عبد الحميد» لتشكيل لجنة لوضع الدستور . وكان الدستور البلجيكى الوضعى المعدل هو الذى يريد أبناء أوروبا أن يحل محل الشريعة الإسلامية - وقد كان - وأطلق عليه مسمى القانون الأساسى عام (١٢٩٤ هـ)، ألم يقل رب العالمين : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ ، تاريخ الدولة العلية .

(٥) النواب والشيوخ.

(٦) تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، المكتب الإسلامى دمشق، صفحة ١٩٨، ١٩٩.

(٧) تاريخ الدولة العثمانية : ص : ١٩٨ - ٢٠٢ .

(٨) تاريخ الدولة العثمانية : ص : ٢٠٤-٢٠٥ .

(٩) تاريخ الدولة العثمانية، محمد فريد تحقيق د. إحسان حقّى، دار النفائس بيروت : ص : ٧٠٧ .

(١٠) تاريخ الدولة العثمانية، ص: ٢٠٧.

(١١) تاريخ الدولة العثمانية ، ص : ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(١٢) نفس المرجع ، ص : ٢٠٩ .

(١٣) المرجع السابق، صفحة ٢١٠.

الفصل الثالث

تقويم فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني

الحمد لله رب العالمين القائل: **﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾** (المائدة: ٨)، ويقول سبحانه: **﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه﴾** (البقرة: ٢٨٣).

وأشهد أن قدوتنا وأسوتنا رسول الله محمد ﷺ الذى حذرنا من شهادة الزور، وأمرنا بإمساك اللسان «أمسك عليك هذا»، وحينما سئل ﷺ: «أو إنّا لمؤاخذون بما نقول يا رسول الله» كانت الإجابة: «وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم» .. اللهم صلى وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد، هذه شهادة بعض أساتذة التاريخ نصاً من مؤلفاتهم -فيما يتصل بتاريخ السلطان عبد الحميد الثانى-:

أولا: شهادة الدكتور على حسون(١):

* «لقد خدم السلطان عبد الحميد الأمة الإسلامية مدة ثلاثة وثلاثين عاماً فى عهد ضعفها وتكالب الأعداء عليها فى الداخل والخارج . وقام بخدمات جليلة للبلاد الإسلامية فاقت ما قام به أقرانه من السلاطين.
* كما حفظ الله الدولة العثمانية بعد العدوان الروسى من أن تفقد المزيد من أراضيها فى أوربا طيلة حكمه .
* وأخمد تمرد نصارى كريت وهزم اليونان .
* فى مجال التعليم والثقافة : قام بإنشاء دار العلوم السياسية والجامعة بكافة فروعها، ودور المعلمين والمعلمات ومدارس اللغات ومدرسة الفنون النسوية والمدارس الإعدادية والثانوية فى كافة الولايات، وفى إستانبول فقط افتتح ست مدارس ثانوية وجعل تعليم اللغات الأجنبية الزامياً فى المرحلة الإعدادية وافتتح المكتبات: مكتبة بايزيد، ومكتبة يلدز ومدرسة الطب وثانوية حيدر باشا .
* وفى مجال الخدمات الصحية أسس مستشفى الأطفال ودور العجزة من ماله الخاص .
* وأنشأ مركز البريد ومدّ أنابيب مياه الشرب للعاصمة وأنشأ دار النفوس العامة والغرف الزراعية والتجارية والصناعية ومعمل الخزف ومد خطوط السكك الحديدية من دمشق للمدينة المنورة بطول ١٣٢٧ كم وقد استغرق انجازها سبع سنين من

(١٣٢٠م-١٣٢٧هـ) وبتكلفة ٣ ملايين جنيه .

* وفى مجال الإصلاحات العسكرية استقدم الخبراء الألمان لتدريب الجيش العثمانى وفق الأساليب الحربية الحديثة وأرسل البعثات العسكرية للخارج وجهز الجيش بالأسلحة الحديثة .

لقد كان من ميزاته الجرأة وقوة الأعصاب والذكاء وقوة التأثير والعصامية والتدين. وكان ذا حيلة ودهاء واسع، استعمل قدراته تلك فى تدبير المكائد للقوى الصليبيه العالمية بضرب إحداها بالآخر، وكانت سياسته مع الرعايا العرب فى غاية المودة والمحبة، وكان يرسل الهدايا سنويا لشيوخ العشائر ، كما أنه افتتح مدرسة العشائر فى إستانبول، وألف كتائب عربية واتخذها حرساً ؛ وهى التى أخلصت له فى أشد المحن، كما أنه كان يدفع الرواتب السنوية للأشراف من آل البيت بانتظام كما أنه استقدم الشريف حسين بن على وقربه منه (وأهله) فى استانبول ، وكان يحتفل بإرسال سترة الكعبة فى كل سنة ، وكان يعامل قادة العرب باحترام عظيم وكان يعين بعضهم فى المراكز العليا مثل: عزت باشا العابد الذى كان السكرتير الثانى له لمدة ثلاثة عشرة سنة وقد نظر إلى العرب من خلال عقيدته الدينية الإسلامية فقط .

أما فيما يتصل بإصلاحات السلطان عبد الحميد فى ولاية سورية فى مجال المواصلات؛ فقد أنشئ طريق حمص طرابلس ؛ وطريق دمشق حوران عام ١٣٠٦هـ، وطريق حماة اللاذقية عام ١٣٠٩ هـ وبوشر فى عهده منح امتيازات لخطوط سكك حديدية على النحو التالى :

طريق يافا - القدس عام ١٣٠٦ هـ . والشام - مزيريب عام ١٣٠٨ هـ . وبيروت - دمشق عام ١٣٠٩هـ . إضافة إلى الخط الحديدى الحجازى مزيريب - المدينة المنورة-.

تم الاتفاق بين وزير الأشغال فى الدولة العثمانية وبين يوسف مطران على إنشاء خطوط حديدية كهربائية فى مدينة دمشق . كما نال امتياز آخر فى عام ١٣١١ هـ لمد خط دمشق حلب .

* أما خطوط البرق فقد توسعت بشكل كبير فى عهده وبلغت مراكز البريد والهاتف فى ولاية سورية عام ١٣١٨هـ ٢٥ مركزاً للبريد و ١٨ مركزاً للهاتف .

وجرى فى عهد السلطان عبد الحميد بناء دار الحكومة فى دمشق، وتوصيل مياه عين الفيجة إليها، وإنشاء الثكنة الحميدية (جامعة دمشق اليوم) .

وأنشئ حى المهاجرين بسفح جبل قاسيون، وأسست كثير من المدارس مثل مدرسة الصنائع والظاهرية، والأسواق التجارية، ودوائر العدلية والشرطة والدرك وبعض الجمعيات الحرة كجمعية المقاصد فى بيروت ونظمت الضرائب الزراعية . وحلّت مشكلة الدروز .

لقد عامل السلطان عبد الحميد الأقليات غير المسلمة بالدولة العثمانية معاملة لائقة ورقى بعضهم إلى مناصب عليا .

وكان عبد الحميد مسلماً متديناً شديد التمسك بالإسلام غيوراً عليه أحاط نفسه بالعلماء وقدم لهم المبالغ. كما أنه اهتم بالدعوة الإسلامية فى آسيا وإفريقيا. وفى عهده كانت العربية لا تزال لغة الدين والعلم فى الدولة العثمانية . وقد قوى الجامعة الإسلامية وبنى الخط الحجازى من أجل خدمة المسلمين .

وبعد خلع السلطان عبد الحميد أرسل رسالة إلى الشيخ محمود أبو الشامات ومما جاء فيها :

«ثم أعرض لرشادتكم على سبيل التاريخ وليعلم عند ذوى العقول السليمة أمثال سماحتكم أننى ما تركت الخلافة الإسلامية إلا للضغط علىّ من قبل الجمعية العليا لجماعة الاتحاد (چون تورك) وقد عرضوا على مبلغ قيمته مائة وخمسون مليون ليرة إنكليزية ذهبية لأبيعهم أرضاً فى فلسطين يسكنها اليهود فلم أقبل .

وإنى خدمت الملة الإسلامية مدة تفوق الثلاثين سنة لم أسود خلالها صحيفة للمسلمين ولا صحيفة آبائى وأجدادى من الخلفاء العثمانيين لذلك لا أقبل مطلقاً فاتفقوا حالا على خلعى ونفيى إلى سلانيك فقبلت ذلك وحمدت الله على أنى ما خططت قلماً ولا حرفاً يسوء الدولة الإسلامية العثمانية وحصل ما حصل والحمد لله على ذلك وفهمكم كفاية» .

وبعد فهذا هو السلطان عبد الحميد الثانى الذى كان له تلك الميزات الحسنة التى لا يرضى عنها أعداء الإسلام ولذلك فقد افتروا عليه الافتراءات الكثيرة والتى لا تزال تلقن إلى الأطفال ويتعلمها الكبار .

وإذا كنا نريد أن ننصف الرجل فنقول: إن عبد الحميد كان شخصية فذة وقعت فى بعض الأخطاء جسمها الأعداء (أبناء أوربا وأعوانهم) وأغفلوا حسناته .

ثانياً : شهادة الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى(٢) .

عرض الدكتور الشناوى للخدمات التى أدتها الدولة العثمانية للإسلام والعروبة وذكر أن الدولة العثمانية منعت اليهود من استيطان سيناء وأن السلطان عبد الحميد الثانى سار

على نهج آبائه وأجداده ، فقد رفض فتح باب الهجرة أمام اليهود إلى فلسطين .

بل أنه وقف في وجه مشروع تيودور هرتزل الذى كان يرى أن يبدأ اليهود باستيطان العريش شمال سيناء، ومن أجل هذا جرت مفاوضات بين هرتزل سنة ١٨٩٨م/١٣١٦هـ وبين بعض أعضاء الوزارة البريطانية جوزيف تشمبرلين ولورد لانزدون وزير الخارجية من أجل توطين اليهود في سيناء . ووافق الوزيران على الاقتراح ومن أجل ذلك تشكلت في سنة ١٩٠٢م/١٣٢٠هـ لجنة قوامها ثمانية أعضاء تقول دائرة المعارف اليهودية إنهم يمثلون الحكومة المصرية ولكن ليس من بين أسماء أعضائها مصرى واحد ، بل كانوا جميعاً أجانب بحيث يصعب تحديد الأسماء اليهودية والأسماء الإنجليزية من غير اليهود؛ وقامت اللجنة بمهمتها في سيناء منذ يناير حتى مارس ١٩٠٣م/١٣٢١هـ وانتهت إلى رأى أن سيناء تصلح لاستيطان اليهود، وأوصت بأن تكون العريش هي المرحلة الأولى لتنفيذ المشروع، على أسس علمية وتخطيط مسبق يوضع بعناية، باستقدام خبراء زراعة ومهندسين ومن إليهم من الفنيين؛ لتمهيد الطرق ومد الخطوط الحديدية، وإنشاء الموانى، وتقسيم الأراضى واستصلاحها، وزرع السكان اليهود بها واشترطت اللجنة شرطين:

١- أن تكون الدولة المقترحة تحت حكم مصر وهى تحت الإحتلال الإنجليزى.

٢- أن يسمح لها بجلب ماء النيل إلى سيناء (٣) .

وشاء الله أن يعترض السلطان عبد الحميد على هذا المشروع وكذلك كرومر مندوب الاحتلال الإنجليزى في مصر، لأنه رأى أن المشروع يتطلب تحويل مقادير هائلة من مياه النيل إلى سيناء، مما يؤثر على كميات المياه اللازمة للزراعة المصرية. وذكر الأستاذ الدكتور الشناوى أيضاً أن: الدولة العثمانية كانت تحد من هجرة اليهود إلى فلسطين ، وذكر على سبيل المثال لا الحصر: حينما تقدمت بعض الشخصيات اليهودية بطلب إلى القنصل العثمانى في ثغر أوديسا لمنح اليهود تصريحات لدخول فلسطين والاستقرار فيها، وتلقى القنصل العثمانى ردًا من حكومته في اليوم الثامن والعشرين من شهر ابريل عام ١٨٨٢م/١٣٠٠هـ علق نسخة منه خارج دار القنصلية جاء فيه أن الحكومة العثمانية تبلغ جميع اليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين أنه من غير المسموح لهم الاستقرار فيها، وتدخل السفير الأمريكى ، فتلقى نفس الرد .

وزيادة في الحرص أبرق الباب العالى (على عهد السلطان عبد الحميد) إلى حاكم القدس في (يونيو ١٨٨٢م/١٣٠٠هـ) بألا يسمح لأى يهودى قادم من روسيا أو رومانيا أو بلغاريا أن يهبط أرض فلسطين .

كما اتخذ إجراءات المنع ذاتها في حيفا وبيروت واللاذقية وغيرها من موانئ الساحل الشامي وبعد حوالي ستة أشهر أرسل الباب العالي مذكرة رسمية (٢١ يناير ١٨٨٣م/١٣٠١هـ) إلى رؤساء البعثات الدبلوماسية في إستانبول بنص قرار مجلس الوزراء العثماني بمنع استيطان اليهود الروس في فلسطين .

وتدخلت الدول الأوروبية، وتحت ضغطهم أصدر الباب العالي (سنة ١٨٨٤م/١٣٠٢هـ) تعليمات جديدة بالإذن لليهود في دخول فلسطين من أجل زيارة الأماكن المقدسة بشرط ألا تطول إقامتهم عن ثلاثين يوماً .

وتحت الضغط اليهودي المتواصل رأى الباب العالي إطالة المدة المسموح بها للحجاج اليهود إلى ثلاثة شهور بدلا من شهر واحد . ومعنى هذا القرار الجديد أن الحكومة العثمانية كانت لا تزال عند رأيها وهو منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

كما أن السلطان عبد الحميد الثاني قد أدخل تعديلاً على الوضع الإداري لفلسطين وجعلها سنة ١٨٨٧م/١٣٠٥هـ متصرفية (قسماً اداريا مستقلا بذاته) خاصة، تتبع الباب العالي رأساً لإحكام مراقبة الدوائر العليا في حكومة استانبول على الحد من حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين . وفي عام ١٨٩٢م/١٣١٠هـ أصدر الباب العالي قانونا يحرم بيع الأراضي الحكومية إلى اليهود بكافة جنسياتهم حتى لو كانوا رعايا عثمانيين . كما رفض السلطان عبد الحميد الثاني اقتراحاً لهرتزل بإنشاء جامعة عبرية في بيت المقدس تفتح أبوابها للطلبة العثمانيين بدلا من إيفادهم في بعثات علمية الى الجامعات الأوروبية(٤) . لأنه رأى فيه تمكينا للحركة اليهودية في فلسطين .

ولم يتمكن اليهود من تنفيذ مشروعهم هذا إلا بعد إزاحة السلطان عبد الحميد وقيام حكم العسكر بل إن التدفق اليهودي لم يزداد إلا في ظل الاحتلال الإنجليزي لفلسطين في سبتمبر ١٩١٨م/١٣٣٧هـ.

وبهذا يتضح أن الخطورة جاءت على فلسطين بعد زوال الدولة العثمانية، وبالذات بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ ، لأن بعض اليهود نجحوا في التسلل إلى بعض المراكز في مجالس جمعية الاتحاد والترقي التي سيطرت على مقاليد الحكم في الدولة العثمانية بعد غياب السلطان عبد الحميد. وقد لمس السفير البريطاني في إستانبول تفوق المركز اليهودي في دوائر الحكومة العثمانية، وذكر هذه الحقيقة في صراحة تامة في مذكرة بعث بها في شهر أغسطس عام ١٩١٠م/١٣٢٨هـ إلى وزارة الخارجية البريطانية . وكان مما جاء فيها ان لجنة الاتحاد والترقي تبدو في

تشكيلها الداخلى تحالفا يهودياً تركياً مزدوجاً، فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة، ويمدها اليهود بالعقل(٥) المدبر ، وبالمال ، وبالنفوذ الصحفى القوى فى أوروبا ان اليهود الآن فى موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلى للدولة العثمانية (٦).

وقد نجم عن وجود اليهود فى بعض مراكز القوى فى العهد الجديد أن تراخت رقابة الدولة على الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين . ومع ذلك لم يطل أمر حكم رجال الاتحاد والترقى إلا سنين عدداً ، إذا ما لبثت أن قامت الحرب العالمية الأولى وكان من نتائجها تصفية الدولة على أيدى الاتحاديين . وانفسح المجال أمام بريطانيا والصهيونية لتهويد فلسطين .

لقد عقد اليهود مؤتمرهم فى عام ١٨٩٧م/١٣١٥هـ فى مدينة بال بسويسرا بناء على طلب تيودور هرتزل النمساوى اليهودى . وكانت القرارات ومنها إنشاء دولة يهودية فى فلسطين تجمع شتات اليهود من أنحاء العالم .

وكان على السلطان عبد الحميد الثانى أن يواجه فى خلال الثلاث عشرة سنة التى تبقت له فى الحكم منذ عقد مؤتمر بال الأول حتى تم عزله (١٨٩٧-١٩٠٩م/١٣١٥-١٣٢٧هـ) المؤامرات اليهودية لتهويد فلسطين، وذلك يعنى أن السلطان عبد الحميد الثانى كان عليه أن يواجه الحركة الصهيونية العالمية فى نفس الوقت الذى يواجه فيه الزحف الاستعمارى الأوروبى على بلاد المسلمين.

وقد عرض هرتزل على السلطان عبد الحميد الثانى أن يصدر فرماناً بالسماح لليهود الأجانب بالهجرة إلى فلسطين، والتوطن فيها، ومنحهم قسطاً وافراً من الحكم الذاتى وأن يدفع اليهود عند صدور الفرمان مبلغاً كبيراً من المال، قدر بثلاثة ملايين من الجنيهات، ثم يقومون بعد ذلك بدفع جزية سنوية للدولة (٧) .

وجاء الرد على لسان السلطان عبد الحميد: «انصحوا هرتزل بألا يتخذ خطوات جدية فى هذا الموضوع إنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من فلسطين فهى ليست ملك يمينى بل ملك شعبى. لقد ناضل شعبى فى سبيل هذه الأرض ، ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم . وإذا مزقت إمبراطوريتى يوماً فإنهم يستطيعون أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن . أما وأنا حى فإن عمل المبضع فى بدنى لأهون علىّ من أن أرض فلسطين قد بترت من إمبراطوريتى . وهذا أمر لا يكون . أى لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة» (٨) .

ومن أجل هذا الهدف تأسست جمعيات يهودية فى كل بلاد العالم: ٧٨٣ جمعية

فى الدول الأوربية؛ وأسس يهود مصر جمعيتين؛ ويهود أمريكا خمسين جمعية(٩) .

لهذا أطلق السلطان عبد الحميد الثانى دعوة مسلمى العالم إلى الجامعة الإسلامية بهدف استقطاب العالم الإسلامى، للوقوف إلى جانبه فى وجه الزحف الاستعمارى الأوربى اليهودى والصليبى على الدولة العثمانية (١٠).

وجاء اليوم الذى يتخذ فيه مجلسا الأعيان -الشيوخ والنواب- العثمانى، على أيدى الخونة من أبناء الأمة (الاتحاديين) قراراً فى اليوم الثامن والعشرين من شهر ابريل عام ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ قراراً بعزل السلطان عبد الحميد الثانى عن العرش وقد حمل إليه قرار العزل وفد من ثلاثة أعضاء كان أحدهم يهوديا اسمه «قره صو» أفندى الذى كان يكن العداوة والبغضاء للسلطان ، لأن الأخير كان قد طرده من قصره حين حاول التأثير عليه لقبول تهجير اليهود إلى فلسطين وتوطينهم فيها. ويعلق أحد العرب على ذلك : «وأنه لمنظر ملئ بالشماته والحقد ، أن يخلع سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين ، وأن يحمل له بلاغ الطرد أحد أبناء اليهود الذين حرم عليهم فلسطين» .

ثالثاً : شهادة الأستاذ الدكتور : إحسان حقى (١١)

هل كان عبد الحميد مستبداً ؟ تحت هذا العنوان كتب الأستاذ إحسان :

كان السلطان عبد الحميد وهو على العرش الملك الصالح المصلح والعادل المنصف فلما خلع صار الرجل الغاشم الظالم المستبد المتعطش إلى الدماء حتى لقب بالملك الأحمر ، فأى القولين أصدق ؟

«أما أنا فإنى لا أستطيع أن أثبت أو أنفى أحد الأمرين لأنى لا أعلم ، ولكنى أميل بحسب معلوماتى ومطالعاتى وأقوال من عاشرتهم ممن يعرفون السلطان شخصياً أنه كان ملكاً مثل غيره من الملوك فى زمانه ، ولكنه يمتاز على غيره بالدهاء وبعد النظر والصلاح . فعبد الحميد لم يكن ملكاً ديمقراطياً مثل إنكلترا أو السويد مثلاً بل كان ملكاً أوتوقراطياً يملك ويحكم وإذا كان قد ظهر منه شئ من الاستبداد فتلك كانت شيمة الملوك فى ذاك الزمان . وتلك كانت مقتضيات الحكم فى دولة تنهشها الذئاب (الدول الأوربية روسيا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها) من كل جانب . بيد أننا لو قسنا استبداد عبد الحميد باستبداد بعض حكام اليوم الذين لا يزيدون عن شيوخ قرى بالنسبة إليه نجد استبداده رحمة وحناناً بالنسبة الى مظالمهم» .

ولكى نأخذ فكرة سليمة عن السلطان عبد الحميد ننقل فيما يلى ما قاله جمال

الدين الأفغانى :

بأن السلطان عبد الحميد لو وزن بأربعة من نوابغ هذا العصر لرجحهم ذكاءً ودهاءً وسياسة . فلا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام للملكه من الصعاب من دول الغرب . إنه يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامى الدول الغربية . وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجًا وسلّماً . وأعظم ما أدهشنى ما أعده من خفى المسائل وأمضى العوامل كى لا تتفق أوروبا على أمر خطير فى المماليك العثمانية . كان يريها عيانًا محسوساً أن تجزئه السلطنة العثمانية لا يمكن أن تتم إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها ، وكلما حاولت دول البلقان الخروج على الدولة بحرب كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه وتفريق ما جمعوه » .

ويواصل الدكتور إحسان حقى شهادته بقوله: «وكان عبد الحميد يدرك أن روسيا التى قامت على أنقاض الدول الإسلامية التى ابتلعتها مثل: بخارى وحيوه وطاشقند وغيرها ، تخشى الدولة العثمانية (دولة الخلافة الإسلامية)، ولذا فإنها كانت تحاول تقويض دعائمها وتشتيت شملها لكى تسلم لها غنائمها . وكانت روسيا تبنى سياستها على الانتصار للمسيحية ضد دولة الخلافة الإسلامية التى تزعم أنها تعمل للقضاء على المسيحية ، وبذلك كانت تثير النعرات الدينية التى سبقتها أوروبا الغربية إلى إثارتها . كان عبد الحميد يدرك هذا ويعلم أن حجة روسيا أقوى من حجته لدى الدول المسيحية ولذا فإنه كان يلجأ الى التفريق بين هذه الدول لكى لا تتفق عليه . وكان عليه أن يقاتل فى جبهتين : الجبهة الداخلية والجبهة الخارجية . أما الجبهة الخارجية فانها كانت تتألف من جميع دول أوروبا المسيحية وأما الجبهة الداخلية فانها كانت تتألف من العناصر القومية التى عمل الغرب على تحريضها على الثورات ، ولم يكن إلا الحيلة والدهاء» .

«وإذا ظهر من السلطان عبد الحميد ما يمكن أن يوصف بالاستبداد فذلك لأن مقتضيات الزمن كانت تدعو الى ذلك ، ثم إنه كان يخشى أن يصيبه ما أصاب عمه السلطان عبد العزيز وأخاه السلطان مراد اللذين ما زال دمهما المهراق يترقرق أمام عينيه وكان يخشى أن يحل به ما حل بهما. وكان قاتلهما أو المتهم بقتلهما أو الموحى به ما زال حياً ألا وهو مدحت باشا رئيس حزب تركيا الفتاة والذى كانوا يسمونه (أبو الأحرار)، وهو رئيس الوزارة أيضاً ومتهم بالعمالة لإنكلترا ولروسيا» .

«فكان على عبد الحميد أن يتخذ الحيطة للدفاع عن نفسه قبل كل شيء ولذا فقد استهل عهده بأن قلّم أظفار مدحت باشا، بأن عزله من رئاسة الوزارة، ونفاه من

البلاد، وفرق شمل أعوانه» .

«لقد كان عبد الحميد يقاتل على جبهتين ، كما أسلفنا ، فلا عجب إذا صدرت عنه بعض أعمال العنف لصيانة الدولة من أعدائها . وإذا كنا لا نستطيع أن ندعى أن عهد عبد الحميد كان ديمقراطياً ، فاننا لا نستطيع أن نتهمه بأنه كان استبدادياً صرفاً بل كان عهداً يساير زمانه ولم يكن يشعر بالحرج فى عهد عبد الحميد أو يشتكى الظلم والاستبداد إلا الذين يشتغلون بالسياسة ويتآمرون على الدولة بحسن نية أو سوء نية» .

سياسة عبد الحميد الاسلامية

«حاول السلطان عبد الحميد حينما تبوأ العرش أن يعمل على إرضاء الغرب فأعلن الدستور الذى يساوى فيه بين العناصر والأقوام وكان شعاره (حرية، أخوة، عدالة، مساواة) أى أنه زاد على الشعار الإفرنسى كلمة العدالة التى هى أساس كل شيء ولكنه رأى أن غاية الغرب ليست إعلان المساواة بل غايته القضاء على السلطنة ، وما مطالبها بالمساواة وغيرها إلا حيل لإنهاكها وتفريق شملها . فلما رأى عبد الحميد هذا أدرك أن لا شيء ينقذ السلطنة الا القوة ولكن من أين له القوة، والقوة تحتاج الى المال والخزينة مفلسة ؟ !

«إذن لا بد من الاتكال على قوة معنوية هى قوة الإسلام فاهتم بالدعوة الى الجامعة الإسلامية وقد نجحت سياسته واستطاع أن يحكم البلاد ثلاثاً وثلاثين سنة كانت السلطنة على ضعفها ووهنها والمؤامرات التى تحاك لها فى الداخل والخارج محترمة المكانة مرهوبة الجانب . وفى نطاق هذه السياسة قرب اليه كثيراً من رجالات الإسلام مثل: جمال الدين الأفغانى، والشيخ أبو الهدى الرفاعى من حماة وأحمد عزت العابد من دمشق، والشيخ محمد ظافر من الجزائر، والشيخ سعيد من حمص، والشيخ أحمد أسعد القيصرلى من المدينة المنورة، والسيد فضل الله من مليبار بالإضافة الى فريق من أشراف مكة المكرمة، وعلى رأسهم الحسين بن على وعلى حيدر وعبد الإله باشا وصادق باشا وغيرهم ، وأجرى على الجميع مرتبات كما أجرى مرتبات على غيرهم ممن تخلف فى بلده، وكان له نفوذ إسلامى . لقد فعل ما فعل من قبيل تأليف القلوب ولكنه لم يكن مخدوعاً بأحد، بل ينزل كل واحد على قدره ، وكان لا يأمن للشريف حسين وحينما أصر الاتحاديون عليه لتعيينه شريفاً على مكة بدل الشريف على قال لهم : إنى أبرأ من تبعة كل ما سيعمله هذا الرجل لأنى أعرف حقيقته.

«وقد تجاوز عبد الحميد هذه المرحلة من تقريب العناصر غير التركية، وعهد الى

كثير من العرب بأعلى المناصب فى الدولة، منهم احمد عزت باشا العابد الكاتب الثانى فى المابين، وقد بلغ نفوذه مبلغاً فاق الصدارة، وشفيق بك المؤيد المفوض فى الديون العامة، وشفيق بك الكورانى رئيس الشرطة ، وعرب حقى باشا وسليم بك ملحمة ونجيب بك ملحمة وسليمان البستانى وقد بلغوا كلهم رتبة الوزارة وكلهم من سوريا ولبنان ، وطالب باشا النقيب وأحمد باشا الزهير (من أعضاء مجلس شورى الدولة) وهما عراقيان . وكان الفريق محمد باشا والفريق محيى الدين باشا ولدا الأمير عبد القادر الجزائرى، وفؤاد باشا المصرى من مرافقى السلطان . وكان المشير أركان حرب شفيق باشا وأخوه الفريق وهيب باشا، من أركان اساتذة المدارس العسكرية والحكومية وهما لبنانيان من قرية المتين . وكان شكرى باشا الأيوبى الدمشقى ناظراً للأعمال العسكرية والدكتور يوسف رامى من قرية فالوغا فى لبنان امير لواء والدكتور إلياس مطر من بيروت أستاذاً للتشريح فى الكلية الطبية فى إستانبول . والأستاذ باز من دير القمر بلبنان أستاذاً فى كلية الحقوق وغيرهم كثير».

«وبالإضافة إلى ذلك فقد اتخذ السلطان عبد الحميد من العرب حرساً خاصاً انزلهم حول قصره وألبسهم عمائم خضر».

ولم يكتف بل إنه عمد إلى تزويج أميرات البيت المالك من غير الأتراك ورفع أزواجهن إلى رتبة داماد (أى صهر) وهم : الشريف على حيدر الذى طمع فى عهد الانتداب الإفرنسى أن يكون ملكاً على سوريا ، وصالح بك خير الدين باشا التونسى ، وأحمد نامى شركسى الأصل ولبنانى الجنسية وقد صار سنة ١٩٢٦م/١٣٤٥هـ رئيساً لدولة سوريا».

«وكما قرب السلطان العرب إليه فإنه لم يهمل الأقوام المسلمة الأخرى فجمع حوله طائفة من الأكراد والأرناؤوط، أمثال اسماعيل باشا الكردى، ودرويش باشا الألبانى وغيرهما وعنى عناية خاصة بتربية الناشئة من أولاد العشائر فأنشأ مدرسة العشائر فى إستانبول لتوثيق عرى الأخوة بين العشائر ودار الخلافة».

«هذا بعض ما فعله عبد الحميد فى سبيل جمع كلمة رعايا الإمبراطورية العثمانية حول مبدأ واحد وهدف واحد وهو الإسلام وهو عمل عظيم ، ولكن بقدر ما كانت هذه السياسة ناجحة ومفيدة فى تدعيم أركان الدولة، فإنها كانت أشبه بناقوس الخطر بالنسبة الى دول الغرب التى تخشى الإسلام وتحاربه بكل قواها لأن انتصار الإسلام يعنى فى نظرها اندحاراً للمسيحية، ولذلك فقد عملت على إزالة عبد الحميد أولا ثم القضاء على الإمبراطورية بعد ذلك»(١٢).

«لقد توالى على عرش الدولة العثمانية ستة وثلاثون سلطاناً، كان منهم سلاطين عظام يمتازون بالحنكة والحكمة. والإرادة والإدارة والشجاعة والإخلاص والعفة والتقشف وغير ذلك من الصفات الطيبة ، وهم ممن لا يأتى الدهر بمثلهم إلا على فترات من الزمن ، وكان منهم بين بين كما كان آخرون ليس لهم من ميزة يمتازون بها تؤهلهم للوصول إلى العرش إلا كونهم ينتسبون إلى الأسرة المالكة فدفعوا الى العرش دفعاً وهم لا يصلحون له ولا يصلح لهم»(١٣) .

غير أن السلطان عبد الحميد كان فذاً من هذه الناحية إذ كان عظيماً فهابوه واحترموه وقدروه حق قدره وهو على العرش ، فلما خرّ عن العرش وجدوها فرصة للإجهاز عليه حتى لا تقوم له قائمة بعد ذلك ابداً . وإذا كان أعداؤه قد تجرأوا للطعن به فذلك لأنهم كانوا يعلمون بأن الدولة العثمانية قد نضجت وأنه يجب الإجهاز عليها فى شخص هذا السلطان لكى تسقط بين أيديهم لقمةً سائغة وأنهم إذا فعلوا ذلك فلن يؤاخذوا بما يقولونه وما يفعلونه وما يفترونه ، فكانت الحملة عليه تتناسب مع عظم قدره» .

كان لابد للاتحاديين (الأتراك الخونة) وللذين ساهموا فى خلعه عملا أو فكراً ، من أن يروجوا ضده أقوالا تبرر عملهم ليحطوا من منزلته، وقد وجدوا فى الغربيين الذين كانت الفكرة الإسلامية تزعجهم وترهبهم ، والتى كان السلطان عبد الحميد يتبناها ويهدد بها ، أنصاراً وأعواناً لهم عل نشر أخبار السوء المختلفة التى من شأنها أن تحط من قدر هذا السلطان وتشوه سمعته أمام الرأى العام العالمى عامة وأمام الشعب العثمانى خاصة . وكان الناس أمام هذه الشائعات فريقين : فريق أعمى أصم لا يبصر إلا بعين غيره ولا يسمع إلا بأذن غيره ، وفريق صاحب غرض وغاية لا يهمه إلا أن يروج لغرضه صدقاً أو كذباً . ولما كانت الرياح قد ظلت تعصف ، وبعد خلع السلطان ، مدة طويلة فى اتجاه رأى الحزب الغالب الذى لا يمكن مخالفته ، فقد وقر فى نفوس كثير من الناس ، ولا سيما الشبان منهم ، الذين يتلقفون الأخبار من الأفواه وليس عندهم القدرة على التمييز بين صحيحها وسقيمها وهم ليسوا على علم بالواقع ليتبعوه ، كان ما يقال عن السلطان عبد الحميد هو الصدق الذى لا ريب فيه ولا شك فآمنوا به كحقيقة مسلمة لا تحتاج إلى إثبات أو دليل. وجاء من بعدهم نماذج جيل جديد لم يشهد الماضى، ولم يعرف عنه شيئاً، ولم ير أمامه من المراجع ما يرجع إليه بهذا الشأن غير ما كتبه أعداء السلطان من أبناء البلاد أو من الغربين فنقلوه عنهم وهم يحسبون أنهم ينقلون تاريخاً بينما هم فى الحقيقة ينقلون روايات خيالية هى من نبع تفكير كاتبيها» .

«لقد كتبت كتب كثيرة عن السلطان عبد الحميد حتى أصبحت الكتابة عنه، فى تلك الحقبة ، تجارة للكسب وكلما بالغ الكتاب فى الكلام وأتوا بالعجب العجاب والمنكر من القول ولفقّوا الروايات الخيالية ، عن حياة هذا السلطان ، كانت كتبهم أكثر رواجاً وشيوعاً ، وكل الذين كتبوا استقوا معلوماتهم من نبع واحد هو نبع العداوة والبغضاء والكيد والشماتة وكل ما كتبوه يدين السلطان ويتهمه بالظلم والاستبداد وحبه لإراقة الدماء ، وأخذ التابعون عن السابقين أقوالهم من غير تمحيص ولا تدقيق فجاءت مشوهة عن غير قصد. وكان السابقون أحد شخصين إما أنهم أصحاب أهواء وغايات وإما أنهم مأجورون، فرسموا للسلطان عبد الحميد صورة قبيحة جداً دونها صور الوحوش المفترسة حتى صار يعرف باسم : السلطان الأحمر لأنه ، على رأيهم ، انغمس فى الدماء من قمة رأسه الى أخمص قدميه . وقد ظلت هذه الصورة مستولية على عقول الناس عامة وعلى الكتاب والأدباء خاصة ، ردحاً من الزمن ولم يخطر ببال واحد من الذين عايشوا زمن عبد الحميد أو جاؤوا فى الفترة التى جاءت بعده مباشرة وكتبوا عنه شيئاً أن يرجع إلى مراجع جديدة ليرسم صورة صادقة عن هذا العاهل الذى ظلمه التاريخ والمؤرخون».

«غير أنه بعد مضى أكثر من نصف قرن على خلع السلطان، وبعد أن ذهب الاتحاديون، وانمحت دولة الخلافة ولم يعد الغربيون يبالون بما قيل وما يقال عن الرجل، ولا عن غيره من سلاطين آل عثمان ، بعد أن هدموا بناء هذه الإمبراطورية ودكوا أركانها ، بعد هذا كله أخذت الأذهان تتفتح والعقول تثوب إلى صوابها لتحاكم الأمور بالمنطق والمعقول وتسعى إلى كشف الحقائق ونفض الغبار عنها على ضوء الواقع والحقيقة وليس على ضوء المصالح الخاصة والأغراض والغايات الشخصية ، تبين أن ما قيل عن هذا كان من نوع الدعاية ، وظهر من شبان الجيل الحاضر أساتذة أخصائيون بالتاريخ هداهم البحث العلمى إلى تغيير الاتجاه السابق ونبذ الأقوال التى لا تستند على واقع وهم يكتبون الآن ، تاريخ الدولة العثمانية عامة وتاريخ السلطان عبد الحميد خاصة على ضوء المعطيات العلمية الراهنة البعيدة عن العصبية والتعصب واعتقد أن كتبهم ستظهر قريباً الى عالم الوجود(١٤) لكى تسد فراغاً كبيراً فى المكتبة العربية لا بل فى المكتبة العالمية المكتظة بكتب الدعاية!!

«اتهم السلطان عبد الحميد بالظلم والاستبداد والتعسف والبطش وإراقة الدماء بغير حق ، فأنا لا أعرف شيئاً من هذا لأنى لم أشهده وقد ذهب الرجل إلى ربه وهو ليس بحاجة الى من يدافع عنه، ولا ينفعه دفاع أحد من الناس، بل أعماله هى التى تدافع

عنه أو تدينه ، ولكن التاريخ أولى أن يعرف على حقيقته لا كما كتبه أصحاب أغراض».

«وهنا أتساءل فيما إذا صح ما نسب اليه من ظلم واستبداد ، هل كان فذاً فيما فعل ؟»

«وأى ملك أو أمير أو حاكم لم يكن ، فى ذاك الزمن ، يفعل ذلك ؟ لا بل أى حاكم فى أيامنا هذه ، وفى بعض البلاد التى تدعى الديمقراطية والحرية الفكرية ، لا يفعل أكثر مما نسب الى السلطان عبد الحميد ؟ فالسجون فى بعض البلاد مليئة بالأبرياء والأحكام الكيدية التى تصدرها المحاكم الخاصة من أقبح مظاهر الاستبداد .

ومن البدهى أن يسود الظلم والاستبداد فى بلاد لا سيادة فيها للقانون».

«وإذا قلت هذاالقول فإنى لست أقصد به الدفاع عن السلطان عبد الحميد لما يقال أنه ارتكبه من مظالم على اعتبار أن غيره من الملوك ظالمون ، بل أقصد به أن هذا كان شأن بعض الحكام منذ الخليقة وإلى اليوم» .

«لست أدرى كم قتل عبد الحميد من الناس ولكنى لا اعتقد أن عددهم يتجاوز العشرات فى بحر ثلاث وثلاثين سنة قضاها فى الملك، وكل الذين قتلوا بجريمة التآمر على الدولة وخيانة الوطن ، فأى قانون فى العالم لا يقتل خائن الوطن ؟ أما كون الذين اتهموا بالخيانة هم ليسوا خائنين فى الواقع، وإنما هم طلاب حرية فذلك شئ آخر لأن خيانة الوطن والإخلاص لهما مفهومان نسبيان، فالفئة الحاكمة هى دائماً مقياس الوطنية ومن وقف فى وجهها فهو الخائن . وهذا المقاس ثابت لا يتغير وقد ينقلب الوضع ، بين عشية وضحاها ، وتصبح الفئة الحاكمة خارج الحكم ويصبح الفريق الآخر حاكماً ويصبح من كان خائناً وطنياً والوطنى خائناً . فنحن إذن، لا نريد أن نبحث فيما اذا كان الذين قتلوا كانوا خونة حقاً أو غير خونة بل نقول إنهم حسبوا خونة بالنسبة الى الفئة الحاكمة فنالوا جزاء الخائن ..»

«ولعل من أقبح ما اتهم به السلطان عبد الحميد هو أنه كان يقتل مخالفيه غرقاً فى البحر ، وقد هول أصحاب هذا القول بهذا الأمر تهويلاً كبيراً الى حد أنهم جعلوا الناس يعتقدون بأن الغرق فى البحر هو الذى يستحق أن يطلق عليه اسم الموت وأما الشنق والخنق والخازوق والدفن فى التراب حياً والرمى بالرصاص والإذابة بالأسيد وغيرها من الأمور التى تؤدى الى الموت فهى ليست موتاً . وبصرف النظر عن أن الموت بأية وسيلة كانت هو موت فإن تهم إغراق الناس بالبحر تهمة كاذبة من أساسها ولربما لم تخطر

يبال أحد سوى مروجيها ، إذ من المعلوم أن الذين قاموا بالحركات القومية المناهضة للدولة العثمانية هم الأقوام غير التركية وعلى رأسهم العرب وقد أنشأ هؤلاء الجمعيات السرية وألفوا الأحزاب العلنية وعقدوا المؤتمرات ووزعوا النشرات وأصدروا الجرائد داخل البلاد وخارجها وكتبوا الكتب وقالوا بالسلطان فى حياته وبعد خلعه أكثر مما قاله مالك فى الخمر، ولكن أحداً منهم لم ينقل إلينا خبر الإغراق ولم نر أو نسمع ، فى طول البلاد وعرضها ، إنساناً ادعى أن أباه أو أخاه أو خاله أو عمه أو قريبه أوحتى جاره أو صديقه أخذ وأغرق فى البحر ، ولكن على الرغم من عدم وجود شاهد على هذه الجريمة فإن الناس قد تلقفوا هذا القول وصدقوه وكأنه أمر مسلم به لا يحتاج إلى دليل أو إثبات» .

«أنا لا أقول بأن السلطان عبد الحميد كان ملاكاً أو كان معصوماً لأنه لو كان كذلك لما بقى على العرش هذه المدة الطويلة ، فى زمن كان الملوك العوبة بأيدى الجند، بل أقول إنه كان مثل غيره من الملوك من هذه الناحية ولكن كان يمتاز على كثير منهم بدهائه وذكائه وإخلاصه وحنكته وحكمته وعقيدته الإسلامية . تولى عبد الحميد العرش والدولة فى حالة احتضار فلم يمسكها إلا دهاؤه وذكاؤه وإذا لم يكن للسلطان عبد الحميد من فضل إلا كونه رفض أن يعطى اليهود وطناً قومياً فى فلسطين لقاء خمسين مليون ليرة ذهبية ووعوده بمساعدات أخرى لكفاه فخراً واغتفر له كل سيئة ارتكبها إن كانت له سيئات» .

«لقد ظلمنا العثمانيين إذ سميناهم مستعمرين ونحن منهم ، وظلمناهم إذ قلنا إنهم مخربون ونحن منهم ، وظلمناهم إذ قلنا أنهم أساؤوا إلى البلاد ونحن منهم وظلمنا عبد الحميد وسلقناه بالسنة حداد وألصقنا به ما هو براء منه ، جرياً وراء دعايات مغرضة وهو من أفضل ملوك بنى عثمان ، ولكن ذنبه الوحيد أنه جاء متأخراً فى الزمن ولو جاء قبل قرن من زمنه لأصلح كثيراً من الأمور» .

«وبالتالى ليس التاريخ أهواء وخيالات ولا هو دعاية وغايات بل هو وقائع وحقائق، يجب أن تعلم وأن تقال كما هى لكى تكون دروساً وعبراً» .

مصادر ومراجع الفصل الثالث

(١) تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية د. علي حسون ، المكتب الإسلامي ، ط١ ١٤٠٠هـ، ص:٢١٠ .

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الأنجلو المصرية، القاهرة.

(٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج٢ ، ص : ٩٦٦ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ .

(٤) منذ عام ١٩٢٠ – الدولة العثمانية ، ج٢، صفحة ٩٩٥.

(٥) الدولة العثمانية ، ج٢ ، صفحة ١٠٠٢ .

(٦) تغلغل اليهود في مجالس جمعية الاتحاد والترقي التي تولت الحكم وبرز منهم عدد ليس بالقليل في الدوائر العليا في حكومة إستانبول ونذكر منهم على سبيل المثال اطلعت باشا الذي شغل منصب وزير الداخلية وهو يهودي اعتنق الإسلام (الدونمة) وكان هناك وكالة صهيونية في إستانبول رئيسها فيكتور جاكوبسن وهو يهودي رومي المولد تعلم في ألمانيا واكتسب الجنسية العثمانية وكان يعاونه في مهمته ديفيد جرين (بن جوريون) وبن زفي ، وموسى شرتوك (شريت) وكانت هذه الوكالة تموّل صحيفة التركي الشاب) التي كانت تساند الاتحاديين في الحكم . كما كان عليها مراقبة موقف النظام الجديد (حكم العسكر) في الدولة من الحركة الصهيونية ، وتقصي نشاط العرب في العاصمة العثمانية ومراقبة اتجاهاتهم فيما يتصل بالهجرة اليهودية إلى فلسطين (صفحة ١٠٢٦-١٠٢٧) .

(٧) نفس المرجع ص : ٩٨٨ .

(٨) نفس المرجع ص : ٩٩٠ – ٩٩١ .

(٩) الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص : ٩٨٦ .

(١٠) نفس المرجع ص : ٩٩١ .

(١١) تحقيقاً وتعليقاً على كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانيه ، تأليف ا. محمد فريد المحامي ، دار النفائس ، بيروت ، ط ١٤٠٣، صفحات ٧٤١ – ٧٤٦.

(١٢) لفظة إمبراطور لاتينية الأصل وتعني القائد الأعلى المظفر، وقد أطلق اللفظ على الدولة الرومانية في أقصى حالات إتساعها، والأفضل أن نقول دولة الخلافة الإسلامية على عهد آل عثمان.

(١٣) المرجع السابق، صفحات ٧٧١ – ٧٧٦.

(١٤) العثمانيون في التاريخ والحضارة، أ.د. محمد حرب، المركز المصري للدراسات العثمانية المعاصرة جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، زياد أبو غنيمة، دار الفرقان، عمان.

الفصل الرابع

انهيار الدولة العثمانية

فى عهود:

* السلطان محمد الخامس (رشاد) بن عبد المجيد الأول (١٣٢٧-١٣٣٧هـ) (١٩٠٩-١٩١٨) .
* السلطان محمد السادس (وحيد الدين) بن مراد الخامس (١٣٣٧ -١٣٤١هـ) (١٩١٨-١٩٢٢) .
* السلطان عبد المجيد بن عبد العزيز الثانى (١٣٤١-١٣٤٣هـ) (١٩٢٢ -١٩٢٤م).

فى هذه الفترة(١) نلمح الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا تمسك بدفة توجيه الأمور داخل الدولة العثمانية وخارجها إعتماداً على ضباط الإنقلاب العسكرى (الإتحاديين والكماليين من بعدهم) .

* ضباط الجيش يمسكون بزمام الأمور ويوجهون سياسة الدولة العثمانية وجهة تركية قومية (غير إسلامية) .
* الدستور أصبح العوبة بيد القادة رغم وجود المجلس النيابى ، يُعدّل فى أى وقت لتحقيق أهداف غير مشروعة .
* ظهور جمعية الإتحاد والترقى على المسرح السياسى بعد أن كانت تنظيماً سرياً.
* الجمعية هى الجناح العسكرى لتنظيم تركيا الفتاة الماسونى ، وتضم شخصيات وعصابات تسترت بقناع من المبادئ الزائفة .
* الهزائم تتابع على الدولة العثمانية فى شبه جزيرة البلقان على يد الصليبية الأوروبية، فى ظل حكم الإتحاديين والكماليين.
* الدولة العثمانية تواصل الإنهيار داخلياً وخارجياً فى ظل حكم العسكر (الإنقلابيين) الذين برز منهم على المسرح السياسى طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا.
* نمو النزعة القومية عند الأتراك والعرب .
* القوميون يشكلون الجمعيات السرية ويصدرون الكتب لتأصيل النزعة القومية من هؤلاء نجيب عازورى (وهو نصرانى) الذى نشركتابا له فى عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦ تحت عنوان «يقظة الأمة العربية » .

* الكواكبى فى كتابه « أم القرى » يدعو إلى انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية وإقامة خلافة عربية مقرها مكة المكرمة .

* إبراهيم اليازجى (شاعر سورى) يزكى نار القومية (الإنفصالية).

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
أقداركم فى عيون الترك نازلة
وحقكم بين الترك(٢) مغتصب

ضياء كوك ألب (أبو القومية التركية)

*** أوربا تقرر السماح لإيطاليا بغزو واغتصاب طرابلس الغرب (ليبيا) .**

* الدول الأوربية تتداعى إلى تمزيق وإغتصاب ما تبقى من الدولة العثمانية .

* إتفاقية سرية بين إيطاليا وإنجلترا وفرنسا والمجر وأسبانيا ، ضمنت إيطاليا لنفسها بموجبها إحتلال طرابلس الغرب (ليبيا) .

* ضباط الجيش الإيطالى يتنكرون فى زى صيادى الإسفنج ويمسحون السواحل الطرابلسية التى أطلق عليها فى ذلك الحين إسما قديماً (هو ليبيا) .

* الإيطاليون يمهدون للغزو:

أولا : بشراء الأراضى الليبية بواسطة أشخاص صوربيين ، وإقامة مشروعات زراعية عليها.

ثانياً : إحتكار المواصلات بين طرابلس الغرب وأوربا .

ثالثاً : إرسال البعثات التنصيرية الكاثوليكية إلى البلاد .

رابعاً : فتح المدارس الإيطالية .

* إيطاليا الصليبية ترسل إنذاراً إلى الدولة العثمانية فى ظل حكم رجال تركيا الفتاة تتهم الدولة بعرقلة مساعى التقدم الذى يجريه الإيطاليون لتحضير طرابلس الغرب !! ولهذا فقد قررت الحكومة الإيطالية إحتلال طرابلس الغرب .

* الدولة التركية فى ظل حكم العسكر ترفض الإنذار ! مجرد رفض !

* الأسطول الإيطالى يحاصر الشواطئ الطرابلسية على البحر الأبيض المتوسط ويهاجم

طرابلس بالطيران والمدفعية و٥٥ ألف جندى .

* انجلترا الصليبية البروتستانتية التى كانت تحتل مصر تعاون إيطاليا فى إحكام الحصار حول طرابلس الغرب وكذلك فرنسا التى كانت تحتل تونس والجزائر .

* الإيطاليون الصليبيون يحتلون طرابلس الغرب وبنغازى ويعلنون ضمها إليها وعرّفت البلاد باسم ليبيا منذ ذلك الحين .

* المسلمون فى طرابلس يجاهدون الغزاة الأوروبيين الصليبيين وينزلون بهم خسائر فادحة. وكان يعاونهم فى ذلك القوات العثمانية الموجودة بقيادة عزيز المصرى فى بنغازى .

* استمرار القتال بين المسلمين وبين الإيطاليين الصليبيين حتى الحرب العالمية الأولى .

* إيطاليا تلجأ إلى الخديعة وتعقد اتفاقًا مع السيد إدريس السنوسى لوقف القتال(٣) ، ثم تنقضه .

* أهل طرابلس الغرب ينازلون الإحتلال الإيطالى على أرضهم لمدة خمس عشرة سنة ، أسر فى أعقابها عمر المختار ليقتل ظلماً وعدوانا تحت سمع وبصر العالم الإسلامى (وخاصة الدولة التركية (٤))

صور من الفظائع الوحشية التى ارتكبها الإيطاليون فى طرابلس الغرب :

أورد الدكتور عبد الله حسون نماذج من الفظائع التى إرتكبها أبناء أوروبا (الإيطاليون) بحق الشعب العربى المسلم إنها صورة مما يفعله الصرب الأرثوذكس بحق إخواننا الشاشان والانغوش بل هى امتداد للإجرام الذى باشره الروس بحق إخواننا المسلمين وأخواتنا المسلمات فى تركستان(٥) الشرقية والغربية ، وشبه جزيرة القرم والقوقاز ، بل إنها امتداد لما إرتكبه الإنجليز والفرنسيون فى بلادنا.

يقول الأستاذ الدكتور على حسون(٦) :

« إن الأعمال والفظائع الوحشية التى قام بها الطليان فى طرابلس الغرب يندى لها الجبين ، فقد حاولوا إجلاء سكان الجبل الأخضر، وإحلال الأوروبيين مكانهم فجمعوا ثمانين ألفا من المسلمين من سكانه، وساقوهم إلى صحراء (سرت) فى الأراضى الواقعة بين برقة وطرابلس على مسافة عشرة أيام وأنزلوهم فى أماكن لا ماء فيها ولا مطر ولا طعام ولا زرع فمات القسم الأكبر منهم جوعاً وعطشاً ، وأخذوا الأولاد منهم وساقوهم

إلى إيطاليا رغم أنف آبائهم من أجل تربيتهم وتنشئتهم فى النصرانية .

ومثلت إيطاليا دور الأندلس فى إنتزاع أراضى المسلمين عنوة وطرد أهلها الأصليين.

لقد تناقص سكان طرابلس الغرب الى النصف بسبب الغارات الإيطالية الوحشية وما نجم عنها من قتل وتشريد. ومن جملة فظائعهم أنهم حين احتلوا واحة (الكفرة) فى عام ١٣٥٠هـ/١٩٣١م استباحوا قراها ثلاثة أيام فقتلوا من صادفوه من الأهالى على مرأى ومسمع من الاشهاد جميعاً، مما أدى إلى إشمئزاز كثير من الأوروبيين أنفسهم من شدة بشاعة الجرائم وهولها وقد قال (فرانسز ماكولا) البريطاني: (أبيت البقاء مع جيش لا هم له إلا رتكاب جرائم القتل وإن ما رأيته من المذابح وترك النساء المريضات العربيات وأولادهن يعالجون سكرات الموت على قارعة الطريق جعلتنى أكتب للجنرال (كانيفا) كتاباً شديد اللهجة قلت له : إنى أرفض البقاء مع جيش لا أعده جيشاً بل عصابة من قطاع الطريق والقتلة» (٧).

«ويقول الكاتب الألمانى «فون غو تنبرغ»: (إنه لم يفعل جيش بعدوه من أنواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان فى طرابلس فقد كان الجنرال (كانيفا) يستهين بكل قانون حربى ويأمر بقتل الأسرى سواء أقبض عليهم فى الحرب أم فى بيوتهم) وقال المراسل النمساوى الحربى الذى وجد فى الباخرة التى نقلت جانباً من أولئك الأسرى: فى الساعة السادسة من مساء كل يوم يكبل هؤلاء المرضى بالحديد من اليد اليمنى والرجل اليسرى . حقاً إن موسيقى هذه السلاسل تتفق مع المدنية التى نقلتها إيطاليا إلى أفريقية . ويقول فى مكان آخر: (رأيت طائفة من الجنود تطوف الشوارع مفرغة رصاص مسدساتها إلى قلب كل عربى(٨) تجده فى طريقها . قد نزع أكثرهم معاطفهم ورفعوا أكمام قمصانهم كأنهم جزارون) وقال المسيو (كوسيرا) مراسل جريدة اكسيلور الباريسية: (لا يخطر ببال أحد ما رأيناه بأعيننا من مشاهد القتل العام ومن أكوام جثث الشيوخ والنساء والأطفال يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفية كالبخور، يحرق أمام مذابح النصر الباهر، ومررت بمائة جثة بجانب حائط قضى عليهم بأشكال مختلفة وما فررت من هذا المنظر حتى تمثلت أمام عينى عائلة عربية قتلت عن آخرها وهى تستعد للطعام ورأيت طفلة صغيرة أدخلت رأسها فى صندوق حتى لا ترى ما يحل بها وبأهلها . إن الإيطاليين قد فقدوا عقولهم وإنسانيتهم من كل وجه».

«هذه هى المبادئ التى أرادت ايطاليا أن تدخلها إلى طرابلس الغرب لتحضيرها فأعلنت الحرب على تركيا لرفضها السماح لها القيام بهذا التحضير . إن الأوروبيين لا يقبلون شعارات الحرية والمساواة والعدالة إلا بمقدار ما تخدم مصالحهم ، ومع هذا فهى

بالفعل حرية وعدالة ومساواة ماسونية يرفعونها حينما تكون بين الأوروبي والمسلم ويرون أن الحقوق التي يدعيها الأوروبي لا يجب أن يدعيها المسلم . لقد ارتكبت جيوشهم ما يندى له الجبين في بلاد المسلمين سواء في طرابلس وفي الجزائر أو في غيرها تحت شعارات يخدعون فيها القطعان البله من البشر رفعوها وثاروا من أجلها في بلادهم . وقد جاء في كتاب فظائع الطليان في طرابلس الغرب الذى طبع باستانبول عام ١٣٣٥هـ «أصدرت حكومة الفاشست في لواء بنغازى أمراً بإغلاق جميع الكتاتيب التي تعلم الأطفال أمور دينهم وتحفظهم القرآن الكريم فاجأ الفاشست رجلا يدعى الشيخ يونس بن مصطفى البرعفي وهو معتكف في غار بزاوية في الجبل الأخضر فسدّوه عليه وأحرقوه مع عائلته المؤلفة من تسعة أشخاص » وقد جاء في مكان آخر من الكتاب «من فظائع الإبادة والإفناء التي قام بها الجنرال (غراسياني) أنه حشر كافة سكان الجبل الأخضر في بقعة ضيقة من الأرض على الساحل بين (طلمثية) و (بنينة) بعد أن زج زعماءهم في السجون وألحق بهم من الإهانات مالا يوصف وقتل من المشاهير رجلاً يدعى الشيخ (سعيد الرفادى) مع خمسة عشر شخصاً شر قتلة بأن أمر بحملهم في الطائرات وإلقائهم من علو ٤٠٠ متر على مشهد من أهلهم وكلما هوى منهم شخص صاح الضابط والجنود ساخرين منادين « فليأت نبيكم محمد البدوى الذى أغراكم بالجهاد وينقذكم من أيدينا» .

* لقد جمع الجنرال (غراسياني) جميع مشايخ السنوسية ومتولى أوقافها وأئمة المساجد والمؤذنيين والفقهاء وسجنهم كلهم في مركز (بنينة) وهو بناء قديم لا سقف له ذاقوا فيه مر العذاب جوعاً وعطشاً وعذاباً ثم نقلوا إلى سجون إيطاليا . وبعد أن مكثوا فيها مدة أعيدوا إلى (بنينة) حيث أفنوا بالجوع وغيره .

لقد كان محور سياسة أولئك الأعداء الحاقدين استئصال (شأفة الإسلام) من تلك البلاد وقتل رجاله ودعاته وتدمير مراكزه .

الحكام العسكريون (الإتحاد والترقى) في إستانبول يقررون سحب القوات العثمانية وترك طرابلس فريسة للغزو الإيطالي الصليبي ، تحت التهديد الإيطالي ، بل إنهم قبلوا بالصلح مع إيطاليا (١٣٢٩هـ/١٩١١) . شروط الصلح منها :

ا) الحكم الذاتي لطرابلس الغرب .

ب) أن تتعهد إيطاليا بالعفو العام عن المجاهدين الطرابلسيين مع منح السكان الحرية الدينية.

ج)تعهد الأتراك بعدم إرسال قوات عثمانية إلى طرابلس الغرب وبرقة.

وهكذا يتضح لنا أن الدولة العثمانية في عهد حكام الإنقلاب العسكرى تنكرت لمسؤليتها وهى حماية العالم الإسلامى ضد أى عدوان أجنبى صليبى كما كانت تفعل على مدار ستمائة سنة ، الم يقم السلطان سليم الأول بتوحيد العالم الإسلامى لمواجهة الغزو الأسبانى البرتغالى للعالم العربى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م؟ ألم يرسل السلطان سليم الثالث قواتًا لطرد قوات الإحتلال الفرنسى من مصر؟

إذن يمكن القول بأن أوربا إستطاعت أن تضرب دولة الخلافة وتحجم دورها وأن تحول بينها وبين نصرة العالم الإسلامى .

ومع ذلك فقد رفضت إيطاليا تنفيذ الإتفاقية وأعلنت ضم (اى والله) ضم بالغصب والسرقة والقتل والقرصنة لشعب مسلم .

* الدولة التركية فى ظل حكم تركيا الفتاة (الجناح العسكرى)* - تستدرج لحرب فى شبه جزيرة البلقان ضد التحالف البلقانى (صربيا - بلغاريا - اليونان - والجبل الأسود) الذين أرادوا الانفصال الكامل من الدولة العثمانية (فى عام ١٣٣٠هـ /١٩١١م) .

* التحالف البلقانى النصرانى يستخدم الطائرات فى ضرب المدن التركية (ادرنه) ونسى الأمن والأمان الذى تمتعوا به فى ظل حكم الدولة العثمانية ، وصدق الله القائل : **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾** (البقرة: ١٢٠).

* هزيمة الجيش التركى والتسليم بانفصال ولايات البلقان(٩) (وهى جزء من ديار الإسلام) .

* كما استدرج الأتراك إلى الدخول فى حرب البلقان الثانية عام ١٣٣٢هـ/١٩١٣م وكل ذلك كان عاملا من عوامل انهاك إمكانات الدولة وقدراتها، وأدى بالتالى إلى ضياع أراضيها فى أوروبا.

*** تركيا والدول العربية تستدرج لدخول الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣-١٣٣٧هـ) مع الاستشعار للخطر الروسى وسيطرته على أجزاء واسعة من بلاد المسلمين فى بلاد التتار والشركس وبقية القوقاز وأواسط آسيا وسيطرة بقية الحلفاء (إنجليز وفرنسيين وطليان) على مساحات واسعة من بلاد المسلمين فى آسيا وأفريقية.**

* تركيا (١) تقف إلى جانب ألمانيا فى مواجهة الحلفاء (الانجليز والفرنسيين والإيطاليين) والعرب فى مواجهة الأتراك إلى جانب الحلفاء فى بلاد الشام (سورية وفلسطين). وهكذا استدرج أبناء المسلمين ليقاتل بعضهم بعضاً، ونسوا الاحتلال الانجليزى لمصر وغيرها من ديار الإسلام، ونسوا الاحتلال الفرنسى لتونس والجزائر، ونسوا الاحتلال الإيطالى لطرابلس الغرب (مصيبة!!) نسى أبناء المسلمين العدو الذى كان من الواجب مجاهدته وإخراجه من ديار الإسلام بل إنهم نسوا حقيقة الولاء والبراء!!

ثلاثة جيوش عثمانية فى جنوبى بلاد الشام قائدها العام الجنرال ساندرس الألمانى، أى قائدها عدو الإسلام، وبيانها كالتالى: الجيش الرابع فى البلقاء بالأردن والجيش الثامن فى الغرب ويحمى سواحل الشام والجيش السابع فى الوسط ويقوده الضابط مصطفى كمال عام ١٣٣٧هـ/١٩١٨م.

هذه الجيوش الثلاثة تعرضت لهجوم إنجليزى مدعوم بالقوات العربية بقيادة فيصل ابن الشريف الحسينى أمير الحجاز، وتقدم الإنجليز فى فلسطين بقيادة الجنرال اللنبى ودخلوا القدس وأعلن اللنبى: الآن انتهت الحروب الصليبية وواصل الإنجليز زحفهم باتجاه مقر قيادة الجيوش العربية فى الناصرة.

والشيء الملفت للنظر هنا، الضابط مصطفى كمال سحب قواته شمالا لما بعد حلب وبصورة تامة من أمام القوات الإنجليزية بل وسمح لها بالتقدم شمالا دون مقاومة وذلك حسب مخطط متفق عليه(١٠) .. هل أدركت أيها القارئ حجم الخيانة؟ ضابط عثمانى ينسحب من أمام الإنجليز ويمكنهم من احتلال فلسطين والشام، وبهذا فتح الضابط التركى العميل مصطفى كمال الذى ينتسب إلى الإسلام الباب أمام الإنجليز لاحتلال فلسطين وإبادة وتشريد الشعب الفلسطينى وإحلال اليهود محلهم.

كيف يخرج العرب بقيادة فيصل بن الحسين أمير الحجاز تحت توجيه لورنس ليقاتل تحت راية الانجليز الصليبيين إخوانهم الأتراك المسلمين على أرض الشام ، دون أن يتساءلوا هل هذا حرام(١١) أم حلال ؟

هل أعماهم عن ذلك حب الزعامة ؟ أم الجهل بمصيرهم والخطر الذى يتهددهم؟

* لماذا لم تستفد الشعوب المسلمة المحتلة من هذه الفرصة لضرب الاحتلال الإنجليزى الفرنسى الإيطالى الروسى فى مقتل ؟

الأسباب

أ) الخلل الذى أصاب الإيمان بالله واليوم الآخر فى قلوب أبناء الأمة .

ب) حب الدنيا وكراهية الموت .

ج) السلبية.

د) الاحتلال الأجنبى العسكرى.

هـ) خيانة الأنظمة الحاكمة فى بلاد المسلمين. هذه الأنظمة قامت بدور كلب الحراسة للاحتلال الأجنبى. فعطلت فريضة الجهاد (جهاد الكافرين والمنافقين) وتركت إعداد العدة المانعة وعطلت تربية أبناء الأمة تربية إسلامية جهادية. بل ومكنت العدو من ديار المسلمين وثرواتهم ورقابهم، بل إنها وظفت قوات الجيش والشرطة فى تكبيل الأمة بالأغلال وتمكين العدو من رقابها.

و) غياب الراع الصالح (الخليفة الذى يملك قوة الردع) وتمزق الأمة، وعدم وجود تنسيق بين أجزائها بعد عزل السلطان عبد الحميد الثانى، ومجىء الضباط الماسون إلى مسيرة الحكم فى دار الخلافة. وراع الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا كان الذئاب هم الرعاة.

تعقيب على أحداث هذه الفترة (١٢)

أخطر الأحداث التي وقعت في هذه المرحلة من تاريخ الدولة العثمانية هي وصول حزب الإتحاد والترقي إلى سدة الحكم:

- لقد أضاع الإتحاديون كل أجزاء الدولة العثمانية في أوروبا، إذ إستقلت بلغاريا، واحتلت النمسا البوسنة والهرسك، وأخذت اليونان كريت .. واحتلت إيطاليا ليبيا (طرابلس الغرب) وبعض جزر البحر المتوسط.

-إحياء القومية الطورانية والقومية العربية بسعى من أوروبا النصرانية لتفتيت وحدة الدولة العثمانية الإسلامية.

- تنحية الزعماء العرب الذين كانوا يتولون مناصب في الدولة أمثال عزت باشا العابد وغيره، وذلك غير إضطهاد البعض الآخر.

-أعلنت الحكومة الإنجليزية إنهاء إرتباط مصر بالدولة العثمانية، كما أعلنت الحماية الإنجليزية، وخلعت الخديوى عباس حلمي وعينت مكانه عمه حسين كامل حاكماً على مصر وأطلقت عليه اسم سلطان نكاية بالخليفة العثمانى، وهذا الإجراء يعني وقوع مصر نهائياً في قبضةالإحتلال الإنجليزى الذى سموه باسم الحماية؛ وإن حاكم مصر أصبح يعين من قبل سلطة مسيحية بعد أن كان يختار من قبل خليفة المسلمين، كل هذا يحدث في ظل حكم الإتحاديين الكماليين.

-إفتضاح أمر المؤامرة الأوروبية لتمزيق العالم الإسلامى نتيجة إذاعة نصوص إتفاقية سايكس بيكو، وعلم المسلمون العرب وعلم ضباط الإتحاد والترقى، ولم يفعل أحد شيئا.

-جمال باشا حاكم الشام من قبل الإتحاديين يقتحم القنصليات الأجنبية في بيروت ويعثر على وثائق تكشف عن إتصال بعض الزعماء العرب بالأجانب.

-النصارى من رعايا الدولة العثمانية يثيرون النعرات القومية ويطالبون بالإنفصال عن الدولة الأم (العثمانية) ويعادون الإسلام بكل وقاحة، وذلك بتشجيع من إنجلترا وفرنسا وغيرها من دول أوروبا، وصدق الله القائل: **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾**.

-قيام الثورة الشيوعية وإنسحاب روسيا من الحرب العالمية.

-وفاة الخليفة محمد رشاد قبل إستسلام الدولة بعدة شهور وتولى بعده أخوه محمد السادس (وحيد الدين) وفي عهده كانت الهزيمة الكاملة للدولة في الحرب العالمية الأولى، وإحتل الحلفاء أكثر أجزاء الدولة العثمانية.

-إحتل الإنجليز إستانبول ، ومضيقى البسفور والدردنيل (على طرفى نهر مرمرة) وإحتلت اليونان الأقسام الغربية من شبه جزيرة الأناضول وإحتلت إيطاليا أجزاء من الجنوب وضاعت البلدان العربية، وإحتل الفرنسيون غلطة (وهى ضاحية من ضواحى إستانبول).

-السلطان محمد السادس يضع ثقته فى مصطفى كمال، ويرسله إلى الأناضول لإشعال الثورة ضد قوات الإحتلال حتى يتمكن من مناورة الإنجليز، ولكنه خاب ظنه، لقد أراد السلطان أن يكيد به الإنجليز فكادوه به، فاعتزل السلطان محمد السادس السلطة وتنازل عن الخلافة عام ١٣٤٠هـ/١٩٢١م.

-ضباط الإتحاد والترقى (طلعت باشا وجمال باشا وأنور باشا وعزمى باشا والى بيروت) يقررون مغادرة تركيا إلى الخارج، بعد هزيمة الدولة على أيديهم، وأغتيل طلعت باشا فى برلين، وقتل أنور باشا فى بخارى على يد الروس، وجمال باشا إغتاله الأرمن فى تفليس) وصدق الله القائل: ﴿**ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر**﴾ (القمر: ٥١)، وصدق رسول الله محمد ﷺ: (إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته).

وبعدها برز على الساحة الصف الثانى من زعماء الإتحاد والترقى الماسون، ومن هؤلاء مصطفى كمال..

-السلطان محمد السادس يصدر قرارا بتعيين مصطفى كمال مفتشاً للجيوش العثمانية فى الأناضول، وزوده بصلاحيات واسعة، وبمبلغ ضخم من المال، وعهد إليه بالقيام بالثورة فى الأناضول (ضد قوات الإحتلال) لكى يتمكن السياسيون من المناورة، ولم يكن السلطان يدرك عمالة مصطفى كمال وإتصال الإنجليز، وإنسحابه من أمامهم فى جهة بلاد الشام ليمكنهم من إحتلال فلسطين فى أثناء الحرب العالمية الأولى.

– لجنة الحلفاء العليا فى باريس (الأوروبيون المجرمون) (إنجلترا وفرنسا وإيطاليا واليونان) تنذر الحكومة العثمانية بعدم مقاومة الجيش اليونانى الذى سيقوم باحتلال أزمير فى صيف عام ١٣٣٨هـ/١٩٢٩م.

– الإنزال اليونانى على أرض تركيا يتم فى حماية القوات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، الجنود اليونانيون الصليبيون يطوفون بالشوارع فى تحد سافر مثير للمشاعر العثمانية، ويطلقون النار على المسلمين، ويجبرونهم على خلع طرابيشهم ويدوسونها بالأقدام ويبصقون في وجوه الضباط المسلمين، وينزعون الحجاب عن وجوه النساء المسلمات، بل إنهم أحرقوا الحى التركى وذبحوا المسلمين بوحشية ليصبحوا هم

الأكثرية.

– مصطفى كمال يصل إلى الأناضول ويخطط لإنشاء حكومة فى أنقرة تعمل لإسقاط الخلافة الإسلامية فى إستانبول.

– عقد مؤتمر فى أرضروم وإنتخاب مصطفى كمال رئيساً للمؤتمر، بشرط الدفاع عن البلاد وعن الخلافة، أى أن الذين انتخبوا مصطفى كمال لم يكونوا يدركون عداءه للخلافة وعمالته للإنجليز.

– الإنجليز يدعمون مصطفى كمال فى موقعه الجديد ضد الخليفة العثمانى.

– رئيس وزراء الدولة العثمانية يدرك خطورة ما يقوم به مصطفى كمال، فيرسل إليه يستدعيه إلى إستانبول ولكنه رفض العودة إلى العاصمة.

– إجتماع المجلس النيابى فى إستانبول بقيادة رؤوف بك، وتشكلت وزارة عثمانية بقيادة على رضا باشا.

– مصطفى كمال يسعى إلى إسقاط الوزارة (لخلق حالة عدم إستقرار بالبلاد) ولكن المجلس النيابى خذله، وأعطوا الثقة للوزارة، وهنا تدخل الإنجليز وأسقطت الوزارة وتشكلت أخرى برئاسة صالح باشا.

– الأوروبيون الحلفاء يسيطرون على إستانبول، ويقبضون على رئيس الوزراء السابق سعيد حليم باشا وعلى عدد من النواب من أنصار مصطفى كمال، ويفرضون الرقابة على البريد ووسائل الإعلام. ولهذا استقالت وزارة صالح باشا، وعطل البرلمان، وأعلنت الحكومة العثمانية أن مصطفى كمال متمرد خارج على الدولة العثمانية، وفى هذه الأثناء حرص مصطفى كمال أن يظهر أمام الشعب أنه وطنى مخلص يسعى إلى تحرير البلاد من الإحتلال الأجنبى، ولهذا قاد قواته باتجاه الغرب(الأناضول) ، وحاصر أسكى شهر وانسحب الإنجليز منها دون مقاومة، فدخلها مصطفى كمال ودخل قونية فظهر أمام الناس بمظهر الزعيم المنتصر.

ولم يكتف مصطفى كمال بذلك، بل إنّه أعلن عن إجراء انتخابات جديدة بحيث تكون أنقرة مقراً للمجلس الجديد !! وهذا أمر عجيب، أحد قادة الجيش هو الذى يدعو إلى انتخابات جديدة، واجتماع النواب فى غير العاصمة فى وجود الحكومة المركزية بقيادة السلطان محمد السادس فى إستانبول؟!!

– وتمت الإنتخابات واجتمع المجلس المشكل من أنصار مصطفى كمال، وقرر تشكيل جيش خاص، أى دولة داخل دولة – هل أدركتم دور الزعماء الخونة؟؟ لكن

على كل الخطأ ليس خطأه .. إنما خطأ السلطان الذى لم يعرف نوعية الرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم، وعدم كفاءة الجهاز الذى كان يعتمد عليه فى معرفة الأشخاص الذين يجب أن تسند لهم المناصب الخطيرة والمهمات الصعبة.

– الحكومة العثمانية فى العاصمة إستانبول تسير قوة عسكرية من العاصمة إلى الأناضول من ناحية الغرب، وقوة أخرى من كردستان من ناحية الشرق للقضاء على تمرد مصطفى كمال فى أنقرة، وأعلنت كل الولايات الأناضولية ولاءها لسلطان المسلمين، ولم يتبق إلا أنقرة التى كادت أن تقع فى يد قوات السلطان محمد السادس، وهنا تدخل المجرمون الإنجليز للتشكيك فى وطنية السلطان الحاكم فى إستانبول ودعم العميل مصطفى كمال.

الإنجليز يذيعون نصوص معاهدة سيفر لتصفية الدولة العثمانية التى وافق عليها رئيس الوزراء فريد باشا والسلطان محمد السادس مرغمين لما فيها من إجحاف بحق الدولة العثمانية المهزومة .. وبهذا أظهر الإنجليز قادة الدولة العثمانية أنهم متواطئون مع الأجانب ويفرطون فى مصلحة البلاد، هذه هى نصوص المعاهدة:

– إقامة دولة تركية تقتصر على إستانبول.

– سلخ الولايات العربية من الدولة العثمانية.

– إعطاء الإستقلال لأرمينيا وكذلك كردستان (أى تمزيق أجزاء من جسد الدولة الأم).

– التنازل عن تراقيا وجزر بحر إيجة لليونان (وهذا ليس من صلاحيات السلطان).

– وضع المضائق التركية تحت إشراف دولى.

– تحديد عدد أفراد الجيش التركى وأن يكون تحت توجيه الحلفاء.

– حق الحلفاء (الأوروبيين) فى السيطرة على مالية الدولة التركية.

وكانت إذاعة نصوص المعاهدة ضربة قاصمة للخلافة العثمانية، فثار الأهالى على حكومة فريد باشا، وانطلق صوت العميل مصطفى كمال:

أ– يتهم الحكومة العثمانية (السلطان ورئيس وزرائه) فى إستانبول بالعمالة.

ب– إن كانت الحكومة العثمانية عاجزة عن الدفاع عن البلاد، فإن الشعب فى الأناضول يعرف كيف يدافع عن بلاده.

ج– إذا كانت العاصمة إستانبول تحت الإحتلال الأجنبى فإن الأناضول حرة

ويمكن أن تكون مقراً للدفاع عن البلاد.

والعجيب أن مصطفى كمال كان يظهر حبه وميله للإسلام ويستغل صلته بالسلطان محمد السادس وكذلك الشيخ أحمد السنوسى.

وبدأت الأنظار تتعلق بالزعيم العميل مصطفى كمال فى أنقرة، وكسب الزعيم العميل هذه الجولة:

إنجلترا تدعو إلى مؤتمر فى لندن لإعادة النظر فى معاهدة سيفر؛ تدعو من؟ المفروض الدولة العثمانية فى إستانبول، لكن ما حدث غريب وعجيب!! إنجلترا توجه الدعوة إلى حكومة إستانبول فريد باشا رئيس الوزراء وما أسمته حكومة أنقرة (بقيادة مصطفى كمال) واعترض العميل المجرم على دعوة الحكومتين، لماذا؟ لأنه يجب أن يكون هو ممثلا للدولة العثمانية بأكملها.

المصيبة أن السلطان محمد السادس إستجاب وأمر بتشكيل وزارة جديدة برئاسة توفيق باشا وهو من أعوان مصطفى كمال، وبقيت هذه الوزارة فى الحكم سنتين عاونت فيها مصطفى كمال ليصبح أقوى رجل فى البلاد!! وفى نفس الوقت وافقت الدولة العثمانية على سلخ أزمير وإعطائها استقلالها ذاتياً تحت حكم نصرانى، كما تنازلت الدولة عن باطوم لروسيا.

– وواصل الزعيم العميل جهوده باتجاه الهدف النهائى لإسقاط الخلافة.

– الإنجليز يخططون لمعركة يتم أثناءها ترفيع الزعيم مصطفى كمال ... الإنجليز يدفعون جيوش اليونان للتقدم من ناحية الغرب (الأناضول) وجرى القتال بين الأتراك واليونانيين، وانتصر الأتراك بقيادة مصطفى كمال فى معركة نهر سقاريا المشهورة نتيجة إنسحاب الإنجليز إنسحاباً متفقاً عليه، وبعدها قامت إنجلترا بدعوة حكومتى أنقرة وإستانبول إلى مؤتمر لوزان.

فى هذه الأثناء وقع إنقلاب عسكرى آخر فى إستانبول، وعُزلت حكومة السلطان محمد السادس الذى استقال ورفض أن يكون سلطاناً رمزياً لا شأن له بالخلافة، ونفى إلى جزيرة مالطة.

وجاء الإنجليز بالسلطان عبد المجيد بن عبد العزيز سلطاناً للبلاد عام ١٣٤٠هـ لماذا؟ وقد أصبح الأمر كله فى أيديهم؟ الهدف هو أن يتم إلغاء الخلافة واستسلام الدولة العثمانية فى ظل حكم أحد أحفاد العثمانيين. وقد كان !!!

وفى عهد السلطان عبد المجيد الثانى .. افتتح مؤتمر لوزان بعد تولية السلطان، وقد

كان يمثل تركيا في المؤتمر وفد أنقرة فقط (كمال أتاتورك) ووضع كرزون رئيس الوفد الإنجليزي أربعة شروط للإعتراف باستقلال تركيا:

١- إلغاء الخلافة الإسلامية.

٢- طرد الخليفة من بني عثمان خارج حدود البلاد.

٣- أن تصبح الدولة العثمانية دولة علمانية.

٤- مصادرة أملاك وأموال بني عثمان.

ورفض وفد أنقرة الشروط ورجع إلى البلاد ورفض رئيس الوزراء الشروط ورفض نواب البلاد في الجمعية الوطنية الشروط .. الجميع يرفض ما عدا الزعيم العميل مصطفى كمال.

فاستقالت الوزارة، وقام مصطفى كمال بحل الجمعية الوطنية، وجاءت الجمعية الوطنية لتعلن إعتراضها على مقترحات كرزون في لوزان بل لتمهد لقبولها!!

وقرر الزعيم العميل إعلان الجمهورية، واجتمعت الجمعية الوطنية، وشكل مصطفى كمال الوزارة، وأعلن قيام النظام الجمهوري واختير رئيساً للجمهورية، فعمت الفوضى، وغادر أنقرة عدد من الزعماء إلى إستانبول، والتفوا على الخليفة الذي لا حول له ولا قوة، وقامت الاحتجاجات إلا أن الاغتيالات التي وقعت في صفوف أنصار الخلافة والمخلصين من أبناء هذه الأمة على يد الكماليين (أنصار مصطفى كمال) عاونت في تمرير مخطط الزعيم العميل لأوروبا.

ودعا مصطفى كمال المجلس الوطني لعقد جلسة طارئة، وقدم مرسوماً بإلغاء الخلافة وطرد الخليفة، وفصل الدين عن الدولة وأمر السلطان عبد المجيد بترك البلاد إلى سويسرا، وأرسل عصمت إينونو وزير خارجيته إلى لوزان، وانعقد المؤتمر ووقع وزير الخارجية إينونو قرار التسليم حينما قبل بالشروط التي وضعها كرزون، واعترفت إنجلترا باستقلال تركيا وانسحبت من المضائق المائية وإستانبول.

وصدق الله القائل: **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾** (البقرة: ١٣٠)، **﴿إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون﴾** (الممتحنة: ٢).

وبهذا طويت صفحة الخلافة العثمانية عام ١٣٤١هـ/١٩٢٢ بعد ستة قرون كانت ملء سمع الدنيا وبصرها، وجاء حتفها على يد الخونة الذين يتسمون بأسماء المسلمين وينتسبون إلى الإسلام وأيضاً على يد الأعداء الذين حذر الله منهم الأمة

المسلمة: اليهود والنصارى والمنافقين والذين أشركوا، وصدق الله القائل: ﴿**وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين**﴾

فهل استفدنا من هذا البيان الربانى؟ هل عرفنا أعداءنا الذين يتربصون بنا ولا يعنى ذلك أنهم هم المسئولون عمّا حدث لنا بالدرجة الأولى .. ليس الأمر كذلك إنما نحن المسئولون بالدرجة الأولى، ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**﴾ (الشورى ٣٠) والله علمنا ﴿**وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً**﴾ (آل عمران: ١٢٠) فأين الصبر وأين التقوى فى حياة الأمة المسلمة؟؟ فى مواجة التحديات المعاصرة.

مصادر ومراجع الفصل الرابع

(١) تاريخ الدولة العثمانية ، ا . د . على حسون ، المكتب الإسلامى ، ص٢١٦.

آمل أن ينتبه القارئ الكريم أننا درجنا على منهج فى معالجة تاريخ الدولة العثمانية وهو عدم تقصّى الأحداث تفصيلا فهذا جهد أفاض فيه كثير من العلماء الذين نحسبهم على خير ، ولكن حسبنا أن يبرز هنا قضايا جوهرية وهى : أولاً : تربص الدول الأوروبية (انجلترا وفرنسا والمانيا وإيطاليا وروسيا بالخلافة الإسلامية) لتحقيق أهداف محددة : رّد الأمة المسلمة عن دينها وإغتصاب ديارها وثرواتها ووضع اليد عليها (الإحتلال) .

ثانياً : دور الزعماء الجهلة أو الخونة فى التمكين لأورّبا من تحقيق أهداف مخططاتها التآمرية .

ثالثاً : الجرائم الوحشية التى إرتكبها أبناء أورّبا الصليبية اليهودية ضد العالم الإسلامى .

(٢) وهذا ما حدث فى فلسطين ويحدث الآن فى كثير من يلاد العالم العربى ، المؤسسات الأوروبية تقوم بشراء الأراضى والمؤسسات الصناعية بأسماء أناس من أبناء الأمة (تاريخ الدولة العثمانية ، ص٢٢٥) .

(٣) وقد كان الإنجليز وراء هذه الخديعة . وهو محمد إدريس المهدى السنوسى ولد عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م وقد خلف أباه فى رئاسة جماعة السنوسيين . تولى الحكم بعد عام ١٣٣٥هـ/١٩١٦م .

(٤) ذكر تشرشل وزير الحربية البريطانية فى الحرب العالمية الأولى : « إن قادة الإتحاديين الأتراك طلبوا مساعدة انجلترا فى حرب طرابلس الغرب ضد إيطاليا ، ولكن انجلترا إعتذرت عن ذلك ، وهى التى كانت تراوغ بالتظاهر بإعلان حيادها فى هذه الحرب وأنها لا مطامع استعمارية لها فى الدولة العثمانية» (تاريخ الدولة العثمانية ، ا . د على حسون ص٢٣٥) .

(٥) المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، محمود شاكر، المكتب الإسلامى، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر، محمد الغزالى، المختار الإسلامى، تركستان الشرقية، عيسى يوسف الباتكنى.

(٦) تاريخ الدولة العثمانية ، ص٢٢٩-٢٣٢ .

(٧) من كتاب حاضر العالم الإسلامى تأليف ل . ستودارد ، ترجمة عجاج نويهض تعليقات شكيب أرسلان طبعة دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م، ج٢ ، صفحات ٦٤-١٤٠.

(٨) المقصود بالعرب المسلمين طبعاً ، إذ لا يوجد فى ليبيا غير مسلمين .

(٩) تاريخ الدولة العثمانية ، ج ص ٢٣٢، ٢٣٣، التاريخ الإسلامى، العهد العثمانى، محمود شاكر، المكتب الإسلامى، دمشق، صفحة ٢١٥.

(١٠) الطريق إلى بيت المقدس ، د. جمال عبد الهادى ٤ ٢ ، ص : ٣٧-٥٥ .

(١١) تاريخ الدولة العثمانية ، ص : ٢٤٠-٢٤٥ .

(١٢) تاريخ الدولة العثمانية، صفحة ٢٧٢ وما بعدها؛ العهد العثمانى، ٢٢٧-١٣٤.

الفصل الخامس

شعب مصر يبكى الخلافة العثمانية

عرض الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين -رحمه الله-، لآراء بعض الزعماء والعلماء والشعراء فى الدولة العثمانية فى أواخر عهدها، فى كتابه الاتجاهات الوطنية، كما أماط اللثام عن دور الدول الأوروبية المعاصرة فى هدم الخلافة العثمانية واحتلال العالم الإسلامى بعد تمزيقه، وقد وصل الكاتب -رحمه الله- إلى جملة حقائق منها:

أولا: أن الدولة العثمانية كانت بفضل الله السياج الحامى للعالم الإسلامى فى مواجهة أعدائه، وأن سقوطها عرّض السلام العالمى للخطر.

ثانيا: إن أوروبا هى وراء ما يسمى بالفتن الطائفية فى ديار الإسلام.

ثالثًا: إنجلترا هى التى كانت تثير الأقليات النصرانية مثل الأرمن الأرثوذوكس ضد الدولة العثمانية لتدميرها من الداخل.

رابعًا: أن أوروبا كانت تكره السلطان عبد الحميد الثانى لأنه وجّه عنايته لإفشال مخططاتها العدوانية على العالم الإسلامى.

خامساً: إن فى بقاء الدولة العثمانية سلامة أمم الغرب والشرق. وأن زوال الدولة العثمانية من الوجود سوف يؤدى إلى أن دماء المسلمين والنصارى سوف تجرى كالأنهار والبحار فى كل واد.

وسنعرض لآرائه نصًا من كتابه مع التعليق عليها.

الزعماء والشعراء والكتاب يبكون الدولة العثمانية

أولا: شهادة الزعيم مصطفى كامل:

مصطفى كامل يقول فى مقدمة كتابه «المسألة الشرقية» ١٨٩٨م : «إنى أضرع إلى الله فاطر السموات والأرض من فؤاد مخلص ... أن يحفظ للدولة العثمانية حامى حماها وللإسلام إمامه وناصره جلالة السلطان .. والخليفة .. عبد الحميد الثانى» .

المسألة الشرقية هى مسألة النزاع بين النصرانية والإسلام:

ويقول : «اتفق الكتاب والسياسيون أن المسألة الشرقية هى مسألة النزاع المستمر بين النصرانية والإسلام ، أى مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الإسلام وبين الدول المسيحية (١) .

أوربا وبخاصة انجلترا وراء الفتن الطائفية فى ديار الإسلام:

وتحدث عن دور إنجلترا وإثارتها للأقليات المسيحية فى الدولة العثمانية لتدميرها فقال : «فمسألة الدين هى الآلة القوية التى يستعملها أصحاب الدسائس والغايات ، وضرب مثلا بالأرمن البروتستانت الذين كانوا يثورون ويدبرون المكائد ضد الدولة العثمانية ، وأولئك الذين يثورون بدسائس أعداء الدولة إنما يثورون ضد أنفسهم ويقضون على حياتهم وسعادتهم بعبثهم وجنونهم واتباعهم لأوامر أعداء الدولة المحركة لهم، فالذين ماتوا من الأرمن فى الحوادث الأرمنية إنما ماتوا فريسة للدسائس الإنجليزية، بل والذين ماتوا من جنود اليونان فى «تساليا» ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية نفسها».

« إن أوربا تكره السلطان عبد الحميد الثانى بسبب تصديه لمؤامراتهم ضد العالم الإسلامى».

ويقول فى تمجيد السلطان عبد الحميد : «إنّ أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان ووجه عنايته لإبطال مساعى الدخلاء ويطهر الدولة من وجودهم هو جلالة السلطان الحالى ، فقد تعلم من حرب سنة ١٢٩٤هـ (١٨٧٧) وما جرى فيها أن الدخلاء بلية البلايا فى الدولة ومصيبة المصائب ، فعمل بحكمته على تبديد قوتهم وتربية الرجال الذين يرفعون شأن الدولة ويعملون لإعلاء قدرها(٢) .

بقاء الخلافة العثمانية ضرورى لسلامة النصارى والمسلمين :

ويقول فى ضرورة المحافظة على سلامة الدولة العثمانية وتصوير قوة نفوذها بين الأمم الإسلامية : «ولكن الحقيقة هى أن بقاء الدولة العلية ضرورى للنوع البشرى وأن فى بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب والشرق ، وقد أحس الكثيرون من رجال السياسة ومن رجال الأقلام أن بقاء الدولة العثمانية أمر لازم للتوازن العام ، وأن زوالها (لا قدر الله) يكون مجلبة للأخطار أكبر الأخطار ، ومشعلة لنيران يمتد لهيبها بالأرض شرقها وغربها ، شمالها وجنوبها ، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعية للثورة عامة بين المسلمين وحرب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية ، وأن الذين يدعون العمل لخير النصرانية فى الشرق يعلمون قبل كل إنسان أن تقسيم الدولة العلية أو حلها يكون الضربة القاضية على مسيحيى الشرق عموماً قبل مسلميه ، فقد أجمع العقلاء والبصيرون بعواقب الأمور على أن دولة آل عثمان لا تزول من الوجود إلا ودماء المسلمين والمسيحيين تجرى كالأنهار والبحار فى كل واد (٣).

انجلترا ترى بقاء الدولة العثمانية عقبة فى سبيل احتلال مصر :

ويقول فى سعى إنجلترا لهدم الخلافة العثمانية وتعضيدهم لكل خارج عليها : «وقد علمت إنكلترا أن احتلالها لمصر ، كان ولا يزال ما دام قائما ، سببا للعداوة بينها وبين الدولة العلية ، وأن الدولة العثمانية لا تقبل مطلقاً الاتفاق مع إنكلترا على بقائها فى مصر ... ولذلك رأت إنكلترا أن بقاء السلطة العثمانية يكون عقبة أبدية فى طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات فى سبيل امتلاكها مصر ، وأن خير وسيلة تضمن لها البقاء فى مصر ووضع يدها على وادى النيل هى هدم السلطنة العثمانية ونقل الخلافة الإسلامية إلى أيدى رجل يكون تحت وصاية الإنكليز ، وبمثابة آلة فى أيديهم .. ولذلك أخرج ساسة بريطانيا مشروع الخلافة العربية ، مؤملين بها استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصيان فى وجه الدولة العلية (٤).

«ولذلك أيضاً كنت ترى الانكليز ينشرون فى جرائدهم أيام الحوادث الأرمنية، مشروع تقسم الدولة العلية -حماها الله- جاعلين لأنفسهم من الأملاك المحروسة مصر وبلاد العرب أى السلطة العامة على المسلمين»(٥).

«والذى يبغض الانكليز على الخصوص جلالة السلطان الحالى هو ميله الشديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الإسلامية ... ومن ذلك يفهم القارئ سبب اهتمام الانكليز بالأفراد القليلين الذين قاموا من المسلمين ضد جلالة السلطان الأعظم

وسبب مساعدتهم لهم بكل ما فى وسعهم ، فإن مشروع جعل الخلافة الإسلامية تحت وصاية الإنكليز وحمايتهم هو مشروع ابتكره الكثيرون من سواسهم منذ عهد بعيد» (٦).

أهمية وحدة العالم الإسلامى وجهاد الأعداء :

ويختتم مصطفى كامل الفصل الأول من كتابه : بالدعوة إلى الالتفاف حول الراية العثمانية بقوله : «أما واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة إنكلترا للدولة العلية فبين لا ينكره إلا الخونة والخوارج والدخلاء ، فواجب العثمانيين أن يجتمعوا حول راية السلطة السنية وأن يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم ولو تفانى الكثيرون منهم فى هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لا عبيداً، وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة. وأن يفتدوها بالأموال والأرواح، ففى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم، وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية(٧).

وفى لقاء فى لندن سنة ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) يسأل الأميرلاى بارنج «شقيق كرومر»(٨) مصطفى كامل عن جنسيته ، فيجيبه بقوله : «مصرى عثمانى» ثم يجيب على تعجبه لجمعه بين الجنسيتين بقوله : «ليس فى الأمر جنسيتان ، بل فى الحقيقة واحدة لأن مصر بلد تابع للدولة العلية» ولكنه يقول فى خطاب له فى الاسكندرية سنة ١٨٩٧م (١٣١٥هـ) : «إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هى مظاهرة قوية ضد الاحتلال الإنجليزى ، واشتراك الأمة للاكتتاب للجيش العثمانى هو اقتراع عام ضد الإنجليز» .

ثانياً: شهادة الزعيم محمد فريد (٩) :

وكان «محمد فريد» خليفة «مصطفى كامل» متفقاً معه فى أن مصلحة مصر فى ذلك الوقت يدعو إلى مؤازرتها لتركيا ، لأن ذلك هو السبيل الأمثل إلى مناهضة المستعمرين ، يدل على ذلك اهتمامه بتأليف كتاب عن تاريخ الدولة العلية العثمانية يقول فى مقدمته :

«على أن المُلْك العثمانى قد لمَّ من شعث الولايات الإسلامية وقطع من تقاطعها ما ردّ على السيطرة الإسلامية كل السيطرة الشرعية ، على أثر ذلك قامت قيامة التعصب الدينى فى الممالك الأوروبية ، واتفقت على اختلافها ، وتوحدت على تعددها ، وانسابت على الملك العثمانى ، وأخذت تحاربه مثنى وثلاث ورباع لتقويض عرشه ورده إلى عهده الأول .. فلما كانت هذه الدولة قد وقفت نفسها للذب عن حرية الشرق والذود عن حوضه ، ولما كانت هى الحامية لبيضة الدين الإسلامى زمناً طويلا ... رأيت

من الواجب على خدمة للحقيقة ونفعاً لأبناء البلاد ... أن أدون هذا التاريخ .. راجيا منه تعالى أن يوفقنى لخدمة الوطن ونفع بنيه وأن يديم ويؤكد ما بين مصرنا والدولة العلية من التابعية».

ومما يدل على حسن تقبل الرأى العام لهذا الكتاب أنه طبع للمرة الأولى سنة ١٣١١هـ (١٨٩٣م) ، فلم يمض على طبعه ثلاثة أعوام حتى أعيد طبعه سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) مع قلة عدد القراء فى ذلك الوقت .

ثالثاً: شهادة مندوب الاحتلال الإنجليزى فى مصر (كرومر):

كرومر(١٠) يقر بسعة انتشار فكرة الرابطة الإسلامية بين المصريين ، وأن الخلافة العثمانية تتمتع بنفوذ واسع فى مصر .

مصر إسلامية وتؤمن بوحدة العالم الإسلامى :

وقد صور كرومر فى كتابه: «مصر الحديثة» Modern Egypt ، سعة انتشار فكرة الرابطة الإسلامية بين المصريين، واعترف بما تتمتع به الخلافة التركية من نفوذ واسع فى مصر (١١)، فتكلم عن الحجاب الكثيف من التعصب الدينى(١٢) الذى يقوم بين الانجليز من الراغبين فى إصلاح مصر –حسب زعمه– وبين المصريين، كما تكلم عن تمسك المصريين بعقيدتهم الإسلامية المتغلبة بمعناها الإقليمى(١٣)، والتى تؤمن بالوحدة الكاملة بين المسلمين(١٤) فى سائر أقطار الأرض».

وتكلم فى موضع آخر من كتابه عن هيبة المصريين المركوزة فى أعماق نفوسهم من الترك المستعمرين (يقصد العثمانيين) ، وعن عطفهم على الخليفة التركى كلما وقع فى محفة.

رابعاً: شهادة الشعراء.

نزعة إسلامية واضحة فى قصائد الشعراء:

ليس بين الشعراء المعاصرين وقتذاك ، على اختلاف وتباين نزعاتهم ، من يخلو ديوانه من شعر فى مدح الخليفة العثمانى والإشادة بفضله على المسلمين وحرصه على إعلاء كلمة الدين .

هؤلاء الشعراء يرون أن الخليفة هو الجامع لشمل المسلمين ، وأنه حين يحارب إنّما يحارب دفاعاً عن الإسلامى وتمسكا بإعلاء كلمته بين الدول التى تتربص به ، وهم يدعون إلى اتحاد المسلمين فى ظل راية الخلافة ، محذرين من الإصغاء إلى دعوة

التفرقة التى لا تصيب الأمم الإسلامية جميعاً إلا بالشر.

(أ) أحمد شوقى :

ها هو شوقى (١٥) يرى أن المسلمين والإسلام رضوا فرع عثمان ، خلفاء وأئمة يقومون على أمر دولة الخلافة :

رضى المسلمون والإسلام	فرع عثمان دم فداك الدوام
إيه عبد الحميد جلَّ زمانه	أنت فيه خَليفةَ وإمام
عمر أنت ، بيد أنك ظل	للبرايا وعصمة وسلام

(ب) حافظ إبراهيم :

ويمتدح حافظ إبراهيم فى قصيدة له آل عثمان الذين ردوا على الإسلام شبابه ، وحموا عرينه ، بعد أن مكن الله لدولتهم فى الأرض :

لقد مكن الرحمن فى الأرض دولة	لعثمان لا تغفو ولا تتشعب
بناها فظنتها الدرارى(١٦) منزلا	لبدر الدجى تبنى وللسعد تنصب
وقام رجال بالأمانة بعده	فزادوا على ذاك البناءِ وطنّبوا
وردوا على الإسلام عهد شبابه	ومدوا له جاها يرجى ويرهب
أسود على البسفور تحمى عرينها	وترعى نيام الشرق والغرب يرقب (١٧)

الخلاصة : يقول ربنا رب العالمين : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا**﴾. والشاعر يقرر هنا أن الرحمن هو الذى مكن للدولة الإسلامية على عهد آل عثمان فى الأرض ، وأن هذه الدولة قد اتسعت رقعتها ، وأن الله قد جدد بهم شباب الإسلام ، وفى عهدهم أمن الناس على عقائدهم ونسلهم وديارهم وأموالهم ومقدساتهم . والسبب هو أن الخلافة السياج الحامى لأمة الإسلام بعد الله سبحانه وتعالى .

(ج) محرم :

ويقول محرم :

يا آل عثمان من ترك ومن عرب	وأى شعب يساوى الترك والعرب

صونوا الهلال وزيدوا مجده علماً ... لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهبا
أبو الخلائف ذو النورين (١) مورثنا ... ملك الهلال وهذا المجد والحسبا
يا تاج عثمان أن اليوم موعدنا ... فجدد العهد والقَ الحبَّ والرَّغَبا
لو ضاع عهدك أو حام الرجاء بنا ... على سواك لقينا الحينَ والعطبا

ويقول :

لولا بنو عثمان والسُّنَن الذى ... شرعوا لما وضح السبيل الأقوم
سطعوا بآفاق الخلافة فانجلى ... عنها من الحدثان ليل مظلم
فهم ولاة أمورنا وكفاتها ... وهم حماة ثغورها ، وهم هم
تعتز آنًا بالسلام وتارة ... بالحرب يزخر فى نواحيها الدم
فبتلك يكفى الملك ذا شحنائه ... ويصان من كيد الخصوم ويعصم

ويقول :

إنا بنى عثمان أعلام الورى ... والأرض تشرف فوقها الأعلام
إنا السنام إذا الأنام تفاخرت ... والناس فيهم مَنسِم(١٩) وسنام
إنَّا يسوس أمورَنا ويقيمها ... ملك بأمر إلهه قوَّام
رحب الذراع كفى الذى نعنى به ... رأى له فى المشكلات حسام
عبد الحميد أتاح فى أيامه ... للملك ما ذهبت به الأيام(٢٠)
لولا حزَامته وشدة بأسه ... ومضاؤه لتضعضع الإسلام
ما زال يحمى حوضه مذ جاءه ... وكذاك يحمى غيلة الضرغام
دم يا أمير المؤمنين فما لمن ... عاداك بين العالمين دوام
لا زلت يا ركن الخلافة شامخاً ... تعنوا لك الأعراب والعجم

الخلاصة : إذن الأمة كانت تعتبر الدولة العثمانية دولة خلافة إسلامية ، وأن السلطان عبد الحميد الثانى ركن من أركانها (٢١).

(د) نسيم :

ويقول نسيم فى قصيدة له فى تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد الفطر :

أقمت عرشك بين الحق والسدد ... فزاده الله تثبيتاً إلى الأبد

فكيف نفزع فى الدنيا لطارئة ... وأنت تحمى زمار الفازع الخضد (٤)

خليفة الله يا ابن الغر من نجب ... لله درك يوم الروع من عضد

جاهدت فى الملك تحميه وتحفظه ... جهاد طه مع الأنصار فى أحد

والسيف يكتب آى الفتح محكمة ... على البلاد بنفس من دم جسد

وقد أعدت إلى الإسلام نضرته ... حتى زهى بك واستذرى إلى سند

الخلاصة : إن دولة الخلافة تقوم على الحق والسداد ، ومن أجل ذلك يثبت الله بنيانها.

ويقول فى قصيدة أخرى :

فلا برحت لهذا الدين تكلؤه ... حتى يعود إلى أيامه الأول

(هـ) الشعراء يفزعون للهجمة الأوربية على دولة الخلافة العثمانية:

وحينما تكالبت الدول الصليبية على دولة الخلافة ، وقامت باغتصاب أجزاء من الوطن الإسلامى، قام الشعراء بدورهم . والشعراء المعاصرون فى هذه الحقبة يعلقون على تركيا آمالا جساماً فهم يعلنون ولاءهم لخليفة المسلمين فى شتى المناسبات شاكين إليه ما نابهم من ضر وما نزل بهم من خطب ، راجين تدخله لإنقاذهم ، بل إنهم ليرون ذلك واجباً على خليفة المسلمين الذى نيط بعنقه رعاية شؤونهم وحياطة دولهم ، يعاتبونه وقد يقسون فى العتاب ، أن تخلف عنه.

يقول شوقى :

عالِيَ الباب ، هُزَّ بابُكَ منا ... فسعينا وفى النفوس مرام (٢٣)

ويقول

نستميحُ الإمامَ نَصْرا لمصر ... مثلما ينصر الحسامَ الحسامُ (٢٤)

فلمصر – وأنت بالحبِّ أدرى – بك ياَ حامِيَ الحمى استعصام
يشهد الله للنفوس بهذا وكفاها أن يشهد العلاَّم
وعدوها لنا وعوداً كباراً هل رأيت القرى علاها الجَهَام(٢٥)؟

ويقول حافظ فى قصيدة له : سنة ١٣٢٨هـ(١٩١٠م) ويبكى مجد الترك والعرب ويصور ما يلقى المصريون فى ظل الاحتلال من هوان ، عاتبا على الترك إهمالهم أمر مصر، وتركها لقمة سائغة فى يد المستعمرين ...

يا آل عثمان ما هذا الجفاء لنا ونحن فى الله اخوانٌ وفى الكتب
تركتمونا لأقوام تخالفنا فى الدين والفضل والأخلاق والأدب(١)

ولكن غاب عن ذهن الشعراء أن الخلافة قد ولّى عصرها وانتهى دورها المناط بها فى حماية العالم الإسلامى ، بعد الانقلاب العسكرى الذى قاده تنظيم الاتحاد والترقى التركى الماسونى ، وعزل السلطان عبد الحميد الثانى ١٣٢٧هـ(١٩٠٩)م ولم يكن يدر بخلد الشعراء والكتاب أن هؤلاء الانقلابيين إنما قاموا بذلك لتدمير دولة الخلافة ، وقد إتضح ذلك جليا ، حينما فصلوا بين السلطنة والخلافة وألغوا الخلافة (٢) عام ١٣٤٣هـ(١٩٢٤م) .

ويقول الكاشف فى قصيدة له فى عيد جلوس الخديوى عباس سنة١٣٢١هـ(١٩٠٣م) ، مشيرا إلى سعى ممدوحه فى توكيد صلات الود بين مصر وتركيا ، مبينا نفع هذه السياسة فى القضية المصرية :

إن اتصالك بالخليفة ضامن ردّ المغير مروعا مغلوباً
والحجة البيضاء فى يدك التى فتحت مجالا للجهاد رحيبا

وذلك يؤكد أن الشعب كان يرى –وهو الحق– أن وحدة العالم الإسلامى فريضة ، وأن ارتباط مصر بدولة الخلافة كفيل بتضافر الجهود لإخراج الانجليز من مصر وتحرير البلاد .

ويقول فى قصيدة فى حرب طرابلس سنة١٣٣٠هـ(١٩١١م) ، يحض فيها المصريين على التمسك بعرى العثمانية ، داعيا عباس إلى العودة إلى أحضان الخلافة بعد ما كان من جفاء ...والكاشف هنا لم يكن يدرك أن تركيا عام ١٣٢٦هـ ، فى ظل حكم العسكريين لم تكن تعمل من أجل الخلافة أو وحدة العالم الإسلامى وردع المعتدين ، إنما كانت تنفذ مخطط الأعداء ، كما أن حكام مصر كانوا لا يملكون من أمر أنفسهم أو أمرهم شيئا ، إنما كانو أداة فى يد الانجليز لتنفيذ مخططاتهم ، واستمرار

قبضتهم على بلادنا :

إن الذى جعل الخلافة فيكم ... جعل المودة والمحبة فينا
إن ائتلاف قلوبكم وقلوبنايا آل مصر ... ليمدُّ أيديكم إلى أيدينا
وفى الحوادث عبرة ... فتصفحوها اليوم معتبرينا
فدعوا القطيعة للخليفة علكم ... بعد الوداد إليهم ناجونا
ما كان من حرج على مصر إذا ... جرّبتم بعد الجفاء اللينا

ويقول فى قصيدة يهنئه فيها بمناسبة عودته من دار الخلافة بعد حادثة الحدود سنة ١٣٢٤هـ(١٩٠٦م) ، مستبشرا بوصل ما انقطع من حسن الصلات بالسلطان عبد الحميد ، مفندا أقوال الذين زعموا أن الاستعمار الانجليزى العادل خير من عودة مصر إلى أحضان الحكم التركى الظالم ، مهاجماً الإنجليز :

هل تستغيث بضيفك المملول(٢٨) ... من أهليك والمولى الأعزُّ قبيلا
متباينون هم ونحن شرائعاً ... وطبائعا ومنازعا وأصولا

ويقول ردا على الذين يزعمون أنه بدعوته إلى الاتفاق مع تركيا إنّما يريد أن يستبدل استعمارا باستعمار ، وأن تركيا قد لا تستطيع أن تمنع حليفتها ألمانيا من احتلال مصر بعد طرد الإنجليز ، وذلك فى قصيدة له فى عيد جلوس الخديوى عباس :

ولأى ذنب صدّ عنى معشرى ... يوم الحساب وخاننى إخوانى
لم أدر من أغضبته وأثرته ... قومى ؟ أم الخصم الذى أعيانى
أوكلما سمعوا بمصر مناديا ... قالوا أجير الترك والألمان؟
قومان متحدان يومهما على ... خصميهما وغدا سيختصمان
إن يرضيا - ومن المحال رضاهما ... دفْع المقيم ، فمن لنا بضمان؟
هل نبدلَنّ مسيطراً بمسيطر ... ونفر من نهم إلى غرثان

ويجيب الشاعر على دعواهم هذه بقوله :

ماذا ينال الترك من مصر إذا ... سلمَتْ وساورها مُغيرٌ ثانى
أنقول .. غير صحيحة دعواكم ... فينا وإن شقّت على الآذان؟

الشعراء يبينون أن أوربا هى التى تثير الفتن الطائفية فى بلاد المسلمين متسترة بستار الدين (٢٩):

وكان الشعراء يؤيدون ما ذهب إليه كثرة المصريين من أن الدول الأوروبية حينما تتذرع بالدين فى طلب حماية الأقليات المسيحية فى البلقان ، فتثير فيها الفتن التى لا تنقطع ، إنما تفعل ذلك طمعا فى اقتسام الإمبراطورية العثمانية ، فهم يخفون مطامعهم السياسية تحت ستار الدين »...

«يقول الكاشف ، فى قصيدة له فى حرب البقان سنة ١٣٣٥هـ(١٩١٣م) ، مشيرا إلى ما ارتكبت فيها أمم البلقان النصرانية من جرائم بشعة فى التنكيل بجيرانهم من المسلمين:

صليبيةٌ يا قوم أم عنصريةٌ ... حروبكم ؟ والدِّينُ هذا أم الشِّرْكُ ؟
وجيرانكم أعداؤكم أم حُماتكم ؟ ... وأعداء عيسى المسلمون أم الترك؟
فهل كان عيسى يطلب الثأر بالخنا ... وهل كان من أخلاقه البغى والفتك؟
أقر بأضغان النفوس ملوككم ... ومن كان فى شك فقد ذهب الشك (٣٠)

«بل ها هو الكاشف فى قصيدة له يهاجم فيها المتمردين على الخلافة من أهل الحجاز وأهل اليمن ممن يدعون إلى الخلافة العربية ، ويقول : إن تعاليم الإسلام سوت بين المسلمين ، ولم تختص بخلافتهم أمة دون أمة ، فأحقهم بها أقدرهم على القيام بحقها والنهوض بأعبائها (٣١):

ما اختص أحمد بالخلافة أمةً ... علْماً بأن الدائرات تدور
أولى بها من صانها من بعد ما ... عبثت مقادير بها وعصور
وجلا السماء السيفُ وهى دجى كما ... ملأ السرير الأرض وهى تمور
شقيت بما تتوهم الأعداء من ... هذا التراث وإنه لعسير

ويقول فى قصيدة أخرى هنأ بها الخديوى عباس فى عودته من الأقطار الحجازية حاجا فى سنة ١٣٢٨هـ(١٩١٠م) :

يا ناصر الإسلام كيف مكانه ... من عرْب تلك البيد وهو العادل ؟
أينازعون على الخلافة قادة ... لولاهم غال الخلافة غائل ؟
الله قدَّرها لهم وأعزهم ... ما دام فيهم قانت ومقاتل
فليسكن العرب الكرام اليهم ... وليربأنَّ بنفسه المتطاول
هل يفتديها والخطوب جلائل ... من لم يصنها والخطوب قلائل

وكان الشعراء يثورون لكل ما يمس شعبا إسلاميا أينما كان ، ويرتفع صوتهم فى كل نازلة تلم بموطن الخلافة (٣٢).

ينتصر الترك فى حروبهم مع اليونان سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) ، فيرتفع صوت شوقى بملحمته الحماسية الرائعة التى تفيض قوة ، والتى جاوزت مائتين وخمسين بيتا:

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب	وينصر دين الله أيان تضرب

وفى نفس القصيدة يشيد شوقى يشيد بها بانتصار الترك الذين أعلوا راية الإسلام وصانوا خلافته ، فارتفعت رؤوس المسلمين وكانوا من قبلها ينكسونها خجلا :

رفعنا إلى النجم الرؤوس بنصركم	وكنا بحكم الحادثات نصوب
ومن كان منسوبا إلى دولة القنا	فليس الى شىء سوى العز ينسب(٣٣)

وحينما ألغى عبد الحميد الدستور الذى أصدره كارها ، بعد حملة صحفية شنعت بزعماء الاتحاديين وبينت فساد دينهم ، ويلجأ زعماء الاتحاديين فى الجيش إلى العنف فيقتحمون الآستانة ويحاصرون يلدز ، ويشتبكون مع رجال عبد الحميد فى معركة كبيرة تنتهى بالتسليم ، ثم يقبضون على أنصاره ويعدمون منهم عددا كبيرا يزيد على الألف ، وتجتمع الجمعية العمومية ، وكان الاتحاديون هم المسيطرون عليها ، فتقرر عزل عبد الحميد ، وتولية السلطان محمد رشاد فى ٢٧ إبريل سنة ١٩٠٩م(١٣٢٧هـ) ، وعند ذاك ترتفع أصوات الشعراء فى مصر ، بين مشفق على عبد الحميد ، يرثى له فى بلواه وعاتب عليه سوء سياسته التى انتهت به إلى هذا المصير ، وشامت به يشنع بما لقى خصومه على يديه من نكال .

سل يلدزاً ذات القصور	هل جاءها نبأ البدور
شيخ الملوك وإن تضع	ضع فى الفؤاد وفى الضمير
نستغفر المولى له	والله يعفو عن كثير(٣٤)

أما الشاعر محرم ، فالوفاء يغلب عليه فى قصيدته ، وهو يرى الناس الذين يتزلفون إلى عبد الحميد بالأمس ولا يرونه إلا خيرا خالصاً يأكلون لحمه اليوم ولا يرونه إلا شرا صرفا ، يدافع عن عبد الحميد فيقول (٣٥):

أرى الناس من يقعد به الدهر ينقموا	عليه وإن كانت قليلا معايبه
أنطريه قهاراً ونؤذيه مرهقاً	كفى الليث شرا أن تفل مخالبه
ألا راحم ؟هل من شفيع؟ أما كفى؟	أكل بنى الدنيا عدو يغاضبه ؟
أكان يريد السوء بالملك ؟ أم يرى	مسرته فى أن ترن نوادبه ؟

أكل مـــآتيـــه ذنوب ؟ أكلّه عيوب ؟ ألا من منصف إذ نحاسبه؟
أكل ذوى التيـجان بالعدل قـائم أم منهـم من لا تعد مـــشـــالبه ؟
أليس الأولى غشْوة أجدر بالأذى ؟ وأولى الورى بالبشر من هو جالبه(٣٦)

وتغير إيطاليا على طرابلس سنة ١٣٣٠هـ(١٩١١م) ، فتشتبك فى حرب مع تركيا التى استنجدت بالدول الأوروبية ، فلم تجد منها إلا فتورا وتتألف فى مصر اللجان ، وتقام الأسواق الخيرية لجمع التبرعات وإرسال البعوث الطبية ، وينشئ الشيخ على يوسف جمعية الهلال الأحمر فى (١٣٣٠هـ) ٧نوفمبر سنة ١٩١١م ، ويتطوع فى الحرب كثير من المصريين بدافع من الحمية الإسلامية ، رغم معارضة الإنجليز ، وترتفع أصوات الكتاب والشعراء ، تثير الحمية فى النفوس، فيلقى شوقى قصيدة فى حفل جماعة الهلال الأحمر يحث فيها الشعوب(٣٧) الإسلامية التى تجمعها الرابطة العثمانية على التعاون والإتحاد فيقول:

يا قـوم عـثـمـان والدنيـا مُداوَلَةٌ تعـاونوا بينكم يا قـوم عـثـمـانا
كونوا الجدار الذى يقْوى الجدار به فـالله قـد جـعل الإسـلام بنيـانا
البرُّ من شعب الإيمان أفـضلهـا لا يقـــبل اللـه دون البِر إيمـاناً
هَل ترحـمـون لعل الله يرحـمكم بالبـيـد أهلا وبالصـحـراء جيـرانا
فى ذمــــة اللـه أوفَى ذمّة نفَر على طرابلُس يقـضون شـجـعـانا

ويقول حافظ فى قصيدته :

طَمَعٌ ألقى على الغـرب اللثـامـا فـاسـتـفق يا شرق واحذر أن تناما

يستثير فيها حمية المسلمين بتصوير ما ارتكبت الجيوش الإيطالية من جرائم وما استحلت من محارم فيقول :

كـــبلوهـم ، قـــتلوهـم ، مَثلوا بذوات الخدور ، طاحوا باليتامى
ذبحـــوا الأشـيـــاخ والزّمنى ولم يرحـمـوا طفـلا ولم يبـقـوا غلامـا
أحـرقـوا الدور اسـتـحلوا كل مـا حرِّمت لاهاىَ فى العهـد احتراما
باركَ المطران فى أعـــمـــالهـم فَسلوه .. باركَ القـوم عـلامـا ؟
أبهــــذا جـــاءهم إنجـــيلهـم آمـراً يلقى على الأرض سـلامـا

وينشئ محرم(٣٨) ثمانى قصائد فى مناسبات مختلفة فى هذا الغزو الإيطالى الصليبى لطرابلس الغرب ، تفيض بالغيرة على الإسلام واستنهاض الهمم للذود عن

حياضه ومدافعة العدو ، يقول فى إحداها :

رويدا بنى رومـا فللحـرب فـتـيـة تهيج الظُباَ أطرابهم واللهاذم (٣٩)

أولئك أبطال الخـلافـة تحـتـمي بأسيافـهـا إن داهمـتـهـا العظائم

هم المانعــوها أنْ يُقــسّم فيئـهـا وان تستـبى بيـضـاتهـا والمحـارم

أنذعن للبـاغى ونعطيـه حكمه وفى الترك مقدام وفى العرب حازم

ويقول الكاشف :

المؤمنون إليك مـسـتـبـقـونا لذمـارهم وديارهم حـامــونا

فـاحـشـد كـتـائبك التى أعـددتهـا للحق أبلج والرجـاء مـتـيـنا

ويذيع عبد المطلب (٤٠) قصيدتين ، حين وردت الأنباء بهجوم الجيوش الإيطالية على طرابلس ، فجاشت نفسه حزنا على أهلها فقال :

دعا صارخ الإسلام يالبنى الهدى أغـار العـدا أين الحُسَامُ المشَطَّب؟

كـأنى به يدعوا الخلافة مـسـمـعا كـأنى به فى المسلمين يثـوب

ويعجب للبابا إذ يبارك الجيوش الإيطالية متسائلا : أين هذا من تعاليم المسيح؟ ويسخر منهم قائلا : إن كنتم راغبين حقا فى الجنة التى وعدكم البابا فنحن خليقون أن نقربكم منها :

إذا وقف البـابا يبـارك جندكـم فـمـا كل بابا للمـسـيح مُقَرّبُ

سلوه.. أفى الإنجـيل للحـرب آية؟ إذا كان فى إنجيله ليس يكذب

لكـم جنة البـابا مـآباً ، فـإنما مـفـتـاحـهـا فى أرض برقة تطلب

سلوا جنة البـابا بماذا تزينت لتلقى الأولى فى لجة البحر غُيّبوا

هلمـوا نقـربكم إليـهـا فـإنما صـوارمنا تدنى لهـا وتقـرب

وهو يعجب فيها لسكوت الدول الأوروبية (٤١) عن عدوان إيطاليا :

وأهل الغـرب فى لعب ولهـو على مـا بينهـم يتـغـامـزونا

دعونا المقـسطين فـمـا وجدنا واشـهـدنا الملوك فـأنكرونا

وهـمـنـا ، حين خلـنـاهـم عدولا بما شـاء الهـوى ، لا يحكمـونا

بغـت رومـا فلم نسـمع نكيرا ولو شـاءوا سـمـعنا المنكرينا

ويندد شوقى(٤٢) بالذين استغلوا الدين فى الانتقام من المسلمين الآمنين والتنكيل

بالأبرياء من المدنيين ، فارتكبوا باسم المسيحية أبشع الآثام ، والمسيحية منهم براء ، فما كان المسيح عليه السلام سفاكا للدماء ، ولا كان داعيا لإباحة الحرمات ، وإنما كانت دعوته رحمة ومحبة وسلاما :

أخذ المدائن والقرى بخناقها ... جيش من المتحالفين لُهَام (٤٣)
غطت به الأرض الفضاء وجوهها ... وكست مناكبها به الآكام
تمشي المناكر بين أيدى خيلة ... أنّى مشى ، والبغى والاجرام
ويحثه باسم الكتاب أقسّة ... نشطوا لما هو فى الكتاب حرام
ومسيطرون على الممالك سخّرت ... لهم الشعوب كأنها أنعام
من كل جزّار يروم الصدر في ... نادى الملوك وجده غنام(٤٤)
سكينة ، ويمينة ، وحزامة ... والصولجان ، جميعها آثام
عيسى !سبيلك رحمة ومحبة ... فى العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ ... هان الضعاف عليه والأيتام
يا حامل الآلام عن هذا الورى ... كثرت عليه باسمك الآلام
أنت الذى جعل العباد جميعهم ... رحماً وباسمك تقطع الأرحام
واليوم يهتف بالصليب عصائب ... هم للإله وروحه ظلام
خلطوا صليبك والخناجر والمدى ... كلٌ اداة للأذى وحمام (٤٥)

ثم يقدم صورا من الجرائم المنكرة التى دفع إليها التعصب الذميم الذى يبرأ منه كل دين فيقول (٤٦) :

كم مرضَع فِي حجر نعمته غدا ... وله على حد السيوف فطام
وصبيّة هتكت خميلة طهرها ... وتناثرت من نورِه الأكمام
وأخي ثمانين استبيح وقاره ... لم يغن عنه الضعف والأعوام
وجريح حرب ظامئ وأدوه لم ... يعطفهم جرح دم وأوام
ومهاجرين تنكرت أوطانهم ... ضلوا السبيل من الذهول وهاموا
السيف إذا ركبوا الفرار سبيلهم ... والنطع إن طلبوا القرار مقام
يتلفتون مودعين ديارهم ... واللحظ ماء ، والديار ضرام

ويكتب الكاشف في هذه الحرب ثلاثة مقطوعات قصار يبدأ احداها :

صليبية يا قوم أم عنصرية ... حروبكم ؟ والدين هذا أم الشرّك

والثانية :

بأيةِ عيدٍ أنت يا عيدُ عائد. تفيض تباريحاً لنا أم شمائلا (٤٧)

كانت العاطفة الدينية (٤٨) –في مصر– إذن غالبة مسيطرة ، وكان الدين والوطنية توأمين متلازمين ، كما قال مصطفى كامل فى خطبة له ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) ، وقد أعان على تعلق الناس بالفكرة الإسلامية مهاجمة كرومر الدائمة للمسلمين فى بعض تقاريره وفى كتابيه اللذين ظهرا بعد مغادرته مصر «مصر الحديثة» و «عباس الثانى» وتصويرهم فى صورة الهمج المتخلفين ، ومهاجمته للإسلام وتصويره دينا رجعياً لا يصلح لأن يقوم على أساسه نظام اجتماعى راق ، كما أعان على تقوية فكرة الجامعة الإسلامية مهاجمة الدول الأوربية للدولة العثمانية باسم الدين ، حمية لدول البلقان المسيحية ، مما أثار شعور العطف على تركيا ودعا إلى الالتفاف حول الخلافة .

ويخاطب شوقى دعاة الهزيمة من ساسة الترك – وهم من الاتحاديين – الذين كانوا ينادون بأن البلقان مصدر متاعب للدولة ، ويرون الخير فى أن تتخلى عنه وتكفى نفسها هذه المتاعب التى لا قبل لها بها ، قائلا : إن الذين يفكرون على هذا النحو هم الذين يؤثرون الراحة على الكفاح ، ويحلون المشاكل بالهروب منها بدلا من أن يواجهوها ، وقد كان أولى بهم أن يتجهوا لإصلاح الإدارة فى البلقان بدل التفكير فى التخلى عنها (٤٩).

زعموك هما للخلافة ناصبا وهل الممالك راحة ومنام ؟

ويقول قوم : كنت أشأم مورد وأراك سائغة عليك زحام (٥٠)

أما محمد عبده : فهو يقول أثناء إقامته فى بيروت ١٣٠٤هـ (١٨٨٦م) : «إن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله ، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته ، وليس للدين سلطان فى سواها ، وأنا على هذه العقيدة والحمد لله ، عليها نحيا وعليها نموت» .

كما قال لرشيد رضا : فى حديث جرى بينهما عقب انتصار الترك فى حرب اليونان سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) : «إن كثيراً من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها –وإن كان أكثرهم يحبها– وأنا أيضاً أكره السلطان ، ولكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءاً ، فإنها سياج فى الجملة ، وإذا سقطت نبقى نحن المسلمين كاليهود بل أقل من اليهود ، فإن اليهود عندهم شيء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم ، وهو المال ونحن لم يبق عندنا شيء ، فقدنا كل شيء (٥١) .

خامسًا : الشعراء والكتاب والعلماء يفزعون لإلغاء الخلافة ويتداعون لنصرتها :

(أ) وبكى الناس، وبكى الشعراء، ومنهم شوقى[٥٢] الذى بكى فى إحدى قصائده الخلافة التى ماتت حين ظن الناس أنها قد استقبلت عهدا جديدا كله عزة فارتفع صوت الباكين يعلنون موتها المفاجئ فى صخب المحتفلين بعرسها وكفنوها فى ثوب الزفاف، بين جزع الجازعين وذهول الذاهلين وعذاب الضاحكين » :

ضَجَّت عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة ... تبكى عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماح

ويغمر الحزن الشاعر عندما يذكر هذا المجد الذى بناه المسلمون خلال القرون فحطمه رجل مفتون حين أسكرته خمر النصر، وحين فتنه الغرور وأخرجه عن وعيه، فأفتى فى الدين بمثل الجرأة التى يفتى بها فى ميادين القتال. كانت الخلافة تجمع الداخلين فى سيادتها على البرِّ وتحملهم على شرع الله الذى يحقق لهم السعادة. وكانت تجمع البعيدين النازحين ممن لا يخضعون لسلطانها من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، فتأتلف عليها قلوبهم، ويلتقى عندها حنينهم وتجتمع لديها آمالهم، وترتفع إليها فى الأرض شكاتهم. لذلك كان سخط الشاعر عظيمًا على الذين ألغوها، فهو يهاجم مصطفى كمال فى عنف لا يعدله إلا تحمسه له بالأمس. فمن أجل الإسلام وحده قد مدحه يومذاك، ومن أجل الإسلام وحده يهاجمه اليوم:

حَسَبٌ أتى طولُ الليالى دونه ... قدح طاح بين عشية وصباح
وعَلاقَةٌ فُصِمَتْ عُرَى أسبابها ... كانت أبرَّ علائق الأرواح
جمعت على البرِّ الحضورَ وربما ... جمعت عليه سرائر النزاح
نظمت صفوفَ المسلمين وخطوَهم ... فى كل غُدْوَةِ جمعةٍ ورواح
بكت الصلاةُ. وتلك فتنةُ عابثٍ ... بالشرع عربيدُ القضاءِ وَقَّاح

أفـتى خُـزَعْبِـلَةً ، وقـال ضلالـة وأتـى بـكـفرٍ فـى الـبلادِ بَـراح
إن الـذين جـرى علـيـهم فِـقْهُـه خُـلقـوا لـفقـه كتـيـبة وسـلاح
إن حدَّثـوا نطقوا بـخرس كتـائب أو خوطـبوا سمـعوا بصُـم رماح
أستغفر الأخلاق ، لسـتُ بجاحد مـن كـنت أدفـع دونـه وألاحـى
ما لـى أطواقه الـملام ، وطالـما قلَّدْتُه المأثـور مـن أمـداحى !
أأقول من أحيا الجـماعة ملحد ؟ وأقول مـن رد الحقوق إبـاحى ؟
الحقُّ أولَى من وليِّك حُرْمَةً وأحـق مـنـك بنـصـرة وكـفـاح
فامدح على الحق الرجال ولمهمو أو خَلِّ عـنك مـواقف الـنُّصَّـاح
إن الغرور سـقى الرئيـس بكأسه كيف احتيالـك فى صريع الراح ؟
نقـل الشرائـعَ والعـقائدَ والـقرى والناسَ نقل كتائبٍ فى الساح(٥٢م)

وبختم الشاعر قصيدته بما يشبـه أن يكون اعتذاراً عما تورط فـيه بالأمس من مدح مصـطفى كمـال ، حين أحسـن به الظن . فـيقول إنه قـد كان طول حيـاته مخلـصًا للخلافـة ، لأنها العروة الـوثقى التـى تجمع أمر الـمسلميـن . وقد ظن بالكـماليين الإخـلاص للإسلام وخلافتـه ، ثم رأى انحرافـهم فهاجمـهم ، ولم يصدر فى الحالين إلا عن حبه للخلافة ، التى سيظل لها وفيًا ما عاش . ثم يحذر المسلمين من الفـتنة التى يوشك أن يتورط فيها ملوكهُم وأمـراؤهم حين يتنازعون منصب الخلافة ويتنافسون عليه :

مَنْ قائـلٌ للمســـلمين مقالـــة لم يـوحهـا غيـرُ الـنصيـحة واح
عَـهْـدُ الـخـلافـة فـىّ أوّلُ ذائـد عـن حـوضهـا بـبـراعة نـضَّـاح
حـبٌّ لـذات الله كان ولـم يـزل وهـوىً لذات الـحق والإصـلاح
إنى أنا الـمصباح ، لست بـضائع حـتى أكـون فـراشةَ الـمـصبـاح
لا تـبـذلوا بُـرْدَ الـنبـى لعـاجـز عُـزُلٍ يــدافـع دونـــه بـالـــراح
بالأمس أوهـى المسلميـن جِراحةً واليـوم مد لـهم يـد الجـراح(٥٣)
فـلتسـمعُـنَّ بـكـل أرض داعيًـا يدعوإلى«الكذاب»أو«لسَجَاح»(٥٤)

ولتشهدُنَّ بكل أرض فتنة فيها يباع الدين بيع سماح
يُفتىَ على ذهب المعزّ وسيفه وهوى النفوس وحقدها المِلْحاح

(ب) ويتعزى الشاعر محرم فى آخر القصيدة التى قالها بهذه المناسبة بأن الخلافة التى ألغيت كان أمرها قد آل إلى أن تصبح شبحًا مهزولاً ورسمًا محيلا ، بعد أن خذلها حسين بن على وصحبه ، فمكروا بها وطعنوها فى صميمها ، وهى التى كانت تغيث المستغيث من المسلمين وتنصرهم على الطغاة المستعمرين :

ما نفع الخلافة حين تمسى حديثَ خرافة للهازلينا
ثوت تتجرع الآلام شتى على أيدى الدهاةً الماكرينا
تغيث المسلمين إذا استغاثوا وتنصرهم على المستعمرينا
فلما جَدَّ جِدُّ الحرب كانوا قوى الأعداء ترمى الناصرينا
منعنا الظلم أن يطغى عليهم فخانوا وكانوا الظالمينا
نصاب لأجلهم ، ونصاب منهم فإن تعجب ، فذلك ما لقينا !

(ج) وكتب الشيخ محمد حسنين مخلوف مقالا عنيفًا فى مهاجمتهم يعتذر فيه عن مدحه إياهم بالأمس(٥٥) .

وكتب محمد البتانونى مقالا عنيفًا يعْجَبُ فيه للكماليين الذين ألغوا الخلافة وهى ليست ملكًا لهم وحدهم ، لأنها خلافة المسلمين ، والترك لا يتجاوز عددهم جزءين من مائة جزء من المسلمين (٥٦) .

(د) كتب الشيخ محمد شاكر مقالا فى المقطم : يصور ما يشعر به من خيبة الأمل وقد أخذت ضربات الكماليين تتوالى ، محاولة قطع كل الصلات التى تربط تركيا بالإسلام والمسلمين . فهو يقول :

« خليفةٌ يُخْلَع . وخلافة تلغى . وأموال تصادر . وأوقاف تضم إلى أملاك(٥٧) الدولة . وتعليم دينى يمحى . ومحاكم شرعية تغلق . وأسرة عثمانية تطرد من آفاق البلاد ، وتحرم حتى من جنسيتها التركية . فما معنى هذه العاصفة الهوجاء ، عاصفة الجنون التى تهب على العالم من مشارق الأرض ومغاربها من عاصمة الجمهورية التركية بقرارات الجمعية الوطنية فى أنقرة ؟ » .

« رحم الله زمانًا كنا نعطف فيه على هذه الفئة إبان تمردها على السلطنة العثمانية وهى تجالد مجالدة الأبطال لطرد الأعداء من الأناضول ، وزحزحة الحلفاء عن دار الخلافة . والله يشهد أن الذى حدا بنا إلى العطف على هؤلاء المتمردين إنما هو الإشفاق على الخلافة العظمى أن تمتد إليها يد المهانة والاستذلال ، وهى البقية الباقية من مجد الإسلام وعهد النبوة الأولى ، وهى العزاء الوحيد الذى كنا نتعزى به فى نكبات الأيام وصروف الليالى . . عجيب أمر هؤلاء الذين تسللوا فى جنح الظلام إلى كهوف الأناضول ، وظلوا يهتفون باسم الإسلام حتى حازوا فخار النصر ، كيف ارتدوا على أدبارهم يحاربون الإسلام بأسوإ أداة ملكتها أيديهم فى أعز عزيز على العالم الإسلامى ، وهو نظام الخلافة . . . . الخ » .

(هـ) يقول أمين الرافعى فى مقال له بصحيفة الأخبار ، مصوراً فظاظتهم التى تتعارض مع مبادىء الأخلاق والإنسانية(٥٨) :

. . . « وقد ذهبوا إلى جلالة الخليفة فى ساعة متأخرة من الليل ، وأمروه بالجلوس فوق العرش . وبعد أن تلوا عليه قرار العزل أنزلوه وساروا به فى سيارة إلى الحدود ، ومنها إلى سويسرا . فعلوا به ذلك فى جنح الظلام(٥٩) ، لأنهم يعلمون أنهم يرتكبون جريمة شنيعة . ومن أجل ذلك أيضًا تراهم يعقدون محاكم(٦٠) التفتيش فى أنحاء البلاد ، ويخولونها سلطة الحكم بالإعدام ، ليملئوا النفوس إرهابًا حتى لا تثور على قرارهم » .

(و) وكان من أعنف ما نشرته الصحف فى هذه المناسبة ومن أقواه مقال لكاتب لم يصرح بإسمه ، نشرته صحيفة الأهرام فى صفحتها الأولى تحت عنوان « يا غربة الإسلام فى موطنه » وفيه يقول(٦١) :

« ما رمى الإسلام بسهم أوهى لجَلَده ، وأوهن لعضده ، وأدمى لكبده ، من هذا السهم الذى رماه به الكماليون ، أحنى ما كان ، وأشدَّ ما كان سكينة واسترسالا إليهم . » .

« ما استطاع أعداء الإسلام ، أشدَّ ما كانوا به ائتمارًا ، وأعدى ما كانوا عليه عدوانًا ، وأصدقَ ما كانوا رغبة فى الكيد له والنكاية فيه ، أن يبلغوا منه ما بلغه

هؤلاء الكماليون على مرأى ومسمع من المسلمين جميعًا . . فإقدام الكماليين على إلغاء الخلافة أكبر جريمة فى عهد هذه الدولة على الدولة ، وأشنع جريمة فى تاريخ الإسلام على الإسلام . » .

« فأى شر يحسب هؤلاء الملاحدة أنهم بإلغاء الخلافة يدفعونه ، وأى خير يظنون أنهم للدولة بذلك يجلبونه ؟ » .

« لقد نقضوا موثقًا أخذته عليهم ثمانية قرون وبعض قرن ، واطَّرحوا أمانة حملوها كلٌّ ذلك العهد العهيد ، وخرجوا للمسلمين من تبعة لم يخرجهم منها أحد ، وحاولوا عبثًا أن يحلو بيعة بعنق كل مسلم فى الأرض معقودة . » .

« لقد جردوا أمير المؤمنين من القوة التى تقوم بها إمارته بدعوى الفصل بين السلطتين ، وما أرادوا إلا الفصل بين عهدين ، عهد الدين الذى استدبروه وعهد الإلحاد الذى استقبلوه . ثم صرح الشر عن محضه ، وتكشفت النية عن خبثها ؛ فإذا هم يلغون الخلافة برأيهم ، ويخرجون بالخليفة من مقر خلافته فى جنح الليل ، كأنهم استحيوا أن يواجهوا بجريمتهم وضح النهار ، وودوا لو استطاعوا أن يخفوا جريمتهم عن مسلمى الأمصار . . . ».

ثم يتكلم فى بقية مقاله عن ركوب الكماليين متن الشطط ، وتقليدهم الثورة الفرنسية تقليدًا أعمى . ويقترح إرسال وفود من سائر بلاد المسلمين إلى أنقرة لإقناع الكماليين بخطر مسلكهم ، فى الوقت الذى يمضى فيه المؤتمر المقترح عقده بمصر فى تدبيرالأمر .

(و) **وانشغلت الصحف بأخبار الخليفة عبد المجيد وأسرته** ، وأخبار المطرودين من آل عثمان ، وتعليق الزعماء والمفكرين وعلماء الدين فى مصر وفى شتى أنحاء العالم الإسلامى على هذا الانقلاب الخطير ، وعلى ما تلاه من خطوات تدفع بالترك بعيدًا عن ماضيهم الإسلامى . وتقطع ما بينهم وبينه من صلات ، وتطمس كل ماله من شارات وأمارات ، لتلحقه بالغرب ، ولتجعله قطعة من أوروبا . وأسرف مصطفى كمال وصحبه فى حمل الناس على مذهبهم الشَّرود حتى قتلوا كل من ارتفع صوته بالمطالبة برعاية حق الدين وحرمته ، بعد أن أقاموا لهم محكمة وهمية سموها «محكمة الاستقلال » .

(ز) **ومن أحسن ما كتب فى تصوير هذا الانحراف مقال مصطفى صادق الرافعى «تاريخ يتكلم»**(٦٢) . وقد ذهب الرافعى فى هذا المقال مذهب الرمز فزعم أنه رأى فيما يرى النائم أنه صحب حاكمًا مجنونًا اسمه « الحاكم بأمر الله » وهو يرمز بهذا الحاكم لمصطفى كمال نفسه - فدون تاريخه فى عشرة أسفار ، أخذ يلخصها فى هذا المقال. فيقول مثلا فى المجلد الثانى من هذا التاريخ ، يصف مصطفى كمال فى بدء حركته بالغيرة على الإسلام تألفًا للقلوب ، ثم انقلابه من بعد حين أمكنته الفرصة :

« أظهر الطاغية أن الله يؤيد به(٦٣) الإسلام ليتألف الجند والشعب ويستميلهم إليه. وكان فى ذلك لئيم الكبد ، دنئ الحيلة ، يهودى المكر . فأمر بعمارة المدارس للفقه والتفسير والحديث والفُتْيا . وبذل فيها الأموال ، وجعل فيها الفقهاء « والمشايخ » ، وبالغ فى إكرامهم والتوسعة عليهم والتخضع لهم ودخل فى ظلال العمائم . . . وأحضر لنفسه فقيهين مالكيين (اثنين لا واحدًا) يعلمانه ويفقهانه . وكان أشبه بمريد مع شيخ الطريقة يتسعَّد به ويتيمن ، أشرفُ ألقابه أنه خادم العمامة الخضراء ، وأسعدُ أوقاته اليومُ الذى يقول له فيه الشيخ : رأيتك فى الرؤيا ورأيت لك»(٦٤).

« وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة من هذا الطاغية . هى بعينها ربا اللفافة اليهودية فى مخه(٦٥) ،تُصْلِحُ بإقراض مائة وفيها نِيَّةُ الخراب بستين فى المائة ! فإنه ما كاد يتمكن من الناس ويعرف إقبالهم عليه وثقتهم به ، حتى طلبت اللفافة اليهودية رأس المال والربا ، فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخرابها وأبطل العيدين وصلاة الجمعة ، وقتل الفقهاء وقتل معهم فقيهيه وأستاذيه ، وعاد كالمريد المنافق مع شيخ الطريقة ، يقول فى نفسه : إن هناك ثلاثةً تعمل عملا واحدًا فى الصيد : الفخ ، والعمامة واللحية . . ! » .

« إن هذا الطاغية ملك حاكم ، يستطيع أن يجعل حماقته شيئًا واقعًا ، فيقتل علماء الدين بإهلاكهم ، ويقتل مدارس الدين بإخرابها ، ولو شاء لاستطاع أن يشنق من المسلمين كل ذى عمامة فى عمامته . ويبلغ من كفره أن يتبجح ويرى هذا قوة ، ولا يعلم أنه لهوانه على الله قد جعله الله الذبابة التى تصيب الناس

بالمرض ، والبعوضة التى تقتل بالحمى ، والقملة التى تضرب بالطاعون . فلو فخَرتْ ذبابةٌ ، أو تبجحت قملةٌ ، أو استطالت بعوضةٌ ، لجاز أن يَطِنَّ طنينهُ فى العالم ! وهل فعل أكثر مما تفعل؟ » .

« لقد أودى بأُناس يقوم إيمانهم على أن الموت فى سبيل الحق هو الذى يخلدهم فى الحق ، وأن انتزاعهم بالسيف من الحياة هو الذى يضعهم فى حقيقتها وأن هذه الروح الإسلامية لا يطمسها الطغيان إلا ليجلوها » .

« إنه والله ما قتل ولا شنق ولا عذب ، لكن الإسلام احتاج فى عصره هذا إلى قوم يموتون فى سبيله[٦٦] ، وأعوزه ذلك النوع السامى من الموت الأول الذى كان حياة الفكر ومادة التاريخ ، فجاءت القملة تحمل طاعونها . . . !» .

« لقد أحياهم فى التاريخ . أما هم فقتلوه فى التاريخ . وجاءهم بالرحمه من جميع المسلمين . أما هم فجاءوه باللعنة من المسلمين جميعًا ! » .

ويقول فى المجلد الثالث ، مصوراْ عصبيته التركية ، التى ذهبت به مذهب الجنون فى لعن كل ما يمت للعرب بصلة :

« يرى هذا الطاغية أن الدين الإسلامى خرافة وشعوذة على النفس ، وأن محو الأخلاق الإسلامية العظيمة هو نفسه إيجاد أخلاق ، وأن الإسلام كان جريئًا حين جاء فاحتل هذه الدنيا ، فلا يطرده من الدنيا إلا جراءة شيطان كالذى توَقَّح على الله حين قال : ﴿ **فبعزَّتك لأغْوينَّهُم أجْمَعين** ﴾ [ص: ٨]. ولهذا أمر الناس بسب الصحابة ، وأنْ يُكتَب ذلكَ على حيطَان المساجد والمقابر والشوارع ! ».

« أخزاه الله ! أهى رواية تمثيلية يلصق الإعلان عنها فى كل مكان ؟ لو سمع لسمع المساجد والمقابر والشوارع تقول : أخزاه الله ! » .

ثم يقول ، مصوراً تطرفه فى هدم كل ما ورث الناس عن أسلافهم من دين ومن عرف ومن تقاليد ، وفى إقحام كل بدع عجيب غريب على حياتهم وإلصاقه بها إلصاقًا:

« يزعم الطاغية أنه يعز قومه . وما أراه يعزهم . ولكنه يمَتحن ذلهُم وضعفهم وهوانهم على الأمم . فهو يتجرأ شيئًا فشيئاً ، منتظَّراً ما يتسهَّل ، مترقبًا ما يمكن

وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هى أمواتنا دفنوا أنفسهم فينا. فمن ذلك يهدم الأخلاق ويظن عند نفسه أنه يهدم قبراً لا أخلاقًا » .

« يزعم الطاغية أنه سيهدم كل قديم. وإنى لأخشى والله أن يأمر الناس فى بعض سطوات جنونه أنَّ كل من كان له أمٌ أو أب بلغ الستين فليقتله. لتخلص الأمة من قديمها الإنسانى . . . ! » .

« كأنه لا يعرف أنه إنما يتسلط على أيام معاصريه لا على التاريخ، ويحكم على طاعة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثهم من الأسلاف. فما هو إلا أن يهلك حتى ينبعث فى الدنيا شيئان. نتَنُ رِمَّته فى بطن الأرض، ونتن أعماله على ظهر الأرض. إن هذا الرجل المسلَّط كالـغَبَارَ المستطار، لا يُكْنَسَ إلا بعد أن يقع ».

(ح) « وأخذ الناسَ فى مصر اضطرابٌ وحيرة، فلم يعرفوا كيف يصنعون وقد أصبح العالم الإسلامى للمرة الأولى منذ وفاة النبى. بلا خلافة، ولم يدر الناس لمن ينصرف دعاء الداعين حين يبتهلون إلى الله فى ظُهْر كل جمعة أن يشمل بعنايته توفيقه خليفة المسلمين (٦٧).

وكان أولَ خطوة أخرجت الناس عما هم فيه من حيرة وارتباك بيانٌ مذيل بإمضاء ستة عشر عالمًا من علماء الأزهر أذاعوه بعد إلغاء الخلافة بأربعة أيام يقررون فيه بطلان ما تجرأ الكماليون من عزل الخليفة عبد المجيد، الذى انعقدت له البيعة من المسلمين جميعاً، لأنه صادر من فئة قليلة لا يعتد بهم «فبيعته صحيحة شرعًا فى عنق كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر»، وينبه البيان المسلمين إلى حاجتهم للخليفة، ثم يدعوهم للإسراع فى عقد مؤتمر « يقرر ما يراه فى أمر الخلافة من الطريق الشرعى»، ويحذرهم من « تسرب الخلاف الذى يؤخر الإسلام ويوهنه»(٦٩).

(ط) وفى اليوم التالى نشر الشيخ محمد حسنين وكيل الأزهر السابق مقالا بين فيه خطأ الكماليين فيما ذهبوا إليه من أن الخلافة عقبة فى طريق التقدم. وختمه بدعوة المسلمين للنظر فى أمر الخلافة قائلاً (٧٠) :

« فإذا لم يكن الخليفة قد تنحى عنْ منصب الخلافة بل لا يزال متمسكًا به فإن بيعته لا تزال فى الأعناق. وإن لا، يكون قد اعتزل بنفسه الخلافة ورأى عدم كفايته لها، فتبرأ ذمة المسلمين من عهدته، وتنحل بيعته من أعناقهم، ويجب النظر فى إسناد الخلافة لمن هو أهلها وأحق بها، فإن الإجماع منعقد على وجوب نصب الخليفة للمسلمين. وقد ورد فى صحيح مسلم (من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) **أولى الناس بهذا الواجب الخطير الأمة المصرية**، فإن فيها من علماء الدين وطلاب العلم آلافًا عدة، ومن أهل الحل والعقد وذوى الرأى ما لا يجتمع فى غيرها. وفيها الأزهر الشريف الذى امتازت به مصر عن سائر الأقطار يؤمه الدانى والقاصى فى مشارق الأرض ومغاربها **ولمصر فى نفوس العالم الإسلامى منزلة تستحق معها السبق إلى هذا الواجب الأكيد**. فيجب على العلماء وأهل الحل والعقد أن يبادروا إلى النظر فى بيعة خليفة للمسلمين، حتى يخرجوا من عهدة هذا المنصب الخطير »[٧١] .

ومنذ ذلك الوقت، كثرت الدعوات لعقد مؤتمر الخلافة. وبرز اسم مصر واسم الأزهر كمصدر لهذه الدعوات ومركز من أهم مراكز النشاط الإسلامى الذى يحاول معالجة هذه المشكلة .

(ى) **وصدرت مجلة باسم المؤتمر الإسلامى**، ظهر العدد الأول منها فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٣ « أكتوبر ١٩٢٤» ونشر فى صدره مقال **للسيد محمد رشيد رضا** أبرز فيه أهمية هذا المؤتمر، لأنه أول مؤتمر إسلامى عام يشترك فيه علماء الدين والدنيا من كل الأمم الإسلامية. وبين أن المطلوب فى هذا المؤتمر هو وضعُ قواعد للحكومة الإسلامية المدنية التى يظهر فيها علو التشريع الإسلامى ووضع قواعد للتربية والتعليم تجمع بين هداية الدين ومصالح الدنيا، واختيار خليفة وإمام للمسلمين[٧٢] .ولكن هذا المؤتمر الذى حدد لانعقاده شهر شعبان ١٣٤٣ (مارس ١٩٢٥) أجّل مرة بعد مرة، ولم يجتمع إلا فى أول ذى القعدة ١٣٤٤ (١٣ مايو ١٩٢٦) ثم إن اجتماعه من بعد كان اجتماعًا فاشلا لم يسفر عن شيء .وقد اجتمعت على إفساد هذا المؤتمر ووضع العراقيل فى سبيله عوامل كثيرة. كان «أمان الله خان» ملك الأفغان وقتذاك طامعًا فى الخلافة[٧٣]. وكان

كثير من مـندوبى الدول الإسلامية يعملـون على إحباط ترشيح الملـك فؤاد نفسه للخلافة[٧٤] . هذا إلى أن الـملك حسـين بن على كـان قد أخذ البيـعة لنفـسه فى فلـسطيـن وشرق الأردن . ثم إن الإنـجليز كـانوا يعـارضون فى ظـهور الخـلافة الإسلامية فى أى صورة مـن الصور، ولكنهم - كعادتهم - لم يـكونوا يصرحون بهذه المعارضة حتى لا يثيروا المسلميـن ويدعوهم إلى التشبث بالخلافة . فكانوا يعملون علـى تعقيد المساعى المبـذولة فى إعادتها بوسائل ملتـوية خفية . والذى يقرأ كتاب « إلى أين يتجه الإسلام » مثلا يسـتطيع أن يدرك من بين سطورة شماتة الكاتب فى فشل الجهود المبذولة لإقامة الخلافة[٧٥] .

* * *

مصادر ومراجع الفصل الخامس

(١) الاتجهات الوطنية فى الأدب المعاصر، أ.د. محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، بيروت ١٣٩٢هـ، ج١ ، صفحة ٢٢ ، ٢٣ ؛ الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، د. محمد كمال الدسوقى، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها أ.د. عبد العزيز محمد الشناوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠.

(٢) المرجع السابق

(٣) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٢٤ وهو يعتمد على كتاب المسألة الشرقية صفحة ١٣ ، ١٤ . وقد صدقت ذلك الأحداث فقد قامت الحرب العالمية الأولى والثانية وما زالت الحروب مشتعلة فى بقاع كثيرة .

(٤) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٢٤ ؛ مراسلات هنرى مكماهون الشريف الحسين أمير الحجاز والتى حرض فيها الإنجليز أمير الحجاز على الخروج على الدولة العثمانية وإقامة خلافة عربية يكون هو على رأسها .

(٥) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٢٤ .

(٦) الاتجاهات الوطنية ج١ ، صفحة ٢٥ ، ولعلّ القارئ يدرك الآن من شهادة الزعيم الوطنى المسلم مصطفى كامل رحمه الله ، أن الخلافة العثمانية بفضل الله كانت تشكل السياج الحامى للعالم الإسلامى ، وكانت تشكل العقبة الكؤود بين أوربّا واغتصاب العالم الإسلامى ، ولذلك عمدت أوربا إلى إثارة الفتن الطائفية داخل بلاد المسلمين لإسقاط الخلافة وتمزيق وحدة العالم الإسلامى واغتصابه، ولعل القارئ يدرك الآن أن الفتن الطائفية والإقليمية والحروب داخل ديار العالم الإسلامى هى من تدبير أبناء أوربّا أعداء الأمة المسلمة ثقافتنا فى إطار النظام العالمى الجديد، لواء أ/ح دكتور فوزى محمد طايل، مركز الإعلام العربى، القاهرة ١٤١٤هـ، صفحة ٩٥-٩٩.

(٧) وهكذا بين الزعيم الشاب مصطفى كامل أن واجب المسلمين حماية الخلافة حفاظًا على دينهم وديارهم وعزهم . هذه هى وجهة نظر شعب مصر فى الخلافة العثمانية كما عبر عنها الزعيم مصطفى كامل ، فهل يخرج دعى ليدعى أن العثمانيين كانوا محتلين لديار الإسلام .

(٨) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، ص: ٦٤ .

(٩) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٢٦ ، تاريخ الدولة العلية العثمانية .

(١٠) الاتجاهات الوطنية ج ١ ، صفحة ٢٧ .

(١١) الاتجاهات الوطنية ، ج ١ ، صفحة ٧ ، هذه هى مشاعر المصريين الحقيقية تجاه الخلافة العثمانية ، أى أن شعب مصر لم يكن يعتبر العثمانيين محتلين كما تزعم كتب التاريخ ، وذلك يعنى أيضاً أن

شعب مصر كان سعيداً بالخلافة ، ولم يكن يعانى من مظالم كما تزعم كتب التاريخ .

(١٢) ماذا كان ينتظر مندوب الاحتلال البريطانى لأرض مصر ؟ أن يفرح المصريون لمغتصبيهم وجلاديهم وآكلى ثرواتهم وخيراتهم ، إن عداء المسلمين للاحتلال البريطانى ينبع من عقيدة الإسلام التى تربى عليها المسلمون المصريون وهى : **﴿لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة﴾** (الممتحنة : ١) . إن ما سماه المحتل البريطانى تعصباً هو كره للكفر وأهله لأنهم تعلموا فى مدرسة الإيمان : «أوثق عرى الإيمان الموالاه فى الله والمعاداة فى الله والحب فى الله ، البغض فى الله» ، ولذلك كان من الطبيعى أن يكره المصريون المحتل ويبغضوه ويجاهدوه .

وقد كان ذلك موقف المصريين المسلمين من الاحتلال الإنجليزى ، وظلوا يبغضونه ويجاهدونه حتى أخرجوه من مصر ، وهذه هى مشاعر المصريين المسلمين لكل من يحاد الله ورسوله ، لأبناء أوربا الملحدين الصليبيين والشيوعيين واليهود ومن عاونهم من أبناء الذين ينتسبون إلى أمة الإسلام ومن المفروض ألا يهنأ للمسلمين بال حتى يخضدوا شوكة الباطل وأهله .

(١٣) لأنهم أدركوا أن الوطنية بمعناها الإقليمى نوع من العصبية المقيتة ، ورسولنا محمد ﷺ نهى عنها فقال: «دعوها فإنها منتنة» وقال : «ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية أو مات على عصبية» .

(١٤) لأنهم كانوا يؤمنون بأن وحدة العالم الإسلامى فريضة والاعتصام بدين الله فريضة : **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾** «والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله» ، «ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة لأن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد» .

(١٥) نفس المرجع ، صفحة ٢٨ .

(١٦) الكواكب المضيئة .

(١٧) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٢٨ .

(١٨) ذو النورين هو : عثمان الأول الذى تنتسب إليه دولتهم المتوفى سنة ١٣٢٦م (٧٢٧هـ) ، المرجع السابق، صفحة ٢٨ .

(١٩) خف البعير ، أى أن فى الناس الكبير والحقير .

(٢٠) المرجع السابق ، صفحة ٢٩ .

(٢١) الاتجاهات الوطنية ، ج ١ ، صفحة ٢٩ .

(٢٢) ثم مضى فى تصوير سوء حال مصر وما يسام أهلها ، إذ يساقون مرغمين إلى الموت مقاتلين تحت الراية البريطانية ، مخلفين وراءهم أرامل وأيتاماً وأمهات ثاكلات ، ثم تكلم عن مهاجمة أساطيل الحلفاء للآستانة ، مقر خلافة المسلمين ، مظهراً شماتته بعودة أساطيلهم خائبة مهزومة ؛ المرجع السابق ، صفحة ٣١ .

(٢٣) الاتجاهات الوطنية ، ج١، صفحة ٣٢ .

(٢٤) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٣٣ .

(٢٥) الجهام : السحاب الذى لا ماء فيه . والشاعر يشبه وعود أبناء أوربا كالسحاب الذى لا يمطر يقصد أن حجتك الكبرى فى عدم شرعية الاحتلال لأنه نقض صريح لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠م (١٢٥٦هـ) التى اعترفت فيها إنجلترا مع سائر الدول باستقلال مصر وبقائها تحت السيادة العثمانية .

(٢٦) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٣٣ .

(٢٧) الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ، د. مصطفى حلمى وهى تقديم ودراسة حول كتاب : «النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والنعمة» للشيخ مصطفى صبرى ، دار الدعوة .

(٢٨) يقصد بالضيف المملول : الاستعمار الإنجليزى ، وبالأهل تركيا ؛ الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة٣٥ .

(٢٩) الاتجاهات الوطنية ، ج١ صفحة ٣٥ ، ٣٦ .

(٣٠) الخنا : الفحش ، يشير إلى هتك أعراض المسلمات . هامش ٤ ، الاتجاهات الوطنية ج١ ، صفحة٣٨ ونفس الجرائم ترتكب اليوم فى البوسنة والهرسك وكوسوفو والسنجق على أيدى الصرب الأرثوذكس وبمعاونة روسيا الأرثوذكسية وإنجلترا وفرنسا وغيرها من أعداء الإسلام.

(٣١)الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٤٢ .

(٣٢)الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٤٣ .

(٣٣) الاتجاهات الوطنية ج١ ، صفحة ٤٣.

(٣٤) الاتجاهات الوطنية ، ج١ صفحة ٤٦.

(٣٥) المرجع السابق صفحة ٤٨، ٤٩ .

(٣٦) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٤٩ .

(٣٧) الاتجاهات الوطنية ،ج١ ،صفحة ٥١-٥٣.

(٣٨) المرجع السابق ، صفحة ٥٣-٥٥.

(٣٩) اللهاذم : الأسنة القاطعة .

(٤٠) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة٥٤–٥٥ ؛ وهونفس الموقف الآن مما يجرى لشعب البوسنة والهرسك على أيدى الصرب والكروات ، وما يجرى لشعب فلسطين على أيدى اليهود ، وما يحدث لشعب الشاشان المسلم من الروس .

(٤١) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٥٥

(٤٢) الإتجاهات الوطنية ، ج١ ، ص٥٨.

(٤٣) لُهام : أى عظيم كأنه يلتهم كل شيء .

(٤٤) الغنام : راعى الغنم .

(٤٥) روح الإله : هو المسيح عليه السلام .

(٤٦) الاتجاهات الوطنية ، ج١، صفحة ٥٨ ؛ وهذا ما فعله ويفعله الصرب مع شعب البوسنة والهرسك المسلم منذ عامين ، تحت سمع وبصر ما يسمى بالعالم المتمدين والعالم الحر !!، وما يفعله الروس فى الشيشان وطاجكستان.

(٤٧) نفس المرجع ، صفحة ٥٩.

(٤٨) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٦١ ؛ ولهذا يجرى العمل الآن على قدم وساق لتخفيف منابع الدين فى القلوب عبر المناهج التعليمية والوسائل الإعلامية .

(٤٩) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٦٤ .

(٥٠) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٥٧ ؛ يشير إلى تزاحم الدول الأوربية وتنافسها على مناطق النفوذ فى البلقان .

(٥١) الاتجاهات الوطنية ، ج١ ، صفحة ٦٥ شرحًا على تاريخ الأستاذ الإمام ١:٩١٣–٩١٥.

(٥٢) هذا الجـزء مأخوذ نصـا من كتاب الاتجـاهات الوطنـية فى الأدب المـعاصر ج٢ صفحة ٣٨ وما بعدهـا. نسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل فـى ميزان صاحبه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(٥٢م) يشير إلى إلغاء الخلافة وإلى تبادل السكان بين الترك والبلقانيين.

(٥٣) يشير إلى الملك حـسين الذى حارب المسلمين مع حلفائه الإنـجليز، ثم هو يمد يده لتضميد جراحهم اليوم. ويقول : لا تبـذلوا له الخلافة التى يطمع فيها لأنه لا يستطيع الدفاع عنها .

(٥٤) الكذاب هو مسيلمة، وقد كان ادعى النبوة هو وسجاج فى فتنة الردة .

(٥٥) الأهرام أول شعبان ١٣٤٢هـ - ٧ مارس ١٩٢٤م .

(٥٦) افتتاحـية الأهرام فى ١٢ مارس ١٩٢٤م. وقد كان كـتب من قبل مقالا يـؤيد فيه فصل الخلافة عن السلطة، ويدعو الناس إلى مبايعة الخليفة عبد المجيد الذى أقامه الكماليـون ثم خلعوه حين ألغـوا الخلافة - راجع « الأهرام » عدد ٩ ربيـع الثانى ١٣٤١هـ - ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢م. تحت عنوان « الخلافة والسلطان » .

(٥٧) تمامًا كمـا فعلت كل الانقلابات الـعسكرية فى بلاد المـسلمين « ثقافتـنا فى ظل النظام الـعالمى الجديد، أ.د فـوزى محمد طايل ؛ ثـورة يوليو الامريكيـة، محمد جلال كشـك ؛ الطريق إلـى بيت المـقدس، د. جمال عـبد الهادى، دار الـوفاء للطباعة والنشر .

(٥٨) الأخبـار ٢٩ رجب ١٣٤٢هـ. - أول إبريل ١٩٢٤م. وهو يرمـى الكمـاليين فى مقاله هذا بالإلحـاد والجهل والغرور، إذ يزعمون أن الدول التى تـصادق تركيا إنما تصادقها لقوتها لا لأنها مركز الخلافة .

(٥٩) لماذا فى جنح الظلام ؛ إنه الخوف من يقظـة الأمة والتجاوب مع بعضها البعض رغم أنهم يمـلكون كل مظاهر القـوة المادية ؛ ولكنه الخـوف وصدق الله القائل: **﴿لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ﴾**، **﴿ يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم﴾** . . كم مـن الأعوام مضت عـلى هذه الـواقعة والـتعامل مـعها بـهذا الأسلوب . . نصف قرن أو يزيد وما زال أسلوب التعامـل مع المسلمين وعلمائهم

.. هو الأسلوب .

(٦٠) وقد طبق نفس الأسلوب فى سوريا والعراق ومصر وهى محاكم عسكرية والمتهم أمامها محروم من كل ضمانات العدالة ... والأحكام مقررة مسبقا .

(٦١) الأهرام ١٤ مارس ١٩٢٤م.

(٦٢) وحى القلم ٢ : ٢٣٥ - ٢٤٧ وراجع كذلك « كفر الذبابة » ٢ : ٢٤٨ - ٢٥٧ .

(٦٣) الكاتب يشير فيه إلى سلوك أتاتورك، وهو سلوك مكرور فى كل زمان الطاغية يرفع شعار الإسلام ليضمن تأييد الناس - لأنهم يحبون الإسلام ومن يرفع شعاراته ويسعى إلى تطبيقه - ريثما يتم له ما أراد .

لقد أظهر أتاتورك حبه للإسلام لدرجة أن وحيد الدين الخليفة وثق به وسلم له قيادة الجبهة والجيش وصُنعت له البطولات فأحبه الناس وأسلموا قيادتهم له، فغدر بهم وأظهر وجهه القبيح وعداوته المتأصله للإسلام .. ولا عجب فى ذلك فقد أظهرت الدراسات أنه من يهود الدونمة والله يقول : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا** ﴾ ولكن كيف وصل إلى هذا الموقع ؟ الإجابة تجدها فى موقع آخر ؟ لكن يظل اللوم على الأمة التى تسلم قيادها لشخص لا تعرف نسبه (الأسرار الخفية، الرجل الصنم، النكير على من منكرى النعمة ؛ الذئب الأغبر).

(٦٤) لعله يُعرِّض هنا بصحبة مصطفى كمال للسيد أحمد السنوسى، الذى أحسن الظن به، فأخذ يدعو المسلمين للالتفاف حوله، وتقريبه فى الوقت نفسه للشيخ عبد العزيز جاويش. راجع فى ذلك حاضر العالم الإسلامى ج١ ،ص١٢٣- ١٢٤ .

(٦٥) يشير إلى ما أشيع وقتذاك من أن فى مصطفى كمال عرقًا يهوديًا .

(٦٦) هذه حقيقة فقد قال "سيد قطب" وهو يقدم حياته فداء لهذا الدين " الإسلامى " إن كلماتنا تظل عرائس من الشمع حتى إذا متنا فى سبيلها، دبت فيها الروح وكتبت لها الحياة (دراسات إسلامية، دار الشروق، ص٢٢٨).

(٦٧) صور شوقى هذا الشعور فى قصيدته الحائية التى تقدم الكلام عنها، وقد كان دعاء المسلمين فى خطبة الجمعة طوال الحرب، حسب ما جرت العادة به، هو

«اللهم انـصر الإسلام والمسلـمين وأعل كلمـة الحق والدين فى أيـام عبدك وابن عبدك الخاضع المتواضع لعلاك ولعظيـم مجدك، سلطان البرين والبحرين، وخادم الحرمين الشريفين، مولانا السلطان وابن السلطان، السلطان الغازى "محمد خان" ابن السلـطان عبد المجيـد خان، بن السلطان الـغازى محمود خان. اللـهم انصره وانصر عسـاكره، وكن اللهم مـؤيده وحافظه وناصره، يـا من بيده ملكـوت الدنيا والآخرة مولانا رب العالمين ». وقد اكتفت السلطات الإنجليزية وقتذاك بأن تحذف منه الدعاء لجيوش الخـليفة بالنصر لأنها كانت فى حرب معها. فلـما توفى الخليفة أثناء الحرب منع الدعاء باسم الخليفـة الجديد "وحيد الدين" فى المساجد وأصبح الدعـاء الجـديد فى خطبـة الجمعـة هـو « اللهـم إنى أسـألك أن تؤيد الإسـلام والمسلمين، وأن تشمـل بعنايتك وتوفيقك خليفة المسلمـين، كما نسألك أن تؤيد عبدك وابن عبدك الخاضع لمجد عزك وجلالك، مـن أيدته بفضلك وحفظته بعين رعايتك سلطان مصر المعـظم . . . الخ. .» الأهرام ٥ ربيع الثانى ١٣٤١هـ - ٢٤ نوفمبر ١٩٢٢م. بعنوان « حول المبايعة بالخلافة » .

(٦٨) وهذا يدل على أن الحـس الإسلامى كان عميقا فى حياة الأمة بـما فى ذلك عامة الناس. فـهم يدركون أن نـصب الخليـفة واجب، وأنه لا يجـوز أن يبقى الـعالم الإسلامى بلا خليفة. وعلى الجانب الآخـر فإن علماء الأمة قد أعلنوا بطلان عزل الخليـفة العثمانـى عبد المجيد. وأن مـا فعله الكمالـيون جريمة فى حـق الخلافة والأمة الإسلامية .

(٦٩) الأهرام ٣٠ رجب ١٣٤٢هـــ - ٦ مارس ١٩٢٤م. بعنـوان « خلع الخـليفة غـير شرعى». وكان قرار إلغاء الخلافة فى ٢ مارس ١٩٢٤م .

(٧٠) الأهـرام أول شـعـبـان ١٣٤٢هـــ - ٧ مارس ١٩٢٤م. بـعـنـوان « الـخـلافـة الإسلامية».

(٧١) وهذ دور علمـاء الأمة فى مواجهة المحـن والشـدائد يبينون للنـاس ما استغلق عليهم، فالشيـخ "محمد حسنين" وكيل الأزهر رحمه الله أصدر بيـانا علميّا يشرح فيه الموقف بـصدق وأمانة، ويبين للناس خـطورة الواقع الذى يعيشون فيـه نتيجة غياب الخلافة

(٧٢) المنار م ٢٥ج ٧ ص ٥٢٥ - ٥٣٤.

(٧٣) Whither Islam ص١٦٩.

(٧٤) الحولية الثالثة ص ٢٨٠.

(٧٥) Whither Islam ص١٣٨ وما بعدها. شتان بين الأمس واليوم .. فحينما توفى رسول الله. وأصبح الناس كالمعزى المُطّيرة فى ليلة شاتية بأرض مُسبعة (كثيرة السباع) ليس لها راع. ماذا فعل المسلمون؟ لقد خشوا أن يبيتوا ليلة واحدة دون خلافة، دون إمارة فتركوا النبى. قبل تجهيزه، وانطلق أبو بكر وعبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب رضى الله عنهم أجمعين إلى سقيفة بنى ساعده حيث كان الأنصار يجتمعون لاختيار وليًا لأمر الأمة بعد وفاة النبى. وفى هذا اللقاء تم اختيار أبى بكر الصديق رضى الله عنه أفضل الأمة على الإطلاق بعد رسول الله. ليتولى أمر المسلمين ؛ وحسم الأمر فى هذا اللقاء (الذى لم يستغرق أكثر من ساعتين على أصح تقدير (استخلاف أبى بكر الصديق، د. جمال عبد الهادى و د. وفاء محمد رفعت دار الوفاء للطباعة والنشر) .

أما اليوم فالأمة عاجزه عن إقامة هذه الفريضة ؛ وليس أدل على ذلك مما أورده المؤلف فى كتابه هنا ما السبب وراء هذا العجز وهذه الفرقة ؟ وعدم الإحساس بالخطر نتيجة غياب الإمامة الإسلامية ؟ لا شك أنها قلة التربية وعدم تحرير الولاء والبراء وتسلل العناصر العميله إلى موقع المسئولية فى بلاد المسلمين، بالإضافة إلى الحرب المعلنة والخفية على الخلافة من أعداء الإسلام والتى تعمل على عدم إعادتها مرة أخرى، إنه الغياب شبه الكامل للإسلام عن توجيه دفة الأمور فى حياة الأمة التى تنتسب إلى الإسلام .

* * *

الفصل السادس

العلماء يكشفون دور اليهود والصليبيين فى إلغاء الخلافة وينبهون الأمة إلى أن إقامة الخلافة الإسلامية فريضة فى رقاب المسلمين

تمهيد :

من هؤلاء العلماء الشيخ محمد حسنين مخلوف وكيل الأزهر حينذاك والشيخ محمد رشيد رضا والشيخ مصطفى صبرى وسنكتفى هنا بعرض نموذج واحد للشيخ مصطفى صبرى الذى كان شيخا للإسلام فى تركيا وفر إلى مصر من الحكم الكمالى ، وأراد أن ينبه المصريين إلى ما يضمره الكماليون ومنهم مصطفى كمال أتاتورك للإسلام وشريعته وأهله ، وما ينطوون عليه من خبث النية وفساد الدين وأن الخلافة التى ابتدعوها مجردة عن السلطة ليست من الإسلام فى شىء ، وأن فصل الدين عن الدولة ليس إلا وسيلة للتخلص من سلطانه والتحرر من شريعته وقيوده وتجاوز حدوده

وللأسف لم يتجاوب المصريون مع نصيحته وتنبيهه :

بل إنهم فى البداية أساءوا الظن بذلك العالم الجليل واتهموه أنه مدفوع فى مهاجمة الكماليين ببغضه لهم ، بعد أن الجأوا الخليفة إلى الفرار ، فهاجموه هجومًا عنيفًا تجاوز فى كثير من الأحيان كل حدود للأدب .

ولكن هل انتبه العالم الإسلامى إلى خطورة الدور الذى يقوم به الكماليون ابتداء من عهد أتاتورك ؟ وما هو موقف الكتاب والزعماء؟ وأين كان بقية العلماء وماذا فعلوا؟

« الواقع أن العالم الإسلامى تباينت مذاهبه فى انقلاب الكماليين . . ولكن كثرتهم وخاصة فى مصر قد أيَّدت كمال أتاتورك ورجت من ورائه الخير للمسلمين وكان ذلك فى البداية قبل أن تكتشف الأمة هوية الإنقلابيين .

« وأنكر بعض العلماء والناس هذا البدع الجديد الذى ابتدعه الكماليون فى الإسلام بفصلهم بين السلطة والدين وأنكروا ما قام به من خلافة مجردة عن

السلطة ولكنهم كانوا قلة قليلة ، منع تيار الحماس الجارف لمصطفى كمال أكثرهم أن يجهروا برأيهم .

وقد كان ذلك فى أعقاب انتصاره على اليونان والذى صنع له صناعة وهو يفاوض الحلفاء فى لوزان والفرح الذى فاجأ الناس بعد يأس يغمر قلوبهم ، فرأى بعضهم أن يمهلوه وأن لا يعجلوا عليه باللوم وهو يواجه عدوه وعدو المسلمين.

معنى ذلك أن هذا كان ابتلاء شديدا للشيخ مصطفى صبرى ، رحمه الله. .نعم ولكن ذلك العالم الجليل كان كالطود الشامخ ، لقد واصل بيانه لأهمية الخلافة ومكانها فى الحكم الإسلامى الصحيح وداعيا إلى أقامتها وواصل ردوده على المتحاملين عليه الجاهلين بما يدبر ضد الأمة المسلمة ، بينما يَجْهَرُ الفجرة بمعصيتهم فيجدون آذانا صافية . . .

إذا قلت المحال رفعت صوتى   وإن قلت اليقين أطلت همسى

متى تبين العالم الإسلامى حقيقة الكماليين ؟ وماذا كان موقفه بعد ما تبين حقيقة الكماليين ؟.

لقد تبين العالم الإسلامى حقيقة الكماليين ، حينما أسفر أتاتورك عن حقيقة نواياه، وألغى الخلافة ، وعزل الخليفة وحيد الدين وطرده وأسرته إلى خارج حدود تركيا بعد أن جردهم من كل أملاكهم وأموالهم .

شيخ الإسلام مصطفى صبرى يشحذ قلمه ويكتب : « النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة » الشيخ يقول : « ليس من وظيفة العلماء محاباة العامة ومجاراة الدهماء ». هذا هو موقف عالم من علماء المسلمين يدرك خطورة الإنقلاب والحكم العسكرى الذى قام على أكتاف الإتحاد والترقى ويدرك خطورة الدور الذى يقوم به كما أتاتورك وأعوانه ، فينبرى ينبه الأمّة إلى فساد ما فعله الكماليون حينما فرقوا بين الخلافة والسلطة ، مبينا دوافعه ، لافتًا أنظار المسلمين إلى خطورة أثاره .

إنَّ المؤلف هنا يبين فساد دين الكماليين (أعوان كمال أتاتورك) الذين يتسمون بأسماء المسلمين ويرفعون شعار الإسلام حتى ينتبه المسلمون إلى خطورة ما

قادمون عليه، فيأخذوا على أيديهم .

المؤلف يقول عن الكماليين : « ولا يبالون ما يصيب الناس من ضرر فى سبيل تحقيق منافعهم » . . ويقول : أنهم وراء الفتنة الطائفية بين المسيحيين والمسلمين.

خطة الكماليين كما يقول الشيخ : « إستئصال الدين وإنقاذ البلاد من نفوذه» حسب زعمهم .

الشيخ مصطفى صبرى يقول : « لعنة الله على الإتحاديين (نسبة إلى حزب الإتحاد والترقى الماسونى) ، إنهم ادخلوا السياسة فى الجيش فسنّوا هذه السنة السيئة فينا وصاروا آفة على الدولة ، ثم صار الجيش آفة على الدولة وعليهم .

المؤلف يتحدث عن صلة الاتحاديين والكماليين باليهود ، ويقدم الأدلة على ذلك.

شيخ الإسلام يقدم جملة من الشواهد التى تشكك فى تواطؤ الكماليين مع الإنجليز.

شيخ الإسلام يقرر إن إخراج الحكومة عن الخلافة إخراج لها عن الدين وآرمسترونج يقدم فى كتابه أدلة على إتصال كما أتاتورك بالقوى الاستعمارية (انجلترا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا وروسيا) والتواطؤ معهم .

الشيخ يرد على شبهتين . . الأولى تتعلق بالأحكام الشرعية . . يقول : « إن دين الله نعمة للمسلمين فلا ينافى حريتهم واستقلالهم ؛ والثانية خاصة بالرد على من يدعو إلى عدم الاعتداد بالعلماء المعممين ويردد قول الله تعالى : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾ [التوبة : ١٢٢].

آرمسترونج يقرر كما قرر صاحب الاتجاهات الوطنية : تنظيم الاتحاد والترقى كان يعقد إجتماعاته فى بيوت اليهود، وإن فتحى صديق كمال كان ماسونيا . . وأن وزير مالية الإتحاديين كان يهوديا (يافيد) ثم كان من طائفة الدونمه وهو جاويد وكذلك وزيرة المعارف (خالدة أديب) كما أن وزير الداخلية طلعت فى

عهد الكماليين من أصل يهودى .

الأستاذ الدكتور محمد حسين يقول : « إنّ خلع السلطان عبد الحميد كان جزءًا من مؤامرة اليهود لاغتصاب فلسطين ، ولم يكن ذلك ممكنا إلا بانحلال الامبراطورية العثمانية » . ويقول : أن اليهود حاربوا السلطان عبد الحميد لأنّه منع هجرتهم إلى فلسطين سنة ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م.

الشيخ مصطفى صبرى يقول : « لن تجد ملة أو قومًا خارج بلادنا وداخله دامت مَوَدّةٌ الإتحاديين والكماليين معهم إلاّ اليهود » .

شيخ الإسلام مصطفي صبري
يؤدي واجب البلاغ في كتابه

النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة:[١] والكتاب منصرف إلى بحث مسألة الخلافة من ناحيتها السياسية خاصة . فهو يتصدى لمهاجمة الكماليين وتنفير العالم الإسلامى - ومصر خاصة - منهم ، والتحذير من شرهم .

ومن الممكن أن نحصر مباحثه فى قسمين : القسم الأول منها - وهو الأهم يُحذر العالم الإسلامى من خطر الكماليين ، وينبه المصريين إلى سوء نيتهم والقسم الثانى يتكلم عما ارتكبه الكماليون من التفرقة بين الخلافة والسلطنة مبينًا دوافعه ، لافتًا أنظار المسلمين إلى آثاره .

أما القسم الأول فهو يتناول أربع مسائل :

(أ) الكلام عن فساد دين الكماليين [٢].

(ب) الكلام عن عصبيتهم للجنس التركى ومحاربتهم للعصبية الإسلامية .

(ج) بيان أن الكماليين والاتحاديين اسمان مختلفان لشىء واحد.

(د) الكلام عن صلتهم باليهود ، وعن تواطئهم مع الإنجليز .

قال المؤلف إنه يريد أن يستعين بالمسلمين على المفسدين من قومه ، وينبههم إلى خطرهم على الإسلام ، حتى لا يظنوا بهم خيراً فيقتدوا بهم ، وحتى لا يتورطوا فى إعانتهم وتشجيعهم على مبدئهم اللادينى من حيث لا يشعرون. (ص٩

٢٠) . وقال إن سلبية الصالحين والمتدينين من المسلمين بدعوى اعتزال الفتنة لا يصلح عذراً لـهم أمام الله ، لأن وجه الحق بيِّن لا شـبهة فيه . فالقتـال قائم بين الحق الصـريح وبين الباطل الـصريح (ص٨) . ورد على الذين نـصحوه بأن لا يهاجم مصطفى كمال لتعلق المسلمين به ، قائلا إنه ليس من وظيفة العلماء محاباة العامة ومجاراة الدهماء ، وقدم المولف نماذج مـما كتب بعض كتابهم ، مستشهداً بها على استخفافهم بالقرآن وبالتعاليم الإسـلامية ، ومجاهرتهم بأنها مما لا يمكن تطبيقه فى القرن العشرين[٣] (ص٧٢) . كما قدم نماذج من دعوة بعض متطرفيهم إلى الـتخلـص من سلـطان الديـن وتجاهـله فـى تدبيـر سياسـة الدولة ، اقـتداء بالأوربيين وبالثورة الفرنسية خاصة (ص٨٤، ١٣٢- ١٣٤، ٢٠٢- ٢٠٧) وضرب المؤلف أمثـلة لما عبثوا فيـه بالشرع ، حين سنوا مـن القوانين ما يخالـفه ، مثل إباحتهم إختلاط الرجال بالنساء[٤] ، وتحديدهم حداً أدنى لســن الزواج فى البنين والبنات ، وتحـريم ما أحل الله من تعدد الزوجات ، بعـد أن حرفوا كلام الله عن وجهه فـاستشهـدوا بقوله تـعالى : ﴿ **ولن تسـتطيعـوا أن تَعْدلُوا بـينَ النِّسـاء ولَوْ حَرَصْتُمْ** ﴾ مع ما فى إستدلالهم من سخـف « لأنه يؤدى إلى القول بأن الله تعالى أبطل ما شـرعه من نكاح ما طاب مـن النساء ﴿**مَثْنى وثُلاثَ ورُباع**﴾ وجعله عبثًا ولغوًا ، وأن رسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم وكلٌ من جمع بين الأزواج من علماء المسلمين غلطوا فى فهم معنى القرآن الكريم وخفى عليهم امتناع رعاية العدالة الـمشروط بها جواز الجـمع - ص٦٧- ٦٨» وتكلم المؤلـف فى مواضع متفرقة من كتابه عن فساد دين مصطفى كمال وسوء سيرته[٥] .

وروى فيما يروى عنه حديثًا جرى بينه وبين صحفى فرنسى ، زعم فيه أن تعلق الترك بـالخلافة الإسـلامية هو سـبب شقائـهم . وكان من بـين ما قالـه فى هذا الحديث: (إن نبينا أمر تلاميذه أن يدعوا الأمم إلى دين الإسلام ، ولم يأمرهم أن يتولوا حكوماتهم). ويعلق المؤلف علـى هذا الحديث منبهًا إلى جهل مصطفى كمال فيقول: «وتعبيره بالتلاميـذ عن أصحاب رسول الله ﷺ ينبىء عما فى ضميره من عدهِّ ﷺ كشـيخ زاوية أو أستاذ مدرسة ، أو يـدل على أنه أخذه من تـعبيرات النصارى ، حيث يعبرون عن حواريى سيدنا عيسى بالتلاميذ (ص٨٩- ٩١) .

وقد بين المؤلف فى كلامه عن عصبية الكماليين لجنسهم أنهم قد ذهبوا فى التعصب لطورانيتهم إلى حد العداوة للإسلام ومهاجمته باعتباره دينًا عربيًا وإحيائهم لعقائد الترك الوثنية(٦) السابقة على إسلامهم ، كالوثن التركى القديم (بوزقورت) أو الذئب الأبيض ، الذى صوروه على طوابع البريد(٧) (ص٦٨ ٧٠)، ووضعوا له الأناشيد، وألزموا الجيش أن يصطف لانشادها عند كل غروب وكأنهم يُحِلُّون تحية الذئب محل الصلاة ، مبالغة منهم فى إقامة الشعور الجنسى مقام الشعور الإسلامى (ص١٥٩) . وقد سفه المؤلف هذا المذهب قائلاً : «وإنما مرماهم فى إعادتنا إلى شعائر آبائنا القدماء ، الذين قطع الإسلام انتسابنا إليهم وعلاقتنا بهم ، إلى تبعيد الأمة بأية صورة كانت من شعائرها الإسلامية وروابطها التى يكرهونها قدر ما يحبون منفعتهم المادية الذاتية (ص ٩٥- ٩٩ ١٦٨- ١٨٠) ويقول المؤلف إن المسلمين قد انخدعوا وأحسنوا الظن بالكماليين حين رأوهم يطالبون فى مؤتمر (لوزان) بمبادلة المسلمين الساكنين فى بلاد اليونان بمن بقى فى الأناضول من الأروام . والواقع أن العصبية الإسلامية لم تكن هي الدافع إلى ما فعلوه . ولكنهم قصدوا بذلك استقدام أنصارهم من أتراك الرُّومَللىّ - وبينهم أقارب مصطفى كمال وخواصُّ أعوانه - ليستعينوا بهم على أتراك الأناضول المعروفين بصدق إسلامهم ، وليسلطوهم عليهم . ويقول المؤلف إن الكماليين لا يدينون إلا بالنفع المادى ، ولا يبالون ما يصيب الناس من ضرر فى سبيل تحقيق هذه المنافع(٨) . ولذلك فهم لم يبالوا ما أصاب المهاجرين من ضرر وما تعرضوا له من أخطار وما قاسوه من متاعب، نتيجة لنقص ما هيىء لاستقبالهم فى مُهَاجَرِهم . كما أنهم لم يتورعوا عن إثارة المسيحيين ضد المسلمين فى الأناضول(٩) من قبل ، حين رأوا ذلك محققًا لمصلحتهم . فقد عمدوا إلى قتل الأروام ونهبهم فى المدن والقرى التى ينسحبون منها ، ليحملوا اليونان على الانتقام من مسلمى الأناضول الذين كانوا يحتلون بلادهم بمساعدة الحلفاء عقب الحرب . وعند ذلك لم يجد المسلمون بدًا من الانضمام لمصطفى كمال ، وقد كانوا من قبل لا يؤيدونه ولا يرجون من ورائه خيرًا (ص ١٥٩- ١٦٥).

من أجل ذلك لم يكن المؤلف يبالى بانتصار الكماليين ، لأنه يتساءل : لمن هذا الفتح؟ ولماذا هو؟ وهو يجيب عن ذلك بأنه ليس للدولة، لأنهم قد «عصوها وبغوا عليها ، ثم هدموها ، وأرادوا أن يمحقوا اسمها ورسمها » . وليس للدين (لأنهم كثيراً ما صرحوا بأن تجريدهم الخلافة عن السلطة والتفريق بينهما إنما وقع بقصد التفريق بين الدنيا والدين . وكان فتح أزمير عملا واجتهاداً فى سبيل تلك الدنيا وإن قومى الأتراك إن نالوا شوكة وقوة وعدموا دينهم فلا تُؤسِّينى قوَّتهُم بل تضاعف أسفى ، لأنهم ليسوا إذن قومى بل أعداء دينى ، ولا يسرنى قوة الأعداء) وليس انتصارهم للأمة - والمؤلف يعنى بهم مسلمى الترك - « ففى قلوبهم شَنَآنٌ من اعتصم منهم بدينه . وخطتهم التى يتناجون بها ولا يحيدون عنها ، استئصال المخلصين من المسلمين ، كما أن خطتهم استئصال الدين وإنقاذ البلاد من نفوذه[١٠] فإذا كنا فى استقلال دولتنا نختار الحكومة اللادينية ونطرح الخلافة والرياسة الدينية فلا كان ذلك الاستقلال ، وَعَدَمُه مع عدم هذا الخسران أهون بل عدمه معه أهون أيضًا، إذ يرجع وِزْرُ الحكومة اللادينية حينئذ إلى غيرنا ، ونكون نحن معذورين لكوننا غير مختارين (ص ١٢٧- ١٥٠).

ويؤكد المؤلف فى مواضع متفرقة من كتابه أن الكماليين[١١] والاتحاديين[١٢] حزب واحد ، وأن الخلاف بينهما ليس خلافًا على المبادئ ولكنه خلاف شخصى مبعثه التنافس على الزعامة . فكلاهما لا يستند إلى القوة المشروعة التى تستند إليها الأحزاب السياسية ، وهى قوة الشعب وقوة الانتخاب المبنى على المحبة التامة ولكنه يستند إلى الجيش : « بيد أن العسكر كان فى زمن الاتحاديين بمنزلة الآلة وقوة الظهر لسياستهم ، فترقَّتْ تلك الآلة فى الدورة الكمالية وغدت عاملة بنفسها . وربما كان يُشَامُ فى زمن الاتحاديين بعض من علامات المنافسة والمطاولة بين فرعيهم العسكرى والغير العسكرى، فينتظم الميزان بحذاقة «طلعت» . والآن رجحت كفة العسكريين فلعنة الله على الاتحاديين . إنهم أدخلوا السياسة فى الجيش ، فسنوا هذه السنة السيئة فينا وصاروا آفة على الدولة ثم صار الجيش آفة على الدولة وعليهم » ويبين المؤلف تشابه أسلوب الاتحاديين والكماليين فى سياستهم . فهم إن أحسوا حرج مركزهم أغروا الأمة بالحرب فإن

تجنبتها الحكومة التى تخلفهم تفاديًا من التضحية فى وقت تراه غير مناسب اتهموها بالعجز واحتمال الذل ، وربما ارتقوا إلى اتهامها بالخيانة . وإذا دخلت الحرب خذلها ضباطها المنبثون فى الجمعيات السرية فى الجيش. ويبين المؤلف أن المنافسة بين الكماليين والاتحاديين هى التى دفعت الأولين إلى التشهير بالآخرين ، وأنهم جميعًا هم المسئولون عن ضياع الإمبراطورية العثمانية[١٣] منذ وضعوا أيديهم على الدولة بعد خلع عبد الحميد . ويذكر المؤلف بعض أسماء من كُتَّاب الكماليين الذين يهاجمون الاتحاديين . كما يشير إلى أن الذين وقَّعوا هدنة مندروس هم الاتحاديون الذين أصبحوا من بعدُ كماليين (ص٧٧ - ٨٠ ١١١- ١٢٢ وهوامشها).

أما صلة الكماليين - والاتحاديين من قبل - باليهود ، فيورد عليها المؤلف كثيرًا من الأمارات ، وهو يرى أن لليهود إصبعًا فى إسقاط السلطان عبد الحميد ويستدل عليه بأن (قرة صوه) الاتحادى الشهير هو الذى أبلغه قرار خلعه ، وهو يهودى (ص١٦٦)[١٤]. ويلاحظ المؤلف أن أول وفد دخل الآستانة من الكماليين كان برياسة رأفت باشا ، وقد نزل فى محفل الشرق (هامش١٦٨). ويحكى المؤلف ما دار فى إحدى الجلسات السرية بالبرلمان ، عند بدء الحرب بين تركيا وبين الإيطاليين فى طرابلس الغرب - وقد سمعه بأذنه وقتذاك،إذ كان نائبًا عن بلده (توقاد) - حين ألقى أحد النواب خطابًا أشار فيه إلى معارضة البنائين الأحرار والاشتراكيين للحكومة الإيطالية فى غزو طرابلس ، لأن فى ذلك إحراجًا لحكومة الاتحاديين الموالية للماسون[١٥] . ويقول المؤلف فى هذا الصدد «ولن تجد ملة أو قومًا خارج بلادنا وداخله دامت مودة الاتحاديين والكماليين معهم إلا اليهود بأصليهم وعودتيهم[١٦] . . فلهذا لم يسلم من اعتدائهم فى تركيا ما بين ألبانها وعربها وأكرادها وأرمنها وأروامها وشراكستها وأتراكها إلا اليهود ، وحتى إنه لم يطَّرِد اتخاذُهم ولِيجةً ولا وليًا من مشايخ الإسلام اطِّرادَ اتخاذهم من رؤساء الحاخام ص١٦٦».

ويسوق المؤلف كذلك جملة من الشواهد التى تشكك فى تواطؤ الكماليين[١٧] مع الإنجليز . منها نجاح عصمت إينونو فى مؤتمر (لوزان) وتسليم الإنجليز له

مع أنه لم يهزمهم فـى ميدان القتال . ومنها رد مستشار وزارة الخارجـية البريطانية على بعـض النواب الذين اعترضوا عـلى تسليم إنجـلترا بشروط تركيا فـى مؤتمر لوزان واعتبروه هزيمة سياسية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الإنجليز تجاه الأتراك إذ قال ردًا على أحد المعترضين : « عليك بـوزن المسألة من حيث الفرق بين دولتى الترك الـقديمة والجـديدة». ومنها أن الصـحف الإنجليـزية كانت تنـادى فى أيام السلطان وحيد الدين بتغير شكل الحكـومة الجامعة بين الخلافة والسلطة ، زاعمة أن الجـمع بين الـدين والدولـة لا يمكن مـعه ضمـان حقوق الأقـليات من غـير المسلمين . ولم تكن قيود (سيفر) الـثقيلة إلا باسم الأقليات . ولم تكن إلا نوعًا من الاضطـهاد والضغط علـى الحكومة الـجامعة بيـن الخلافة والسلـطة . ويرى المؤلف أن الإنجليز قد تشددوا فى معاملـة السلطان وحيد الدين حتى أعجزوه ثم تساهلوا بـعد ذلك مع مصطفى كـمال ليجعلوا منه بـطلا (فتعظم فتنـته فى أبصار المسلمين وبصائرهم)[18]. والرجل مـمن لا تجد الإنجلـيز مثله ولـو جَدَّتْ فى طلبه ، من حيث إنه يهدم من ماديات الإسلام ومن أدبياته -ولا سيما أدبياته- فى يوم ما لا تهدم الإنجليز نفسها فى عام. فلـما ثبتت كفايته وقدرته من هذه الجهات فوق كفايته وقدرته فى طرد اليونان من الأناضول اسـتخلفته لنفسها وانسحبت من بلادنا- هوامش ١٧٤- ١٧٦، ١٧٨- ١٧٩»[19] .

أما تجريد الخلافة من السلطة فهو يرجع فى نظر المؤلف إلى ارتداد «الحكومة التركـية وانتزاعهـا من لباسهـا الدينى - ص١١». ذلـك لأن الحكومة هـى القوة العاملة. والخلافة هى اتصاف تلك الحكـومة بصفة دينية . فإخراج الحكومة عن الخلافة إخراج لها عن الدين. (ص٢٣). «فالكماليون قد نقلوا ما أحبوه من السلطة إلى من أحـبوه وتركوا مـا كرهوه من الـخلافة فيـمن كرهوه - ص ٣٢» وتـركوا الخليفة فى الآستانة، مع نقلهم العاصـمة إلى أنقرة بزعم أنها أحصن موقعًا وكأنه لا يلزم فى مقر الخلافة من العصمة مثل ما يلزم فى مقر الحكومة (ص٥٣).

وليست الخلافة فى رأى المؤلف - إلا قيام حكومة نائبة مناب الرسول ﷺ فى إقامة أحكام الـشريعة . فصفة الخلافـة موجودة فى جميع الحكـومات الإسلامية المستجمعة لشرائطها على قـدر الإمكان ، وإن كان العرف العام على امتياز واحدة

معينة من تلك الحكومات بها . وإنما منع الفقهاء تعدد الخلفاء لتوقى ما قد ينشأ عنه من مزاحمة بعضها بعضا . فإذا جاز تعدد الحكومات الإسلامية ، بل كان هذا التعدد ضرورة ببعد الشقة ، فلا مانع من تعدد الخلفاء ، وإن كان الأصوب والأنفع اتخاذ واحد منهم خليفة أعظم تجتمع به كلمة المسلمين (ص ٣٩-٤٠).

« وقد رد المؤلف فى ثنايا كتابة على كثير من حجج الكماليين وأنصارهم مبينًا فسادها، كما رد على بعض ما يثيره المتفرنجون من شبهات » .

« فمن ذلك رده على من اعتذورا عن الكماليين فى فصلهم الدولة عن الدين بفساد الخلفاء علماء الدين . فهو يقول إن السبيل إلى علاج هذا الفساد تبديل المصلحين بالمفسدين لا تبديل الشريعة والدين (ص١٧، ٥٢- ٥٣) ».

« ومن ذلك رده على ما يشنعون به فى الدستور القديم من نصه على عدم مسؤولية الخليفة . فيؤكد أن الاتحاديين هم الذين كانوا يتمسكون بهذا النص ويؤكد كذلك أنه حاول تغيير هذه المادة حين كان نائبًا فحالت حكومتهم بينه وبين ذلك (ص١٠٩). كما أنهم حاولوا أن يغتصبوا حقوق المجلس وينقلوها إلى السلطان- على غير ما يفعلون اليوم - فوقف المؤلف فى وجههم يومذاك (ص١٠٦)».

« ومن ذلك دفاعه عن السلطان وحيد الدين لتشنيع الكماليين بلجوئه إلى الإنجليز إذ يبين أنه كان ضحية لحسن ظنه بمصطفى كمال . فهو الذى بعث به للأناضول وفوضه فى جمع الجيوش . وقد ظن أنه يمكر بالإنجليز ، إذ يسلك معهم سبيل الملاينة ، بينما يسلك مصطفى كمال سبيل المخاشنة « فإن نجح طريق السلم فهو طريقه . وإن نجح طريق المقاومة فهو طريقه وطريق من بعثه ووَاضَعَهُ فى ذلك وناجاه[٢٠]. ولكن الذى يأخذه المؤلف على خلفاء العثمانيين هو أنهم لم يجاهدوا هذه الدعوات الإلحادية حق الجهاد . وهم عنده مسؤولون عن هذا المصير الذى صار إليه المسلمون - ص١١٢، هامش ٤٥- ٤٦».

« وقد كان من أحسن ما وفق المؤلف فى تجليته وبيان وجه الحق فيه شبهتان يثيرها المتفرنجون ، تتعلق إحداهما بالأحكام الشرعية ، والأخرى بعلماء الدين

فهم يقولون فى الأولى : كيف يمكن أن تكـون الحكومة حرة ومستقلة إذا قيدت نفسها بالـدين ؟ وقد كان رد المؤلف على ذلك : إننا إذا اعـتقدنا أن دين الإسلام نعمة للمـسلمين وسعادة لهم فى الدنـيا والآخرة ، فلا ينافى حريتَهــم واستقلالهم كونُ حكومتهم ممنوعةً من التخطى إلى ما وراء حدود الدين. ثم بين أن المقصود بالحرية هو حرية الأمم تجاه الحكومات، لا حرية الحكومات فى القيام بأمورالأمة ولهذا تقيد الشـعوب الحرة حكوماتها بالقوانـين وتلزمها بالتمسك بهـا وتمنعها من التزحـزح عنها ، أو الـتلاعب بهـا . وكما يتسـنى للحـكومة المـستبدة الـتلاعب بالقوانين عن طريق تأويـلها بما يناسب شهواتها، فكذلك يتسنـى لها ذلك بتبديلها وتغييرها «ولا يوجد عظيم فرق بين تخطى القوانين بإهمالها وبين تخطيها بإبدالها » وموافقة النواب على تبديل القوانين ليست دليلا على رضا الأمة «ولهذا يُحتاج فى بعض البلاد إلى توثيق القوانين الصـادرة من البرلمان بعرضها على الأمة . مع أن الأمة نفسـها تحتاج إلى رقيب مـن نفسها ودساتير أولـية فكرية أدبية ارتكـزت فيها تقيها الخطأ والزلـل فى اجتهادها الذى تبنى عليه قوانينـها . . فيلزم أن يكون لسن القوانيـن حدود يوقف عندهـا . وبعبارة أخرى يلـزم أن توجد قوانين أسـاسية لا يتخطـاها نُظَّام القوانيـن ، ولا يسوغ لهم تبديلُـها . . . وتلك القوانيـن الأساسية أسلمُـها ما كانت سمـاوية ، لمَا أنَّ تغـييرها ليـس فى وسع البشر فـهى أحرى أن تكون تُخُومَ الاستناد وتتخذ آخرَ مفْزَعٍ لإصلاح الفساد الناشئ من أنفسهم ، ومنهم نُظَّامُ القوانين ص١٣٧- ١٤٢».

« **أما الشـبهة الثـانية** : التى يكـثر المتفرنجـون من ترديدها ، فهى قـولهم فى الدعوة إلى عدم الاعتداد بالعلماء المعممين : « لا اختصاص لواحد من صنوف المـسلميـن فى العلـم بالدين ، ولا امـتياز ولا رهبـانية فى الإسـلام » . وقد رد المؤلف على ذلـك بقوله : «ولكن هناك طائفة قال الله تـعال فى شأنهـم ﴿ **فلولا نَفَرَ من كلٍّ فرقة منهم طائفةٌ ليتفقَّهوا فى الدِّين وليُنْذروا قومَهم إذا رَجَعُو إليهم لَعَلَّهم يَحْذَرون** ﴾ . حتى استثنى سبحانه وتعالى تـلكَ الطائفة من فريضة الجهاد هامش ص١٤٥» . ولذلك فـالمولف يدعو علمـاء الدين للاشتغال بالـسياسة . إذ

يقول فى موضع آخر : « والذين جردوا الدين من ديارنا عن السياسة كانوا هم وإخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين ، بحجة أنه لا ينبغى لهم وينقص من كرامتهم . ومرادهم حَكْرُ السياسة وحصرها لأنفسهم ، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العَجَزة . فيقبّلون أيديهم ويخيّلون لهم بذلك أنهم محترمون عندهم ، ثم يفعلون ما يشاؤون بدين الناس ودنياهم ، محررين عن احتمال أن يجىء من العلماء أمرٌ بمعروف أو نهى عن منكر إلا ما يعد من فضول اللسان ، أو يكمن فى القلب ، وذلك أضعف الإيمان فالعلماء المعتزلون عن السياسة ، كأنهم تواطأوا مع كل الساسة ، صالحيهم وظالميهم ، على أن يكون الأمر بأيديهم ويكون لهم منهم رواتب الإنعام والاحترام ، كالخليفة المتنازل عن السلطة وعن كل نفوذ سياسى . . . هامش ص ١٣٠- ١٣١» .

« ويتخلل الكتابَ بعد ذلك كله تنديدٌ بالمصريين وتسفيه لآرائهم فى مواضع متفرقة لا شك أنها من آثار سوء استقبالهم إياه وتجنيهم عليه بعد أن هاجر إليهم فراراً بدينه وحياته »[٢١].

« ولم ينتهى المؤلف من طبع كتابه حتى وردت الأنباء بإلغاء مصطفى كمال للخلافة . فألحق المؤلف بالكتاب فصلا قصيراً ختمه به ، وجعل عنوانة (قَطَعتْ جَهيزَةُ قَوْل كلِّ خطيب » وقد ذكرّ فيه المسلمين - والمصريين خاصة بما قاله فى الكماليين : « وقد أردت أن أبين لهم الحق قبل هذا بسنة ونصف سنة فأمطروا علىّ الشتم واللعن . وكررت النذير بعد سنة فكرروا النكير ، وأصروا على ضلالهم وتحبيذ الضلال الكمالى ، إلى أن اعترفوا بالحق ، وعنفوا الحكومة التركية حين لا ينفع الاعتراف والتعنيف . فقد سَبَقَ السيفُ العَذَل ، وشابه الجد فى إبطائه الهزل ، فما لَصَوْلة صحفهم اليوم على مصطفى كمال وحكومته إلا قمةُ الندم . . . فليفتح عالم الإسلام عينيه ، وليأخذ حذره من الملحدين الذين دبت عقاربهم ونجحت فى بلادنا تجاربهم ، فلا ينقذه المسلك الذى سلكه . ينام وينخدع بهم إلى ما شاء الله وشاؤوا ، ثم يتنبه بعد ما كانت الكائنة ولات حين جدوى لذلك الانتباه . . . الخ)».

مراجع الفصل

(١) هذا المبحث مأخوذ نصا من الاتجاهات الوطنية جـ٢، صفحة ٧٤، وما بعدها أنظر ما كتبه الأستاذ الدكتور محمد حرب عن شيخ الإسلام مصطفى صبرى فى كتابه العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، صفحة ٢٠١- ٢٢٠.

(٢) الأسرار الخفية ، راء إلغاء الخلافة العثمانية ، دراسة حول كتاب . النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والنعمة لشيخ الإسلام مصطفى صبرى تقديم ودراسة د. مصطفى حلمى ، دار الدعوة الاسكندرية ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م صفحة ١١٩ - ١٧١ الإسلام والخلافة فى العصر الحديث ، أ.د محمد ضياء الدين الريس، أستاذ النظم الإسلامية ، دار التراث ، القاهرة .

(٣) صور أرمسترونج فى كتابه « الذئب الأغبر » الذى مجد فيه مصطفى كمال ما كان يتصف به هذا الرجل من انحلال خلقى . . فقال إنه كان سكيراً مدمنًا على القمار يسهر على مائدته طول ليله . وكان يتنزل فى مقارفة المريبات من الخبيثات والمتبذلات إلى أدنى الحدود ، حتى لقد أصيب فى بدنه من جراء ذلك بالأمراض الخبيثة ، ثم هو يصفه بعد ذلك بأنه وصولى ، ليس للوعود عنده قيمة إلا أنهاّ وسيلة لغاية وسلم إلى هدف .

(٤) وهذا هو موقف كل الانقلابات العسكرية التى وقعت فى العالم العربى والإسلامى.

(٥) وهذا هو ما فعله الإنجليز والفرنسيون وبقية جنود الإحتلال فى كل بلاد العالم الإسلامى حيما أشاعوا الاختلاط فى المدارس والجامعات والادارات والمواصلات وحينما حكم العسكر زادوا الطين بلة .

(٦) وهذا هو ما فعله الإنقلابيون الذين جاءوا من بعده وساروا على نهجه فى بقية ديار المسلمين ، ففى مصر مثلا نجد حرصا على إحياء رموز الوثنية الفرعونية وحكامها مع نصب تماثيلهم فى المتاحف والميادين بل واتخاذهم قدوه وأسوة فالنشاط الطلابى مثلا يتخذ شعاراً هو عبارة عن الوثنى حورس .

(٧) طوابع البريد بل وأوراق البنكنوت يتم تزيينها بصور أبى الهول وخفرع ورمسيس الثانى والهدف الظاهر احياء الوثنيات القديمة . رغم أن أمريكا تكتب على ورقتها

المالية (الدولار) . . « نحن نثق فى الله » !!.

(٨) وهذا هو الذى يسعى إليه حكم العسكر الذى ابتليت به بلاد المسلمين.

(٩) إثارة الفتن الطائفية ، والإعتماد فى ذلك على الأقليات غير المسلمة فى بلاد المسلمين وسيلة من الوسائل التى يَتبنّاها أعداء الإسلام وعلى رأسهم الاستعمار الأوربى لتمزيق وحدة العالم الإسلامى .

(١٠) وهذا هو المخطط الذى قام حكم العسكر على تنفيذه فى ديار الإسلام .

(١١) أعوان مصطفى كمال أتاتورك .

(١٢) أعضاء تنظيم الاتحاد والترقى الماسونى .

(١٣) كما أن حكام العرب هم المسؤلون عن ضياع فلسطين ومعظم ديار العالم الإسلامى.

(١٤) ويؤيد الشيخ مصطفى صبرى فيما ذهب له كثير من المراجع ، مثل أرمسترونج فى كتابه عن حياة مصطفى كمال « الذئب الأغبر » فقد قرر أن « الاتحاد والترقى » كانت تعقد اجتماعاتها فى بيوت اليهود المتمين للجنسية الإيطالية والجمعيات الماسونية الإيطالية . كما روى أن بعض الاتحاديين - ومنهم فتحى صديق مصطفى كمال - كانو منضمين للماسون، وأنهم قد اقتسبوا أساليبهم فى تنظيم جمعيتهم. وقد كان وزير مالة الاتحاديين يهوديًا هو "يافيد " . ثم كان من طائفة الدونمة وهو جاويد . كما كانت وزيرة المعارف فى عهد الكماليين من أصل يهودى وهى (خالدة أديب)- راجع «الذئب الأغبر » فى صفحات ٢٩ - ٣١ ، ٣٧ وراجع كذلك فى صلة الاتحاديين باليهود كتاب « جزيرة العرب فى القرن العشرين » ص ٢٢١- ٢٢٣ وكتاب حاضر العالم الإسلامى ١ : هامش ١٥٠ ، Seven Pillars Wisdom ص ٥٤ وراجع كلام مصطفى صبرى عن خالدة أديب فى كتابه هذا هامش ص ١٥٧ .

« والذى يبدو لى أن خلع عبد الحميد كان جزءاً من مؤامرة اليهود لاغتصاب فلسطين ولم يكن ذلك ممكنًا إلا بانحلال الامبراطورية العثمانية . وليس بين المؤامرة التى انتهت بسقوط عبد الحميد وبين صدور وعد بلفور إلا تسع سنوات وقد شوه اليهود سيرة عبد الحميد وشنعوا به ، وجازت فريتهم على المسلمين مع أن الرجل كان يقاوم النظم النيابية لأن الداعين إليها كانوا مجموعة من ملاحدة المتفرنجين

المعارضين لسياسة عبد الحميد الاسلامية ، والواقعين فى أحابيل الصهيونية العالمية . وقد دفع اليهود إلـى محاربة السلطان عبد الحـميد أنه منع هجرتهم إلـى فلسطين سنة ١٨٩٢م . ولم تفلح كل حيلهم ومن بينها تدخل بعض رؤساء الدول فى حمله على تغير رأيه .

(١٥) وراجع كذلك ما يؤيد هـذا فى رسالة أحد يهود فلسطين إلى السـيد محمد رشيد رضا أيام حرب طرابلس « تاريخ الأستاذ الإمام ١، ٧٢٩».

(١٦) يقصد بهم الجمـاعة المسماة بالدونمة - أى المرتدين - وهـم جماعة من اليهود الذين كانوا يتظاهـرون بالإسلام . ومعظمهم من النازحين إلى تركيـا من أسبانيا بعد أن إستولى عـليها النصـارى فى أعقاب الحكم الإسـلامى . وكانت مدينـة سلانيك تضم عدداً كثيراً منهم .

(١٧) هذا مما يتـفق مع أسـاليب السـياسـة الإنجليـزية . ويمكـن مقارنـته بما حدث عقب أغـتيال السـردار من توجيه شروط قـاسية لوزارة سـعد ، لكى تكـون هناك فرصة لمجاملة الوزارة التالية الموالية بتـخفيف بعض القيود كما يقول اللورد ويفل Allenby in Egypt ص١١٤» .

ومما يتفـق مع أساليب إنجلترا السياسية كذلك أنهـم حموا وحيد الدين من الكـماليين حين لجأ إليهم ، ونقلوه إلى مالطة ليكون أداة فى يدهم للضغط على الكماليين وتهديدهم.

(١٨) التـواطؤ مؤكد فـقد ذكر ذلـك الدكتور إبـراهيم حسـون فى كتـابه تاريخ الـدولة العثمانية ، صفحة ٢٠٢ .

(١٩) ويؤيد أرمسترونج فى كتابه « الذئب الأغبر » ما ذهب إليه المؤلف هنا . ويستطيع القارئ أن يجد فى ثنايا الكتاب أدلة كثيرة على اتـصال مصطفى كمال بالحلفاء جميعًا إنجلترا وفرنسا وأمـريكا وإيطاليا - وبإنجلترا خاصة ، فى أثـناء الحرب حين كان فى جبهة الشـام ، وبعد ذلك ، وتدخلهم لمصـلحته فى حربه مع اليونـان أكثر من مرة وإمداده بالأسـلحة ، وفى الوقت الـذى كان يتلقى فـيه أموالا وأسلحة مـن روسيا أيضًا . وأعـجب ما فى ذلك أنه كـان يتلقى المـدد من الجبهتـين المتعاديـتين وأن الإنجلـيز أعانوه عـلى اليونـان وهم حلفـاؤهم « راجع صفـحات ٩٦، ١٣٢ , ١٤٠

١٤٢ , ١٦٠، ١٦١، ١٦٦، ١٧٤، ١٧٥، من كتاب ، مصطفى كمال ، الذئب الأغبر» .

ومن أصرح ما جاء فى تأييد ذلك قول الباحث الفرنسى "أوچين يونج فى كتابه : «استبعاد الإسلام » مشيراً إل ما كان من اتصال سرى بين الحلفاء وبين الكماليين أثناء الحرب : « ووقعت إلى ، فى سنة ١٩١٧ مسودات كتاب نفيس عنوانه «الإسلام وسياسة الحلفاء» لمؤلفه الدكتور " انساباتو الإيطالى "العالم والرحالة الكبير . وقد حالت المراقبة دون ظهور ذلك الكتاب قبل سنة ١٩١٩ . فالمؤلف قد أودع كتابه أموراً تمت فيما بعد ، أى تصيير تلك البلاد علمانية ، وبعبارة أخرى نبذ الخلافة والجامعة الإسلامية ، وهو السلاح الذى لا يجدى نفعًا ، والتحول نحو الماضى فعاد التركى مغوليا ، وصاروا فى المدارس يعتبرون " چنكيز خان " كإله وفكروا فى تهيئة القوم لانتحال البوذية ديانة لهم . وقد تحققت جميع الأحلام ،ما عدا الأخير منها ، فإنه لم تتمخض به الأفكار بعد » - استبعاد الإسلام ص ١١ .

(٢٠) هامش ص ٤٢- ٤٥ . وراجع كذلك كلامه عن الاتحاديين - والكماليون منهم الذين زجوا بتركيا فى الحرب ، عل غير رغبة السلطان وعلى غير رغبة معارضيهم - وقد كان المؤلف منهم - ثم وقعوا عقد الاحتلال . ومع ذلك كله فهم يلومون الخليفة لاستسلامه لعواقب هذه الهزيمة التى جلبوها عليه بأيديهم (ص١٠٧ ١٧٦).

(٢١) راجع أمثلة لذلك فى صحات ١٦، ١٧، ١٩، ٢١، ٥٧، ٦٤، ٦٥، ١١٠ هامش ١٢٢، ١٢٣، ١٨٢، هامش ١٩٠، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥.

* * *

الفصل السابع

تقويم فترة حكم

الدولة العثمانية للعالم الإسلامى

مقتطفات من

شهادة المؤرخين للدولة العثمانية

أولا : الشيخ عبد الرحمن الجبرتي(١) :

«وعـادت مـصـر في عـهـد السلطان سليم الأول العـثـمـاني (٩١٨-٩٢٧هـ/١٥١٢-١٥٢٠م) إلى النيابة كما كانت في صدر الإسلام ، ولما خلص له أمر مصر عفا عمن بقي من الجراكسة وأبنائهم ، ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية ، بل قدر مرتبات الأوقاف والخيرات وغلال الحرمين ورتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف القلاع والمرابطين . وأبطل المظالم والمكوس والمغارم .

ولما توفي السلطان سليم الأول تولى بعـده ابنه الغـازي السلطان سليـمـان (٩٢٧-٩٧٤هـ/١٥٢٠-١٥٦٦م) عليه الرحمة والرضوان ، فأسس القواعد وتمم المقاصد ونظم الممالك وأنار الحوالك ورفع منار الدين وأخمد نيران الكافرين ، وسيرته الجميلة أغنت عن التعريف، وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين ، وأشد من ذب عن الدين، وأعظم من جاهد المشركين . فلذلك اتسعت ممالكهم بما فتح الله على أيديهم وأيدى نوابهم ودانت لهم الممالك في الطول والعرض هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحي والثغور وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية ، وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع فتحصنت دولتهم وطالت مدتهم وهابتهم الملوك وانقاد لهم الممالك والملوك وكانت منشآت السلاطين العسكرية في المدفعية والهندسة العسكرية وشئون الإمدادات والنهوض فوق مستوى عصرهم . كما لم يكن في وسع أي دولة من دول غرب أوربا أن تقاوم فرق السباهية والانكشارية»(١) .

ثانياً: الأستاذ الدكتور إحسان حقي (٢) :

(أ) هل كان العثمانيون مخربين ؟

«بعض الناس ، ولا سيما أولئك الذين يعيشون متأثرين بالدعايات الأجنبية أو الذين تلقوا علومهم من الأجانب فقط من غير أن يرجعوا إلى التراث ، يتهمون العثمانيين بأنهم مخربون بدليل أنهم تركوا البلاد على حالها كما وجدوها .

وهذا القول بقدر ما يدل على الافتراء فإنه يدل على الجهل بالتاريخ لأن العثمانيين لم يكونوا من هذه الناحية دون غيرهم بالنسبة إلى زمانهم ، فلم تكن بلادهم دون بلاد أوربا عمراناً ، وحينما نقول : بلادهم إنما نعني بلاد الإمبراطورية بما فيها مصر وسوريا

والعراق والشمال الافريقي وأوروبا الشرقية وغيرها . وإذا ما علمنا بأن العثمانيين هم ورثة حضارة وعمران الأمويين والعباسيين والأيوبيين وغيرهم وأن هؤلاء قد خلفوا من العمران ما هو من أبدع آيات زمانه وأن العثمانيين قد حافظوا على هذا التراث وزادوا عليه ، أدركنا أن تهم التخريب افتراء محض .

وعلى الرغم من أن العثمانيين كانوا أمة حرب وقتال لا بل كانوا أعظم أمة حربية، فإنهم لم يكونوا مخربين قط بل كانوا ، إذا ما قسناهم بغيرهم من الأقوام أمة عمرانية من طراز رفيع وإن ما بنوه من تكايا ومدارس ومشافي وجسور ومطاعم مجانية للفقير ، وقصور وخانات وحمامات لأكبر دليل على نزعتهم العمرانية . وإن المساجد التى بنوها وبلغوا درجة الكمال في اتقانها وجمالها والتى ما زالت قائمة من حدود النمسا إلى أقصى حدود مصر وما فيها من ضخامة وفخامة وجمال وتناسق لأكبر دليل على ما كانوا يتمتعون به من ذوق فنى وحب للعمران .

وإذا تجاوزنا ناحية العمران إلى الناحية الفنية نجد الفضل يرجع إلى العثمانيين فى تحسين وتجميل أنواع الخطوط العربية وضبطها فى قواعد علمية حتى غدا الخط العربى فناً من الفنون الجميلة وهذا ليس من شأن المخربين .

«وأما فى الحرب فهم أهله وأربابه وإن ما فعله محمد الفاتح من إزلاق السفن من البحر إلى البر ثم إلى البحر (٣) ثم اختراع المدفع السلطانى دليلان على ما كان عليه العثمانيون من سلامة العقل والتفكير ومن كان مفكراً لا يكون مخرباً» .

«ثم إن الشىء الذى يجب ألا نسهو عنه حينما نتحدث عن الدولة العثمانية هو أنه يجب علينا أن نقومها ونقوم أعمالها بالنسبة إلى زمانها وإلى ما كانت عليه الدول الأخرى من سوء حال بالنسبة إلى الأزمان السابقة لا أن نقومها بالنسبة إلى زماننا».

«ثم إننا حينما نطلق لفظ مخرب على أمة من الأمم إنما نعنى أمة متوحشة تلجأ إلى الهتك (٤) والفتك تهدم البلدان وتعتدى على السكان وتقطع الأشجار وتردم الآبار وترتكب المظالم فى البلاد التى تستولى عليها ولم تكن هذه حال الدولة العثمانية بل كانت على العكس من ذلك تماماً .

«إن الدولة العثمانية لم تكن دولة مخربة فإنها كانت ، بفضل الدين الإسلامى . أرقى بلاد العالم ، آنذاك ، من الناحية الاجتماعية فكانت عنايتها بالنظافة لا مثيل لها

وكانت حماماتها تعم المدن الصغيرة بل الكبيرة فى الوقت الذى كان فيه قصر فرساى على عظمته ، خاليًا من مرحاض ومن حمام ، وإن أول من أدخل الحمامات إلى القصور هو نابليون الأول بعد رجعته من مصر ولكن الفرق بين العثمانيين وبين الغربيين هو أن الغربيين تعلموا منا ثم ساروا فى إصلاح أنفسهم خطوات إلى الأمام بينما لم يترك الغربيون للعثمانيين مجالا لكى يخطوا خطوة واحدة إلى الأمام بل أشغلوهم بحروب متواصلة ، ومع ذلك فقد فعلوا ما قدروا عليه ولم تكن البلاد العثمانية على سعتها أسوأ حالا من غيرها من بلاد العالم ، وكل ما فى الأمر أن الخطوة العثمانية جاءت متأخرة عن خطوات بعض الأمم الغربية إلا أنها لم تكن مهملة فقد أنشئت فيها المرافق ومدت الخطوط الحديدية وانتشرت أسلاك البرق وفتحت المدارس متنوعة المناهج».

«ولولا إخلاص رجالات الدولة العثمانية لكان من الصعب عليها أن تأتى بأى عمل إصلاحى ، وهى تنفق كل ميزانيتها على الحروب التى كانت دول الغرب تتعمد إثارتها لكى لا تترك للسلطنة العثمانية وقتًا للراحة أو للتفكير فى العمران».

«وإن من يقرأ التاريخ يعلم أن النهضة الغربية العمرانية هى وليدة مئتى سنة على أكثر تقدير ، وكانت البلاد قبل ذلك حتى العواصم الأوروبية أشبه بالقرى المتأخرة بينما كان الناس فى بلادنا ينعمون بكثير من أسباب الراحة والرفاهية وفى باريس ولندن حتى الآن ، أحياء قائمة تدل على هذه الحقيقة».

هل كان العثمانيون مستعمرين(٥) ؟

«من الأمور التى أراد أهل الغرب أن يوقروها فى نفوسنا هو أن العثمانيين كانوا مستعمرين ، وفى كل بلد حلها الغربيون المستعمرون أعلنوا أهلها أنهم إنما أتوا إليهم لإنقاذهم من المستعمر العثمانى . فحينما دخل الفرنسيون الجزائر أعلن قائد الحملة أنه جاء لإنقاذ الجزائر من الاستعمار وكانت النتيجة أنهم قضوا على استقلال الجزائر واستعمروها ١٣٠ سنة أسوأ استعمار ، ولما دخل نابليون مصر أعلن أنه جاء لإنقاذ المصريين من استعمار المماليك ، ولما استولى المستعمرون على بلاد الدولة العثمانية أخذوا يوقرون فى نفوس أهل البلاد أن الدولة العثمانية كانت فى بلاد العرب مستعمرة وسار الأطفال الذين تلقوا هذه الدروس عن المستعمرين والمغرضين والحاقدين على النهج وصدقوا هذا القول ولا يزال إلى يومنا هذا يوجد أناس يسمون الحكم العثمانى فى بلاد

العرب استعماراً».

«وإذا كان العهد العثمانى قد مضى وانقضى فإن واجب الإنصاف يقتضينا أن نزيل من الأذهان هذه التهمة المغرضة التى أراد أعداء الإسلام تثبيتها فى نفوس الناشئة لكى يباعدوا بينهم وبين الأمة التركية المسلمة».

«فالعثمانيون لم يكونوا إخواناً للعرب ومساوين لهم فى الحقوق والواجبات بل العالم كله يعرف أن تسامح الدولة العثمانية مع العناصر الغريبة ، عنصراً وقومية وديناً ، قد بلغ حداً لم يبلغه أى قوم فى العالم ، فالعثمانيون مسلمون، والمسلمون لا يفرقون بين أبيض وأسود، ولا بين عربى وتركى، ولا بين مسلم وغير مسلم فى المعاملة».

«فإذا صح أن نقول بأن العثمانيين كانوا مستعمرين فى بلاد العرب يصح أن نقول الأمويين مستعمرين فى سوريا والعباسيين مستعمرين فى العراق، والفاطميين مستعمرين فى الشمال الإفريقى، والأيوبيين مستعمرين فى مصر وسوريا، وهلم جرا وإذا كان هذا باطلا بالبديهة: كان القول بالاستعمار التركى باطلا أيضاً . فالأتراك كانوا مسلمين والمسلم أخو المسلم أينما كان، هذا بالاضافة إلى أن العرب كانوا شركاء الأتراك فى الحكم فكان منا الوزراء، ومنا الولاة، ومنا القادة. ولم يكن ما يفرق بيننا وبين التركى ، لا بل كانت اللغة العربية هى اللغة الرسمية المستعملة فى البلاد العربية فى القضاء والإدارة إلا ما كان منها ذا علاقة ببلاد الأتراك . وإذا كان الأتراك لم يفرقوا بين التركى وبين العربى والبلغارى والرومانى واليونان وغيرهم وكانوا يولونهم الوزارات والإمارات وهم على دينهم أحياناً أو بعد إسلامهم فى بعض الأحيان فكيف يصح أن نقول بأن العثمانيين كانوا مستعمرين؟!»..

«إن الإسلام هو قومية المسلم فحينما يكون الإسلام تذوب القوميات ولو تنبه المسلمون إلى هذه الناحية وعملوا على تحقيقها لما أصابهم ما أصابهم من ذل وهوان بتأثير أقوال مغرضة ليس لها من هدف إلا تفكيك الرابطة الإسلامية التى هى حمى المسلمين الذى يجب أن يظلوا محتمين به وإلا تشتتوا .

كتب عبد الرحمن عزام باشا فى الأهرام بتاريخ ١٩٤٤/١٠/٢٢م — ١٣٦٤هـ يقول: «لما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا وكلها سجون أبدية يتوالد فيها الفلاحون للعبودية ، فكسروا أغلال السجون وأقاموا مقامها صرح الحرية الفردية ، فهم الذين قضوا

على نظام الاقطاع والارستقراطية ليحل محله نظام المواطن الحر والرعية متساوية الحقوق ، فوصل في دولتهم الرقيق التركي والصقلي وغيره إلى أكبر مقام في الدولة كما وصل النابه من عامة الناس ، حتى مجهول الأصل ، إلى مقام الصدارة العظمى والقيادة العليا ، وتعلمت أوروبا الشرقية على أيدى محرريها سيادة القانون على الأحساب والأنساب والطوائف والنحل».

«فترتب على ذلك تطور هائل في اتجاه الحرية والديمقراطية الغربية الحديثة وكانت القرون الأولى لسيطرة آل عثمان عصوراً ذهبية شمل فيها الناس الأمن والرخاء والسلام الروحي، ولم يكن فوز آل عثمان مستمداً، كما يظن بعض الناس ، من السيف والشجاعة؛ بل كان مما هو أعظم من السيف ومن الشجاعة، وهو احترام الحق والوفاء بالعهد والخضوع لسلطان الشرع والقانون».

«ولو كان الأمر كما تصوره الذين ينخدعون بآثار دور الانحطاط من استخدام الطوائف والغيرة بين العناصر والبطش لتغطية الضعف لاستحال أن يدوم ملك آل عثمان ستمئة سنة منها مئتا سنة لا يسندهم فيها إلا سيف مبتور».

«لقد رويت ليَّ في رحلاتي بالبلقان وملدافيا أمثلة باقية في لغة العامة من عدل آل عثمان بين بيوت الملك الذى طال أمده وتنوعت رعاياه وقد ثقلت كفته بالخير والرحمة والمروءة والشرف».

«هذا بعض ما قاله أمين سر جامعة الدول العربية بحق آل عثمان».

(ب) الثورة التركية ومصطفى كمال(٦)

«سبق أن ذكرت أن كبار رجال حزب الاتحاد والترقي الذين كانت في أيديهم مقدرات البلاد قد فروا من البلاد، ومنهم من كان يرجو أن يعود إليها فاتحاً ومنهم من كان ينوى اعتزال السياسة وإفساح المجال لغيره . وأما القادة العسكريون الذين لا علاقة لهم بالسياسة ويأتون في الدرجة الثانية بين القادة ، أمثال: جمال باشا المرسيني المشهور بالصغير ومصطفى كمال باشا ووهيب باشا وفخرى باشا وكاظم قرة بكر وغيرهم فقد عاد من كان منهم خارج البلاد إلى بلاده وبقى فيها من كان فيها .

وكان السلطان محمد وحيد الدين يدرك أن وجود تركيا لازم لدول الغرب لإقامة

التوازن بينها. وإن إنكلترا وفرنسا لن تسمحا بالقضاء على تركيا قضاءً مبرماً لأنهما بذلك تفسحان المجال أمام روسيا للاستيلاء على الأناضول وبالتالى على مضيقى البوسفور والدردنيل مفتاحى العالم ، بل كل ما تريدانه هو تشذيب أطراف الدولة العثمانية وجعلها دويلة صغيرة مثل دول البلقان وباقى الدول التى كانتا تنويان خلقها فى المنطقة على أنقاض الدولة العثمانية . واستناداً على هذا التفكير السليم كان السلطان محمد وحيد الدين يعلم بأن استرجاع بعض ما أخذ لا يتم بالهبة بل لابد من القتال فى سبيله لاسترجاعه وبالتالى لابد من القيام بثورة فى البلاد. وحيث أن السلطان كان يعرف مصطفى كمال إذ كان مرافقاً له يوم ذهب ، وهو ولى عهد، إلى برلين ليقدم للإمبراطور كيوم سيفاً مهدى إليه من السلطان محمد رشاد ، فقد اتخذه يوم عاد من الجبهة الفلسطينية مدحوراً مرافقاً له ثم عهد إليه سراً بأن يقوم بثورة فى شرق الأناضول حتى يتسنى لرجال السياسة أن يحاوروا ويناوروا أثناء عقد الصلح ليأخذوا أكثر ما يمكن أخذه من الأعداء . وللتغطية على هذه الثورة عن عيون الأعداء عامة والإنكليز خاصة الذين كانوا يسيطرون على إستانبول ، عينه مفتشاً عاماً لجيوش الأناضول بصلاحيات واسعة وزوده بمبلغ عشرين ألف ليرة عثمانية ذهباً ، كما أخبرنى بذلك أحد كتاب المابين المطلعين على دخائل الأمور ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة إلى ذاك الزمن وإلى ما كانت عليه خزينة الدولة من عجز وإفلاس.

«ذهب مصطفى كمال بمهمة معينة لحساب الدولة العثمانية ولكنه خان الأمانة وغدر بالسلطان وعمل لحساب نفسه عملا بالقول المأثور : أرسلته لى خاطباً فتزوج» .

«وقد ذكر شيخ الإسلام المغفور له مصطفى صبرى أفندى ، الذى حضر كل فصول هذه المأساة ، فى الجزء الأول من كتابه : «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين» بما معناه قال : كنت آنذاك شيخ الإسلام ومشيخة الإسلام تأتى فى رأس الوزارات بعد رئاسة الوزارة ولذا فإن شيخ الإسلام كان ينوب عن رئيس الوزارة فى الاجتماعات الوزارية إذا تغيب الرئيس عن حضور الاجتماع» .

«وقد أبلغتنا لجنة الحلفاء العليا المقيمة فى باريس والمؤلفة من رؤساء وزارات كل من: إنكلترا وفرنسا وإيطاليا واليونان، فى مساء ١٤ مايو ١٩١٩م / ١٣٣٨هـ قراراً يقضى بنزول الجيوش اليونانية فى أزمير ويحذروننا من المقاومة التى يعتبرونها مقاومة

لجميع الحلفاء ونقضاً للهدنة ، وفى اليوم الثانى أى فى ١٥ مايو نزل اليونان فى أزمير» (إحتلال) .

«وكان السلطان قد عهد لمصطفى كمال بالوظيفة الكبيرة ، التى نوهنا بها ، وزوده بامتيازات أخرى من المساعدات المالية والمنشورات السرية . وغادر إستانبول ، فى ١٧ مايو ١٩١٩م/١٣٣٨هـ عن طريق البحر مصطحباً معه عدداً من العسكريين والمدنيين الذين اختارهم لمساعدته ووصل مدينة صامسون فى ١٩ مايو ، وبعد أن جمع حوله فلول الجيش والأهلين بدأ ثورته . وهنا يقول صبرى أفندى ما معناه :

اطلع الحلفاء المحتلون على ما يرمى إليه السلطان من إرسال مصطفى كمال إلى الأناضول فاحتجوا إلى الوزارة القائمة فى إستانبول (المحتلة) مستندين إلى أحكام الهدنة المعقودة فى عهد الوزارة السابقة وطالبوها باستدعاء الرجل ، وحيث أن الشكايات قد كثرت ضده من الولاة بسبب ما يتمتع به من صلاحيات واسعة فقد دعوناه إلى إستانبول بلسان وزير الحربية ولكنه لم يجب . ثم تكرر الاحتجاج من قيادة الاحتلال، وتمادت أصوات الشكاية من الولاة إلى وزارة الداخلية وتكررت منا دعوة مصطفى كمال إلى العاصمة واستمر هو فى عدم الإجابة ، وإزاء ذلك هدد الحلفاء الوزارة بالرجوع إلى الحرب فاضطرت الوزارة إلى إقالته وأنا يومئذ رئيساً للوزارة بالنيابة بسبب غياب رئيس الوزارة فريد باشا فى أوربا لحضور مؤتمر الصلح» .

«قررت الوزارة إقالة مصطفى كمال من منصبه وعرضت القرار على السلطان محمد وحيد الدين لكنه لم يوافق عليه موصياً بالاكتفاء بدعوته إلى العاصمة والاستمرار فى الدعوة ففعلنا ، وتمادى المَطَل من مصطفى كمال والرفض من السلطان بالتوقيع على الإقالة ، كما استمر احتجاج الحلفاء إلى الوزارة طالبين البت بالأمر . وأخيراً قررت الوزارة فى ٨ يوليو ١٩١٩م/ ١٣٣٨هـ البت بأمر الرجل وذهبت أنا إلى القصر وقابلت السلطان ومكثت فى حضرته من المساء حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وهو يماطلنى بانتظار الجواب البرقى من مصطفى كمال إذ كان رئيس الديوان يكلمه برقياً من غرفة ثانية فى القصر ، فلما انقطع الأمل من نزول مصطفى كمال عند طلب الوزارة اضطر السلطان مكرهاً إلى التوقيع على قرار الوزارة بإقالته ، فكان جوابه على إبلاغه القرار بالإقالة أن أعلن استقالته من الجيش بعبارة تنم عن التمرد . وعلى الرغم

من أن السلطان وافق على قرار الإقالة بعد تعيينه بشهرين وبضعة أيام إلا أنه كان كارهاً ذلك بدليل أنه لم يصدر ضده أى أمر بل أقال فى ٢ اكتوبر الوزارة التى طلبت إقالته وأنا منها فى منصب الرئاسة بالنيابة وأتى بوزارتين ملائمتين لحركة مصطفى كمال. وبعد مضى أكثر من سنة على الثورة لم تجن البلاد إلا الدمار والخراب وتقدم اليونان نحو قلب الأناضول حتى كادوا يطرقون أبواب أنقره. وأعيد تكليف فريد باشا بتأليف الوزارة. وعلى الرغم من أن وزارته السابقة هى التى بعثت بمصطفى كمال إلى الأناضول فإنها فى هذه المرة أصدرت حكمها عليه بالعصيان والتمرد على السلطان استناداً إلى فتوى أصدرها شيخ الإسلام عبد الله درى زاده ، ولكن السلطان ما لبث أن أقال هذه الوزارة وكلف توفيق باشا ، وهو من أنصار مصطفى كمال ، بتأليف وزارة جديدة دامت فى الحكم نحو سنتين خدمت فيهما أغراض مصطفى كمال . فلما قويت شوكة مصطفى كمال تنكر للسلطان وطلب إليه أن يتنازل عن الحكم ويكتفى بالخلافة المجردة من السلطة على أن يظل مقيماً فى استانبول وتنتقل السلطة إلى أنقرة ، فرفض السلطان وتنازل عن العرش سنة ١٩٢٢م/١٣٤١هـ وخلفه عبد المجيد خليفة لا ملكاً ثم خلع سنة ١٩٢٤م/١٣٤٣هـ وأخرج من البلاد .

«وقد ظل السلطان وحيد يحسن الظن بمصطفى كمال رغم التحذيرات وظل مصطفى كمال يستغل إخلاص السلطان وصدق وطنيته والسلطان ليس بغافل بل راض بكل شيء يكون فيه خير البلاد وقد قيل له مرة : «إنه لا يستبعد أن يغتصب هذا الرجل عرشك» . فقال : «ليخدم الوطن وليغتصب عرشى» وشاعت كلمة سمعتها وأنا فى بلادى تنسب إلى أحد الانكيز وهى : «إن السطان وحيد الدين أراد أن يكيد الإنكليز بمصطفى كمال فكاد الإنكيز به للسلطان» .

«هذا موجز ما قاله سماحة شيخ الاسلام صبرى أفندى وأنا أقول : إن من يمعن النظر فى الثورة الكمالية يجد أن الإنكليز قد لعبوا فيها أدواراً رئيسية مع ثلاثة أطراف:
الطرف الأول: هو مصطفى كمال الذى تبنوه وساعدوه للوصول إلى ما وصل إليه شريطة أن يلغى الخلافة ويفعل فى تركيا ما فعل .

والطرف الثانى: هم اليونان الذين كانوا حلفاءهم فى الحرب وخرجوا منها بلا غنيمة فطوحوا بهم فى مغامرة كانوا يقدرون لها الفشل فأغروهم بالاستيلاء على أزمير

على أن تكون نصيبهم من غنائم الحرب وهم فى الواقع لا يريدون أن يمكنوهم من شيء لأنهم يعلمون بأن استيلاء اليونان على شيء من أرض تركيا يعنى استيلاء روسيا عليه على اعتبار أن القومين يدينون بالأرثوذكسية وروسيا هى حامية الأورثوذكسية فى العالم ، ولكن الإنكليز أرادوا أن يعطوا اليونان درساً بهذه المغامرة لكى يرضوا من الغنيمة بالإياب ثم إنهم يخلقون من مصطفى كمال بطلاً محرراً لبلاده.

والطرف الثالث: هى الحكومة التركية نفسها التى استعملوها أداة للتفريق بين السلطان وبين مصطفى كمال وقد نجحوا فى تمثيل هذه الأدوار الثلاثة نجاحاً تاماً» .

«أما مصطفى كمال فهو وحده من بين هذه الأطراف الثلاثة الذى كان يعلم ما يراد منه كما أنه كان يعلم النتائج لأنه كان على صلة بالإنكليز منذ سنة ١٩١٧م / ١٣٣٦هـ يوم كان قائداً عثمانياً فى جبهة فلسطين فقد أخبرنى إبراهيم بك صبرى بن صبرى أفندى شيخ الإسلام الذى مر ذكره بما يلى : «اتصل الإنكليز بمصطفى كمال يوم كان قائداً فى فلسطين وطلبوا إليه أن يقوم بثورة على السلطنة ووعدوه على ذلك فاتصل مصطفى كمال بقائدين عثمانيين من زملائه كانا يتوليان قيادة جيشين قريبين منه وفاتحهما بالأمر (وقد ذكر لى إبراهيم بك اسمى القائدين المذكورين ولكنى انسيتهما لأنى لم أسجلهما عندى إذ أنى لم أكن أتوقع أن أحتاج إلى ذكرهما) فلما سمعا الخبر استعظماه واستنكراه وقالا له : « بما أنك لم تحاول العصيان الذى يوجب الإعدام فإننا سنكتم الأمر وننصحك أن تعتبره منسياً وأنك لم تفاتحنا به ولا سمعناه منك» .

وانتهى الأمربالنسبة إلى هذين القائدين عند هذا الحد وأما بالنسبة إلى مصطفى كمال الذى قبل ، وهو القائد العثمانى ، أن يتآمر مع الإنكليز لارتكاب مثل هذه الخيانة فإنه لم ينته ، ولا شك ، بدليل ما وصل إليه ، ولا يستبعد أن يكون الإنكليز هم الذين دعموه لدى السلطان ، بطريقة غير مباشرة ، لكى يعينه مفتشاً عاماً لجيوش شرق الأناضول ليسهلوا مهمته .

قد يتساءل المرء : كيف يساعد الإنكليز مصطفى كمال على القيام بثورة فى بلاد هم يسيطرون عليها ؟ والجواب قد مر معنا؛ وهو أن أمم الغرب كانت منذ زمن بعيد تريد تحطيم الدولة العثمانية وتريد اقتسام تركة (الرجل المريض) وقد عقدت هذه الدول مئة

معاهدة لتقسيم هذه التركة ولكنها لم تكن تتفق على ما يصيب كلا منها كما أنها لم تكن قد افترستها . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى وانهارت الدولة العثمانية رأت هذه الدول ، وعلى رأسها إنكلترا وفرنسا ، أن بقاء تركيا دولة صغيرة غير إسلامية يضمن لها مصالحها أكثر مما لو استولت عليها واستعمرتها كما فعلت بالبلاد العربية لأنها ستبقى حاجزاً بين العالم الحر وبين روسيا ، التى وإن كانت فى تلك الأيام ضعيفة فإنها لابد لها من أن تسترجع قوتها فى يوم من الأيام وتقوم فتطالب بإعادة تقسيم الغنيمة ، وإنها لن تسكت عن سيطرة إنكلترا على الممرين المائيين ولذا فإن هذه الدول الغالبة رأت من الأصلح وجود دولة صغيرة ضعيفة وغير مسلمة صديقة للغرب كالدولة التركية الحالية التى صنعتها على يدى مصطفى كمال من أن تكون هى المسيطرة» .

«وهكذا فقد نال الغرب بغيته وأصبحت تركيا دولة صغيرة علمانية وتنكرت حتى لواقعها فهى قد أعلنت أنها دولة غير إسلامية مع أن ٩٥٪ من سكانها مسلمون وتنكرت لآسيويتها مع أن مالها فى أوروبا من مناطق لا يتجاوز عشر مساحتها ، فقد ذكر سماحة شيخ الإسلام صبرى أفندى فى كتابه المذكور آنفاً أموراً منها أنه لما كان مصطفى كمال على فراش الموت أوصى بألا يصلى عليه صلاة الجنازة ولكنهم صلوا عليه إجابة لرجاء أخته . ثم أنه لما دعيت تركيا لحضور المؤتمر الإسلامى الذى عقد فى القدس سنة ١٩٣١م/١٣٥٠هـ رفضت الحكومة التركية حضوره لأنها غير مسلمة ، ولما دعيت لحضور المؤتمر الآسيوى الذى عقد فى دلهى رفضت حضوره بحجة أنها ليست بدولة آسيوية» .

«هذه شذرات عن الثورة لكمالية ونتائجها وعما كان للأيدى الغربية من دور فيما نقلناه بكل تجرد وإخلاص خدمة للتاريخ» .

(ج) كيف استقبل المسلمون الثورة الكمالية(٧) ؟

«لما قام مصطفى كمال ، بوحى من السلطان وحيد الدين ، بثورته التى أرادها السلطان عثمانية إسلامية وجعلها مصطفى كمال غربية علمانية ، لم يكن المسلمون يعلمون عن أسرارها وخفاياها شيئاً فخدعوا بظاهرها وبالدعايات التى كانت ترافقها وأولوها كل دعم وتأييد وأكبروا همة وإخلاص باعثها وذلك لأن العالم الإسلامى كان قد فقد صوابه بعد انهيار الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية وكان على استعداد تام

لتأييد أية حركة تقوم فى أية ناحية من العالم لنصرة الإسلام وإعادة الخلافة أو أنه كان كالغريق يرفع يديه إلى السماء ليتمسك بحبال الهواء».

«لقد عايشت الحركة الكمالية منذ يومها الأول وأدركت كل أدوارها وقد أخذت بها وخدعت كما أخذ غيرى وخدع من المسلمين إذ ظنناها حركة إسلامية ولم يكن من شيء يعزينا عما نحن فيه ، بعد اندحار الدولة العثمانية ، إلا الإسلام ، فقد أصبحنا غرباء فى أوطاننا أشقياء فى بلادنا تعساء فى مجتمعنا . أو نحن كالأيتام على مأدبة اللئام ليس لنا وطن ندعيه لأن الغريب يستعمره. ولا لنا دولة نستند إليها لأن الأغراب يحكموننا ، وصرنا نسمع سفهاء الناس يشتمون ديننا فى وجوهنا ومن كان منهم مهذباً ولم يشتم قال لنا : لقد ولى زمانكم ونحن اليوم أسيادكم وإن لم يقولوها بألسنتهم قالوها بأفعالهم . وكنا نتطلع يمنة ويسرة فلا نجد على سطح الأرض كلها ، وعلى كثرة عدد المسلمين فيها ، دولة إسلامية واحدة مستقلة حرة نستطيع أن ندعيها أو ننتسب إليها لنعتز بها بل كان العالم الإسلامى كله مستعمرات غربية أو شبه مستعمرات».

«لهذه الأسباب كان سرورنا بالثورة الكمالية عظيماً ولا حدود له لأننا كنا نستطيع أن نقول بأنه قام مسلم من بين المسلمين يقف فى وجه الغرب ويعلن ثورته عليه وأنه غداً سيعيد إلى المسلمين الخلافة الإسلامية ويعيد إلينا شأننا وعظمتنا . وكما سررنا وانتعشنا بثورة مصطفى كمال فقد سررنا وانتعشنا بثورة أنور باشا ولكن سرورنا بثورة مصطفى كمال كان أعظم لأسباب كثيرة منها :

١- إن بلاد الأناضول متصلة ببلادنا العربية اتصالا مباشراً وأن وجود دولة إسلامية إلى جوارنا أفضل من وجود دولة غربية عدوة .

٢- إن الدولة العثمانية هى أمنا التى غذينا بلبانها وكنا جزءاً منها فرجوع الحياة إليها هو بعث لنا .

٣- إن مصطفى كمال يعمل للخلافة الإسلامية بينما أنور باشا يعمل لإقامة دولة إسلامية وليس هذه كتلك .

٤- إن السلطان يؤيد حركة مصطفى كمال ولم نسمع أنه كان يؤيد حركة أنور باشا .

٥- إن هالة الدعاية التى أحيطت بها الثورة الكمالية كانت أعظم وأحكم من هالة الدعاية التى رافقت حرب أنور باشا .

٦- إن الثورة الأنورية ماتت سنة ١٩٢٢م/١٣٤١هـ بموت قائدها ولم يبق أمامنا إلا الثورة الكمالية .

٧- إن الغربيين أرادوا أن يصرفوا تفكير العالم الإسلامى إلى الثورة الكمالية لكى يستهلكوا آلام المسلمين ويخففوا على نفوسهم أثر الصدمة التى أنزلوها بهم بإزالة الخلافة فأولوا الثورة الكمالية كل عنايتهم ودعموها برعايتهم لأنهم كانوا يعلمون نتائجها مسبقاً على اعتبار أنهم هم الذين صنعوها».

«وكما أن الغربيين قد نجحوا فى مخططهم وجعلوا العالم الإسلامى كله يسير فخوراً بضع سنوات وراء الثورة الكمالية فقد استغل مصطفى كمال عواطف المسلمين وأموالهم إلى أبعد حدود الاستغلال وكسا ثورته لباساً إسلامياً ، سواءً بأحاديثه وتصريحاته وخطبه ، أو بمعاملته لزعماء المسلمين فمن ذلك أنه استعان بالزعيم الليبى الشهير السيد أحمد السنوسى وجعله مستشاراً له وكان يرق إليه ، كما قال لى صديقى الأمير شكيب أرسلان ، إذا أراد شن هجوم على مكان ما قائلا : إننا ننوى الهجوم غداً أو بعد غد على مكان ما فاقرأوا البخارى الشريف على نية النجاح والتوفيق ، واستغل أيضاً أعمال وأقوال جمعية الخلافة الهندية التى قامت بزعامة الأخوين شوكة على ومحمد على واستغل الشعراء فمدحوه والأدباء فأثنوا عليه، ومشايخ الطرق فرفعوه إلى مقام الولاية».

«كان مصطفى كمال يبطن غير ما يظهر وينوى أن يفعل غير ما يقول إذ أنه ما كاد ينتصر نهائياً ويطمئن إلى مصيره حتى ألغى الخلافة وطرد الخليفة من البلاد وطرد السيد أحمد السنوسى وتنكر لكل القيم الإسلامية وسار بسيرة ليس فيها أية مصلحة للإسلام ولا للمسلمين لا بل ليس فيها أية مصلحة لتركيا نفسها، فها هى تركيا بعد مضى ستين سنة على هذه الثورة ما زالت بلداً نامياً ضعيفاً لا حول له ولا طول فالحركة العلمية فيها ضعيفة والأمية سائدة والحياة الاجتماعية متأخرة والحالة الاقتصادية فى الحضيض».

(د) ما هى نتائج الثورة الكمالية(٨)؟ أو قل إن شئت التمرد العسكرى ضد الإسلام والمسلمين؟

«خرج مصطفى كمال من ثورته منصوراً يكلل هامته تاج العز والفخار لأنه أعاد إلى تركيا حياتها واستقلالها وقد تقبل نصف العالم الإسلامى هذا النصر بسرور عظيم لأنهم خدعوا بظاهره وهذا النصف هو النصف الجاهل أو الغبى من الأمة أو الذى لا يعرف من الأمور إلا ظاهرها ، وأما النصف الآخر العاقل المفكر الذى ينظر إلى خلفيات الأمور بمنظار الحقيقة فقد أدرك مدى الكارثة التى حلت بالعالم الإسلامى كله وليس بتركيا وحدها».

«لقد إشغل مصطفى كمال المسلمين بأمور جانبية تافهة أرضى بها الشبان التواقين إلى الأخذ بالمظاهر وأخذ المعول وهدم الكيان التركى الإسلامى من جذوره. وإذا جاز لنا أن نسمى ما قام به مصطفى كمال ثورة فهى ولا شك ثورة على الدين وعلى الثقافة وعلى التاريخ وعلى العالم الإسلامى عامة والأمة التركية بصورة خاصة».

«لقد أبطل مصطفى كمال الأبجدية العربية وأحل محلها الأبجدية اللاتينية فقطع بعمله هذا صلة الأمة (العثمانية) بالعالم الإسلامى وقطع صلتها بماضيها وهدم أمجادها وقضى على ثقافة ترجع إلى ألف سنة فيها الكثير الجيد من العلوم والفنون والأدب والشعر والتاريخ».

«لقد قضى مصطفى كمال على الأمة التركية وطمس معالمها وعراقتها شكل أمة جديدة وكأنها ليست من هذا العالم أو كأنها كما يقول المثل مقطوعة من شجرة . ولم يقدم البلاد ولا أهلها خطوة واحدة إلا الإمام بل أرجعها خطوات إلى الوراء من كل ناحية بدليل تقدم بعض البلاد التى كانت جزءاً من الدولة العثمانية وفصلت عنها وقد تقدمت ، بفعل الزمن ، خطوات واسعة فى الفن والأدب والعلم والعمران . وما دامت تركيا لم تتقدم فهى إذن متأخرة».

«ثم إنه بقضائه على الخلافة جردها من سلاح ماض كان فى يدها تهزه متى شاءت فى وجه الأعداء. وكانت الدولة العثمانية حتى فى أخريات أيامها ، يوم لم يكن لها حول ولا طول ، مرهوبة الجانب يخشاها القريب والبعيد ويحترمها العدو قبل الصديق لأنها كانت تحمل صولجان الإسلام الذى كانت تهدد به العالم فأصبحت اليوم بفضل

مصطفى كمال دولة ثانوية مثل غيرها من الدول الصغيرة ليس لها وزن سياسى إلا بقدر ما لمركزها الاستراتيجى من أهمية وبقدر حاجة الدول إليها وليس لها مركز علمى ولا اقتصادى حتى ولا سياحى على الرغم من جمال تركيا وما فيها من جبال وبحار وغابات وأنهار لو كانت فى بلاد أخرى لاستغلت أحسن استغلال فى السياحة والاقتصاد».

«إننا إذا أخذنا فى تقويم هذه الثورة نجد أنها كانت وبالا على تركيا وعلى العالم الإسلامى لأنها قضت على كل ثروات تركيا المعنوية وسلبتها عظمتها التى كانت تقوم على الإسلام وعلى اللغة العربية وهى عظمة لن تعود أبداً (إلا أن يشاء الله)».

«إن ما فعله مصطفى كمال كان فى مصلحة الغرب وليس فى مصلحة تركيا ولا فى مصلحة الشعب التركى . لقد قطع مصطفى كمال كل صلة للأتراك بإخوانهم المسلمين حتى أنه غير أسماء الناس وغير اسمه . لقد قضى مصطفى كمال على هذه الأمة بالعقم الأبدى وأجهض مقدماً كل حركة إصلاحية يمكن أن تقوم فى البلاد لخير البلاد وخير أهلها».

«لقد كانت الخلافة ، على ضعف الخلفاء ، وتخاذلهم وجهل بعضهم لا بل ورذائلهم ، سلاحاً ماضياً بيد المسلمين يزعج الغربيين فعملوا حتى قضوا عليه ، ولو كان مصطفى كمال أبقى على الهيكل الإسلامى ولم يمس اللغة لكان خلق تركيا خلقاً جديداً سليماً ولكانت اليوم سيدة العالم الإسلامى كما كانت من قبل ولو تقلصت أطرافها».

«وإذا نظرنا إلى السياسة التى انتهجها السلطان الظاهر بيبرس والسياسة التى انتهجها مصطفى كمال نجد الفرق بين تفكير الرجلين بعيداً جداً إذ بينما استند بيبرس على الخلافة وأحياها فى مصر ، بعد أن تلاشت فى بغداد فرفع بذلك من شأن نفسه ومن شأن المسلمين فى كل مكان وكانت الخلافة له ولخلفائه من بعده قوة ودعماً ودرعاً واقياً ، نجد مصطفى كمال قد استند على الإنكليز لهدم الخلافة(٩) ليرفع نفسه ويهدم تركيا .

لقد كان باستطاعة مصطفى كمال ، بعد أن انتصر على اليونان أن يتنكر للغربيين ويقلب لهم ظهر المجن فيخدم بذلك بلده وأمته ولم يكن الغربيون يستطيعون، آنذاك ، أن

ينالوه بأذى لأن العالم كله كان معه ولكنه لم يفعل لأن الخطة الغربية كانت تساير هواه وهذا من سوء حظ المسلمين وحظ البلاد التركية فى الدرجة الأولى .

(هـ) لماذا دعم الغرب (أعداء الإسلام والمسلمين) الثورة الكمالية(١٠) أو لم يناهضوها ؟ وطبقوها فى بقية بلاد العالم الإسلامى (وخاصة العربى)؟؟

«قد يتساء المرء ، حينما يرى دول الحلف الغربى ، التى هزت ، فى حرب دامت أربع سنوات ونصف ، الإمبراطورية العثمانية ومعها امبراطوريتين قويتين هما ألمانيا والنمسا ومملكة البلغار ، كيف عجزت عن الانتصار على ثورة قام بها قائد عثمانى هو نفسه كان قد انهزم أمام الإنكليز فى جبهة فلسطين ثم عند جبال طوروس يوم كانت إمكاناته أكثر وقوته أكبر؟» .

«وهو تساؤل وجيه ومعقول لا سيما وأن مصطفى كمال ظل نحو سنتين فى شرق الأناضول وهو لا يستطيع أن يتقدم لمواجهة أعدائه بل كان أعداؤه اليونان هم الذين يتقدمون حتى وصلوا مشارف أنقره» .

«وللجواب على هذا السؤال نقول : إن الفرق بين الحالين كان كبيراً جداً وذلك لأن الحلف الغربى كان فى الحالة الأولى يريد دحر الدولة العثمانية ، دولة الخلافة الإسلامية، التى كانت قذى فى عيون أهل الغرب وحسكة فى حلوقهم ، ولذا فقد وضع ، فى ميدان المعركة، كل طاقاته وإمكاناته وعمد إلى كل السبل فسلكها وعمل بكل الوسائل حتى بلغ ما يريد، بينما الأمر لم يكن كذلك مع ثورة مصطفى كمال؛ إن أهل الحلف الغربى، وعلى رأسهم إنكلترا وفرنسا كانتا حريصتين كل الحرص على انتصار مصطفى كمال على اليونان لأسباب مر ذكرها كما أنهما كانتا حريصتين على بقاء بلاد الأناضول لأصحابها على أن تكون تابعة للغرب بعيدة عن الإسلام والمسلمين وكانتا تعلمان مسبقاً أن مصطفى كمال سيحقق لهما هذه البغية» .

«كانت دول الغرب حريصة على القضاء على الدولة العثمانية لأنها دولة إسلامية قادرة باسم الإسلام على أن تهدد العالم كله وليس الغرب وحده إذا استعملت هذا السلاح المعنوى استعمالا صحيحاً وسليماً . ولذا فإن كل الحروب التى شنها أهل

الغرب على الدولة العثمانية وكل المعاهدات والاتفاقات التى عقدوها كانت تدور حول هذه النقطة وهذا الهدف».

«إن الحروب الصليبية بدأت منذ ظهر الإسلام ولكنها ظهرت بثوب عملى فى القرن الحادى عشر الميلادى ، يوم ضعفت البلاد الإسلامية ، واشتدت يوم بدأت الدولة العثمانية تغزو أوروبا فى عقر دارها . ومع أن دول الغرب مجتمعة ظلت أكثر من ثلاثة قرون تعمل للقضاء على هذه الدولة الإسلامية دون أن تبلغ ما تريد ، على الرغم مما أصاب الدولة العثمانية من تضعضع ، فإنها قد ذهلت وارتبكت حينما تم لها هذا النصر بهذا الشكل الذى حدث والذى لم تكن تتوقعه ولا تتصوره أيضاً وذلك بأن ترى الدولة العثمانية ومعها حليفاتها تنهار أمامها فى بحر أسابيع أو شهور قليلة ، بعد أن ثبتت أمام ضرباتها أربع سنوات لا بل وانتصرت عليها مرات».

«»قلت فى بحر أسابيع لأن الحرب فى سنواتها الأولية كانت سجالا بين المتخاصمين، لا بل كانت فى بعض الجبهات انتصاراً للحلف العثمانى ولم يكن ما يبعث على الاعتقاد بحدوث هذا الانهيار ، ولكن وقوف العرب إلى جانب الحلف الغربى وحماقات ارتكبها بعض رجال الاتحاد والترقى وإمكانات الحلف الغربى المادية والمعنوية الواسعة واستسلام البلغار المفاجئ ، كل أولئك غيرت وجه الحرب فأسفرت عما أسفرت عنه من انهيار ثلاث إمبراطوريات كانهيار قصور الكرتون أو بيوت الرمال».

«فهذا النصر الساحق الذى أحرزه الحلف الغربى على الحلف العثمانى قد فرّح الغربيين ولكنه أدهشهم وأذهلهم أيضاً لا بل قد كانت دهشتهم أكبر من فرحتهم إذ كان شأنهم شأن الفقير المعدم الذى تهبط عليه ثروة كبيرة فجأة من السماء لم يكن يحلم بها فيحتار فى أمره ويحتار فيما يفعل بهذه الثروة الطارئة وكيف ينفقها».

«أدرك الغربيون بعد أن تم لهم هذا النصر أن اللقمة التى أمامهم أكبر من أفواههم وأنهم لا يستطيعون استراطها بله هضمها(١) وأنه لابد لهم من إعادة النظر على برامجهم السابقة ، وعلى الرغم من أنهم كانوا قد اقتسموا تركة الرجل المريض (الدولة العثمانية) فيما بينهم مرات وأنهم باعوا جلد الدب قبل أن يصطادوه إلا أن أوضاعهم اليوم تختلف عما كانوا عليه من قبل إذ مات أحد الورثة قبل موت الدولة العثمانية وأعنى به إمبراطورية موسكو بنشوب الثورة الشيوعية فيها ، وماتت أيضاً كل من

الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية النمسوية بسبب تحالفهما مع الدولة العثمانية . فأصبحتا فى جانب التركة لا فى جانب الورثة ، ولذا فقد كان من البديهى أن يتغير التقسيم وتتغير الأهداف لا سيما وأنه لم يعد فى الميدان إلا إنكترا وفرنسا ، وأما إيطاليا واليونان فقد كان بالإمكان إرضاؤهما بالقليل لأن إيطاليا كانت فى بداية الحرب حليفة للدولة العثمانية ثم تركتها وانضمت إلى الحلف الغربى وهى لم تهضم بعد البلاد الليبية (طرابلس الغرب) التى استولت عليها سنة ١٩١١م/١٣٣٠هـ ولم تكن الدولة العثمانية قد اعترفت بعد بتنازلها عنها ، واليونان دولة صغيرة لا حول لها ولا طول وبالتالى فليس لها حساب».

«أن الذى كان يخيف الغالبين هى روسيا التى وإن كانت قد خرجت من الحرب مغلوبة بسبب نشوب الثورة الشيوعية فيها ، تلك الثورة التى كان الفضل الأكبر فى نجاحها لألمانيا ، التى زودت لينين بالمال والسلاح وأرسلته إلى روسيا ليقلب الحكم فيها، فإن حلفاءها القدامى أى إنكلترا وفرنسا ومن معهما ، كانوا يعلمون بأن ضعفها لن يطول أمده وأنه لابد لها من أن تنهض وتقف على ساقيها ثم لابد لها من أن تطالب بإرثها وأن تسعى إلى تحقيق مطامعها فى البحر الأسود وفى الممرين المائيين ، ولذا فقد كان لابد للإنكليز وهم سادة البحار ، آنذاك ، من أن يفكروا بهذه النتيجة وأن يتداركوا عواقبها قبل حلولها ، وكان الحل هو إبقاء الأناضول لأصحابها».

«فمن جهة كانت إنكلترا وفرنسا تخشيان الدب الروسى الرابض على حدود الأناضول ، ومن جهة ثانية كانتا قد تقاسمتا البلاد العربية فأخذت فرنسا سوريا ولبنان وأخذت إنكلترا العراق وفلسطين بالإضافة إلى ما كانت تسيطر عليه من قبل من شواطئ الجزيرة العربية بدءاً بمستعمرة عدن فالمحميات فمسقط فمشيخات الخليج العربى بما فيها البحرين والكويت».

«وفى الوقت الذى اتفقت فيها الدولتان الإنكليزية والإفرنسية على هذا التقسيم سراً كانتا قد أعطتا فلسطين للصهيونيين لتكون وطناً قومياً لهم ، ووعدتا الشريف حسين بإمبراطورية عربية تشمل الوطن العربى كله ، أو أن الشريف حسين ظن أن رغبته حقيقة واقعة وأن مطالبه أوامر تعطى لحلفائه فتنفذ ، فبات خالى البال مرتاح الخاطر يعيش هو وكل العرب فى حلم لذيذ معتمدين على صدق الحلفاء وإخلاصهم ويصدقون

كل ما يقال لهم ، ويكتفون من العهود بالوعود لا بل بالوعود الغامضة ، ولم يكونوا يدرون أن عهود أهل الغرب الكلامية هراء والمكتوبة منها قصاصات ورق يمكن تمزيقها وحرقها فى كل وقت حتى إذا كانوا مغلوبين فكيف بهم إذا كانوا غالبين ؟» .

«اقتنع الشريف حسين بحسن نوايا حليفته بريطانيا على الرغم من أن تصرفات رجالها كانت تدل بوضوع على المراوغة والخداع . ولكن أنى للمسلم الشريف أن يسيء الظن بمن يتودد إليه ويظهر له الإخلاص ؟»

«ظل الشريف حسين ثابتاً على مبدئه محسناً الظن بالإنكليز على الرغم من أن رجال الثورة الشيوعية ، بعد أن استلموا الحكم فى البلاد ، فضحوا الاتفاقية السرية (اتفاقية سايكس – بيكو) المعقودة بين إنكلترا وفرنسا وروسيا لتقسيم الإمبراطورية العثمانية ، وعلى الرغم من أن جمال باشا نبه العرب فى الكلمة التى ألقاها فى بيروت بتاريخ ١٩١٧/١١/٣٠م/١٣٣٦هـ إلى هذه الحقيقة . وقد أعرب مندوبا إنكلترا وفرنسا المقيمان فى الحجاز صراحة عن سوء نية حكومتهما حينما رفضا حضور الحفلة التى أقيمت فى جدة احتفاءً بمبايعة الشريف حسين ملكاً على البلاد العربية . وقد تمت المبايعة فى مكة المكرمة فى ١٩١٦/١١/٤م/١٣٣٥هـ وأقيم الاحتفال فى جدة لكى يتسنى لهذين المندوبين حضوره ولكنهما لم يحضرا لأن حكومتيهما لم تعترفا بالشريف حسين ملكاً عل البلاد العربية بل ملكاً على الحجاز ورفضتا منحه لقب صاحب الجلالة بل دعته بصاحب السيادة وأحياناً بصاحب السمو» .

«كانت الأمور ، إذن ، ظاهرة منذ البداية ولكن الشريف حسين لم يعد قادراً على الرجوع كما أنه كان صادقاً فى ثورته وظل يحسن الظن بإنكلترا» .

«فلما انجلت الحرب ورأى العرب أنفسهم أنهم أصبحوا أكثر فرقة وشتاتاً مما كانوا عليه من قبل وأنهم أصبحوا محكومين بأسماء مخترعة ، منها الانتداب والحماية والتحالف والاستعمار والقوة ، بعد أن كانوا شركاء الدولة العثمانية فى الحكم أسقط فى أيديهم وكانت ردة فعلهم عنيفة ويأسهم من حلفاء الأمس عظيماً ولكنهم لم يتحركوا بل ظلوا يعيشون بالآمال ، اللهم إلا ما قيل عن مراسلات جرت بين الشريف حسين وبين مصطفى كمال ومراسلات جرت بين بعض رجالات سوريا وبين مصطفى كمال أيضاً ولكنها دفنت فى المهد . وبدهى أن هذه المراسلات لم تكن تنفع شيئاً لأن

مصطفى كمال (١٢) نفسه كان بحاجة إلى المعونة من جهة ثم إنه لم يكن من الناس الذين يحبون العرب أو يعطفون عليهم من جهة ثانية».

«ولعل السبب فى عدم قيام العرب بحركة، هو تقطيع أوصالهم وانعدام القيادة الموحدة فيهم وفقدان التنظيم السياسى وعدم وجود جيوش نظامية، ثم وجود جيوش (احتلال) فرنسية وإنكليزية فى البلاد وهى لم تعد جيوشاً -حليفة بل أصبحت جيوشاً غازية».

وبينما كان العرب غارقين فى بحور تأملاتهم يستجدون عطف حلفائهم تنبه السلطان وحيد الدين للأمر وأدرك أن بقاء الأناضول بلداً مستقلا أمر لازم لأعداء الدولة العثمانية كما أنه أدرك بأن الحصول على الاستقلال لن يتم إلا بالسعى إليه فأوعز إلى مصطفى كمال بأن يقوم بثورة مسلحة وكان ما كان مما أسفلنا ذكره».

«هذا ما كان من أمر المغلوبين وأما ما كان من أمر الغالبين فقد أدركت إنكلترا، وهى التى تحتل إستانبول ، أنها لا تستطيع ابتلاع البلاد العثمانية كلها وأن حصتها من البلاد العربية كافية لها وأن تماديها فى استفزاز الشعور الإسلامى قد ينقلب عليها ويضر بمصالحها ولا سيما فى شبه الجزيرة الهندية الباكستانية ، التى كان يهمها أمرها كثيراً ، وأن الثورة التركية إنما هى الخطوة الأولى وربما تبعتها ثورات وبالتالى فإنه لابد من إلهاء العالم الإسلامى بهذه الثورات التى علق عليها المسلمون كل آمالهم فى إحياء الخلافة ، وعلق الغربيون عليها آمالهم بأن تكون هدماً للخلافة واجتثاثاً لجذور الإسلام من البلاد حتى لا تقوم لها قائمة ، ولذا فإن نجاحها كان يهم الإنكليز أكثر مما يهم المسلمين ، لأنها بهذه الثورة تصرف العرب عن التفكير بأنفسهم وتعلق آمالهم على الثورة التركية ، من جهة ، وتكون ، من جهة ثانية ، قد ثبتت أقدامها وأقدام حليفتها فرنسا فى البلاد العربية فإذا صحا العرب لا يجدون لأنفسهم مخرجاً مما وقعوا فيه».

«عمل الإنكليز جهدهم لإنجاح الثورة التركية(١٣) (أو الانقلاب العسكرى الذى قاده الاتحاد والترقى الماسونى) بدليل أنهم لم يساعدوا اليونان بشىء ، وبما قاموا به من دعاية للثورة ذاتها ولشخص مصطفى كمال حتى جعلوا الناس يظنون أن الخلافة الإسلامية أصبحت فى متناول أيديهم وأنها قد استعادت مجدها وأن مصطفى كمال هو نور الدين زنكى أو صلاح الدين الأيوبى أو حتى عمر بن الخطاب ونسى المسلمون

مصائبهم فرحاً بانتصارات مصطفى كمال التى اعتبروها الخطوة الأولى نحو تحقيق آمالهم الإسلامية . غير أن ما حدث بعد ذلك خيب آمال المسلمين . ولكن الفرصة كانت قد فاتت ولم يعد بمقدورهم أن يفعلوا شيئاً بعد أن تفرق شملهم ، وبعد أن انتزع عبد العزيز بن سعود الملك من الحسين ؛ خليفة المسلمين المنتظر ، فأخذه الإنكليز وسجنوه فى قبرص إلى أن توفى وجازوه جزاء سنمار».

«كان الغرب عامة والإنكليز خاصة يفضلون وجود دولة تركية ضعيفة مشذبة الأطراف بعيدة فكراً ومبدأ وروحاً عن البلاد العربية المسلمة المجاورة على أن يسيطروا هم على الأناضول لأن وجود أية دولة أوربية فى الأناضول باسم الاستعمار أو الحماية أو الانتداب سيجعل الاحتكاك مع الروس مستمراً بينما وجود دولة تركية ضعيفة سائرة فى ركاب الغرب أضمن للغرب وأنفع له».

«وإذا كان الإنكليز قد نكثوا عهودهم مع العرب لأنهم أدركوا ضعفهم وشتات كلمتهم وعدم اتفاقهم على رأى ولأنهم كانوا يعلمون بأنهم لن يتنازلوا عن دينهم ولا عن قوميتهم الإسلامية فإنهم قد ساعدوا مصطفى كمال ، أو إن شئت فقل أنهم لم يناهضوه ، لأنهم كانوا يعلمون أنه سيعطيهم كل ما يطمعون به وذلك لأن الاستعمار لم يعد ، فى أيامنا هذه ، استعمار أرض وسماء وسيطرة عسكرية وحكماً مباشراً (فقط) بل أصبح استعمار أفكار ومبادئ وأهداف ، وقد أصبحت تركيا مستقلة فى ظاهرها وفيما لا يضر الغرب ولكنها مستعمرة فى أفكارها ومبادئها».

«لقد جرب الانكليز العرب وامتحنوا إخلاصهم فوجدوهم لا يصلحون لصداقتهم لأنهم صادقون مع أنفسهم وإذا كان الملك حسين قد رضى بالسجن والنفى ولم يرض بأن يسجل التاريخ عليه أنه رضى بالوطن القومى اليهودى ، مع أن رضاه أو عدمه لم يكن ليقدم ولا ليؤخر شيئاً ، فمن البدهى ألا يكون أداة طيعة فى أيدى أهل الغرب ولذا فقد لاقى منهم العداوة والبغضاء».

«لقد فرح المسلمون فى العالم كله بنجاح الثورة التركية ولكن فرحتهم لم تطل بعد أن أدركوا أبعادها ومراميها ورأوا نتائجها ولمسوها فى أنفسهم وفيما يعانون من أوضاع . ويحاول اليوم كثير من الأتراك المخلصين الرجوع إلى ماضيهم ولكنهم لا يستطيعون لأن الثورة قد ضربت بينهم وبين ما يبتغون سداً منيعاً لا يقدرون على النفوذ

منه بعد أن قطعتهم الثورة من جذورهم وأبعدتهم عن تاريخهم ولغتهم وثقافتهم» .

«لقد ربح أهل الغرب بهذه الثورة شيئاً كثيراً لم يكونوا يحلمون به ولكن هذا الربح لم يأتهم مجاناً وهم نائمون بل لقد عملوا له قروناً» .

(و) خاتمة الدولة العثمانية

على عهد قادة الاتحاد والترقى والكماليين (الماسون) الذين قاموا بالانقلاب العسكرى ضد السلطان عبد الحميد الثانى :

«بعد جهاد وجلاد شاقين ، فى الداخل والخارج ، استمرا ستة قرون متوالية كانت خاتمة المطاف الحرب العالمية الأولى ، التى دامت أربع سنوات ونيف ، امتدت من سنة ١٩١٤م إلى سنة ١٩١٨م (١٣٣٣-١٣٣٧هـ) ، وثبت فيها العثمانيون ، أمام أعدائهم ثبوت الجبال ودافعوا عن دينهم ووطنهم وكرامتهم دفاع الأبطال انتهت تلك الحرب بمأساة مفجعة إذ استيقظ المسلمون كلهم على كابوس مزعج انطوى على أعظم فاجعة أصيبوا بها وأكبر مصيبة نزلت بهم ، منذ ظهور الإسلام وإلى تلك الساعة ، فقصمت ظهورهم وكبلتهم بحَبلَىّ الخيبة والخسران ، إذ رأوا بنيان دولة الخلافة ينهار كما تنهار بيوت الكرتون ، لا بل وقد أصبحت هذه الدولة ذات العز الباذخ والشأن الرفيع الشامخ ، التى كانت ملء عين الزمان وسمعه ، أثراً بعد عين وكأنها لم تغن بالأمس وأصبحت أرضها موطناً لأعدائها أو موطئاً لأقدامهم» .

«لقد كانت الصفعة قاسية جداً وأليمة جداً لأنها لم تكن مرتقبة ولا محسوبة(١٤) فنحن كنا نعلم أنا فى حرب مع أعداء أقوياء ، وكنا نقدر الربح والخسارة ونحسب حسابهما ولكننا لم نكن نقدر الخسارة وحدها لا سيما بعد أن رأينا الدولة تقف فى وجه الأعداء أربع سنوات وتكاد لا تتزحزح عن أماكنها فى جميع الجبهات ثم نراها تنهار وتخر ، فى بضعة شهور ، وكأن عاصفة اقتلعتها من جذورها أو فيضاناً طفا عليها فجرفها . إننا نحن الذين شهدوا تلك المأساة ندرك أبعادها إدراكاً تاماً ونشعر بآلامها ولا نستطيع التعبير عنها باللسان ولا بالقلم لأنها أكبر وأعظم من أن توصف(١٥)» .

«كان من البديهى بعد أن اندحرت الدولة فى ميادين الحرب أن تستقيل الوزارة العثمانية القائمة ، وزارة الاتحاد والترقى ، التى كان يرأسها طلعت باشا وتألفت وزارة

جديدة برئاسة أحمد عزة باشا الأرناؤوط وأرسلت هذه الوزارة وفداً وزارياً إلى مدينة مودروس Moudros فى جزيرة بيمنوس Limnos ، الكائنة فى بحر إيجه، بين البرين التركى واليونانى ، لمفاوضة الإنكليز على شروط الهدنة ، وهى لم تكن هدنة بالمعنى الصحيح بل كانت إملاءً واستسلاماً . وكان هذا الوفد برئاسة وزير البحرية ، رؤوف بك بطل الدارعة الحميدية المشهور».

«بعدما اندحرت الدولة فى الحرب العالمية رأى حكامها ، زعماء حزب الاتحاد الترقى، أنهم خسروا المعركة نهائياً وأنه لا سبيل للمكابرة بل لابد لهم من أن ينهجوا نهجاً جديداً وأن الخطوة الأولى هى أن يتواروا عن الأنظار . فعقدوا اجتماعاً قرر فيه ثمانية منهم مغادرة البلاد على اعتبار أنهم هم المسئولون الأوائل عن الحرب وعما أصاب الدولة من انهيار وأنهم إذا سلموا من أيدى أعدائهم فقد لا يسلمون من أيدى أبناء البلاد أنفسهم لأن الناس فى مثل هذه الحالات يحكمون بالعواطف وتسيطر عليهم الغوغائية . وهؤلاء الثمانية هم : طلعت باشا رئيس الوزارة ، أنور باشا وزير الحربية ، أحمدجمال باشا وزير البحرية وقائد الحملة العثمانية على الجبهة المصرية والحاكم بأمره فى سوريا الكبرى الممتدة من جبال طوروس إلى قناة السويس ، عزمى بك والى بيروت ، وبدرى بك مدير شرطة إستانبول ، الدكتور ناظم بك والدكتور بهاء الدين بك من كبار رجالات الحزب ومدحت باشا أمين سر حزب الاتحاد والترقى . غير أن هذا الأخير وافق على مغادرة البلاد مسايرة لصديقه طلعت باشا ولكنه لم يكن ، فى قرارة نفسه راغباً بهذه الهجرة» .

فلما رأى طلعت باشا أن مدحت بك لا يرغب بالهجرة إلا مسايرة له قال له : إذا كنت لا ترغب بمغادرة البلاد فابق حيث أنت وأنا راض عنك فبقى وركب السبعة المذكورون ، فى أوائل نوفمبر ١٩١٨م، سفينة حربية ألمانية حملتهم إلى جزيرة القرم التى كانت تحت السيطرة الألمانية ، آنذاك ، وهناك استقبلتهم السلطات الألمانية بالترحاب ووضعت تحت تصرفهم قطاراً يحملهم إلى برلين التى اختاروها داراً لهجرتهم» .

«وكان هؤلاء الفارون ، منذ أن غادروا استانبول ، يتحدثون فيما بينهم بما يجب عليهم فعله ، فكان طلعت باشا يرى أن حياتهم السياسية قد انتهت وأن المنطق يقضى

عليهم بأن يعتزلوا السياسة ويعيشوا فى عالم المجهول فقد عملوا ما فيه الكفاية . أخطأوا من حيث أرادوا الخير والصواب، ، وكان من رفاقه ، ولا سيما المدنيين ، من يرون رأيه وأما العسكريون وخاصة أنور باشا الذى كان مملوءاً شباباً وحماسة فإنه كان يرى غير ذلك ويفضل أن يغتنم ما بين روسيا والدول الغربية من عداء وأن يستثمر هذا العداء ويستمر فى القتال حتى تستطيع الدولة العثمانية أن تحتفظ بأكبر جزء ممكن من البلاد وأن تعقد صلحاً مشرفاً مع الأعداء».

«ولما لم ير استعداداً من رفاقه للسير فى خطته فر خلسة من القطار ، وهم فى طريقهم إلى برلين ، وذهب إلى القفقاس حيث كان أخوه نورى بك يقاتل الروس وكان يأمل إثارة مسلمى داغستان وأذربيجان وأن يقيم إمارة إسلامية فى تلك الربوع . وبعد أن درس الوضع هناك ذهب إلى موسكو فاستقبله الروس استقبالا حسناً وأنزلوه قصراً فخماً واتفق معهم على محاربة الإنكليز وحلفائهم ثم لحق به كل من أحمد جمال باشا وبدرى بك ولكنهما عادا إلى برلين . وجاء هو مرتين إلى برلين ليقنع رفاقه بالتعاون مع الروس ولكنهم أبوا ونصحوه باجتناب الشيوعيين لأنهم خداعون غدارون ولكنه لم يسمع لهم ، ولعله كان يعلم علمهم ولكنه لم يكن يرى غير ذلك الطريق يسلكه».

«أدرك أنور باشا بعد أن اختلط بالروس أنهم يخدعونه وأن الهوة بينه وبينهم عميقة جداً ، فهو يريد أن يعيد إلى تركيا شأنها وإسلامها وهم يريدون أن يقضوا على هذه الدولة التى أزعجتهم كثيراً أو أن يبعدوها عن الإسلام على أقل تقدير وأنهم باستضافته والمفاوضة معه إنما أرادوا حجزه فى روسيا لكى لا يزعج خطط مصطفى كمال الذى كان على اتفاق معهم واشترط عليهم ألا يمدوا أنور باشا بالسلاح . وكان الروس يدركون من ماضى الرجلين أن مصلحتهم مع مصطفى كمال وليست مع أنور باشا لا سيما وأن الإنكليز أيضاً كانوا يؤيدون (١٦) مصطفى كمال».

«بعد أن استيقن أنور باشا أن صداقة الروس كانت خداعاً وملقاً وأنه وقع فى شركهم، رأى من العار أن يعود خاسئاً ويستجدى الحياة استجداء وصمم على أن يستمر فى خطته حتى ينال احدى الحسنيين فإما النصر وإما لقاء الله . فكتب رسالة إلى جمال عزمى بك والى طرابزون السابق وهو غير عزمى بك والى بيروت ، يوصيه

بزوجته ودخل بخارى يسانده الحزب الأميرى فيها وبطش بدعاة الشيوعية وأعوانها ولا سيما بحزب (مجددى) الشيوعى وحارب الروس وانتصر عليهم فى معارك كثيرة تناقلت الأنباء العالمية أخبارها . فلما رأى الروس ذلك ورأوا أن الحماسة قد اشتدت ضدهم وأن العاقبة قد تكون وخيمة عليهم إذا تهاونوا بالأمر ، جمعوا جيوشاً كبيرة لمقاومة هذه الثورة الجائحة التى لو كتب لها النجاح لكانت قضت على الامبراطورية الروسية وأرجعتها إلى حجمها الحقيقى وهو إمارة موسكو . وحدث ، فى ٤ أوغست ١٩٢٢ أنه بينما كان أنور باشا فى قرية بالجوال (١٧) شرقى بخارى وقد تفرق عنه الجند بسبب عيد الأضحى ، أن هاجمه الروس بأعداد كبيرة فخرج إليهم بنفسه وظل يقاتلهم حتى قتل».

«أما أحمد جمال باشا فقد استجاب لدعوة أمان الله خان وذهب إلى أفغانستان وأخذ يعمل فى تنظيم جيشها وجاء إلى موسكو فاحتجزه الروس بشكل لطيف لأنهم لم يكونوا يريدون لأفغانستان نهضة ووعياً ، ولكنه استطاع أن ينجو منهم بلباقة إذ أنه أبدى استعداده للذهاب إلى تركيا لاستمالة الناس إلى جانبهم فسمحوا له بالذهاب عن طريق القفقاس ، ولما كان فى تفليس تصدى له شخص من الأرمن فقتله ويقال بأن الروس هم الذين دبروا اغتياله لكى يتخلصوا منه إذ أنهم لم ينخدعوا بوعده . وقتل الأرمن طلعت باشا فى برلين كما قتلوا غيره من رجالات حزب الاتحاد والترقى المسئولين عما أصاب الأرمن فى زمن الحرب ، من قتل وتشريد».

«كانت هذه صفحة من صفحات العهد العثمانى ولكنها لم تكن آخرها ولا كانت أقواها صدمة على نفوس المسلمين لأن الناس كانوا قد نسوا رجال العهد العثمانى وعلقوا آمالهم بالحركة الكمالية التى كانوا يعتقدون أنها ستعيد إليهم الشيء الكثير من آمالهم . فماذا كان ؟ كان ما شهده كثير من أبناء جيلى منذ بدايته ولكن لابد لى أن أذكره للأجيال الصاعدة».

«استيقظ العالم الإسلامى ، سنة ١٩١٨م/١٣٣٧هـ على أكبر فاجعة نزلت به ، كما أسلفنا ، وأخذ يمسح عينه ويفتح أذنيه وهو غير مصدق ما يرى وما يسمع ويتساءل : أصحيح أن دولة الخلافة الإسلامية ، التى كانت درع المسلمين الواقى ورمز العظمة والشأن قد زالت من الوجود ؟ أصحيح أنه لم يبق للمسلمين بلد مستقل يعتزون به ؟

إنها والله لأكبر نائبة وأعظم داهية».

«وفى الوقت الذى استيقظ المسلمون على هذا الكابوس المزعج استيقظ العالم المسيحى على ألذ حلم حلموا به وأعظم أمنيه تمنوها وأغلى غاية سعوا إليها وبذلوا فى سبيلها كل ثمين أجيالا طوالا وأعنى بذلك زوال دولة الخلافة . ولم يخف المسيحيون سواء منهم من كان من أهل البلاد أو غريباً عنها شعورهم بهذه الفرحة ، وهم أقلية فى البلاد الإسلامية ، بل أخذوا يعلنونها صراحة على ألسنة كبارهم وصغارهم ، مسؤوليهم وعامتهم فقال الجنرال اللنبى حينما دخل القدس : الآن انتهت الحروب الصليبية (أقول: ويا ليتها انتهت بل هى ما زالت مستمرة) . ووقف الجنرال غورو القائد الإفرنسي على ضريح صلاح الدين الأيوبى ، فى دمشق ، وقال : «ها قد عدنا يا صلاح الدين» . وبصرف النظر عما فى هذين التصريحين ، فى بلاد إسلامية ، وفى القرن العشرين الميلادى من عدم اللباقة واللياقة وصغر النفس أيضاً فإنهما يدلان على ما تكنه صدور القوم من الحقد والحسد والغطرسة والخداع . لا سيما وأنهما دخلا بلادنا حليفين ولم يدخلاها فاتحين .. وقد كان هذان التصريحان سياطاً لاذعة على جلود العرب الذين خدعوا بأقوال الغربيين ووعودهم وظنوهم سيحققون لهم إمبراطورية عربية مستقلة عاصمتها مكة وملكها الشريف حسين بن على وإذا بهم قد أصبحوا مستعمرين لهؤلاء الذين ظنوهم أصدقاء وأمسوا أضيع من ذات النحيين».

«وبينما كان العالم المسيحى يقيم الأفراح ، فى كل العالم ، احتفاء بهذا النصر، كان العالم الإسلامى ، من حدود الصين إلى حدود الأطلسى فى مأتم صامت يبكى عزاً ضائعاً وملكاً مسلوباً وكرامة مهدورة وجانباً مهيضاً وذلة وانكساراً وينظر إلى السماء يلتمس الفرج ويستدر الرحمة أو يشتكى ويتوجع كما قال أحمد شوقى:

الهند والهة ومصر حزينة
تبكى عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس
أمحا من الأرض الخلافةَ ماح ؟!»

مصادر ومراجع الفصل السابع

(١) تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، صفحة ٣٧-٣٨، والشهادة مأخوذة نصاً دون تدخل من المؤلف.

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد، تحقيق إحسان حقى، ط٢، دار النفائس، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، والشهادة مأخوذة نصاً دون تدخل من المؤلف (صفحة ٧٣٥-٧٣٧).

(٣) انظر فتح القسطنطينية فى كتاب العثمانيون فى التاريخ والحضارة، صفحة ٤٩-٥٨..

(٤) كما يفعل الصرب بالمسلمين فى البوسنة والهرسك ، وكما فعل الروس الشيوعيون بالمسلمين فى تركستان الشرقية والغربية وكما فعل اليوغسلاف الشيوعيون بالمسلمين (الإسلام فى وجه الزحف الأحمر ؛ محمد الغزالى ، دراسات إسلامية ، سيد قطب ؛ حاضر العالم الإسلامى ، ل . ستودارد ، تعليق شكيب أرسلان)؛ المجتمع الإسلامى المعاصر (أفريقيا) أ. على لبن و د. جمال عبد الهادى، دار الوفاء للطباعة والنشر؛ المسلمون فى آسيا الوسطى والبلقان، أ.د. محمد حرب، المركز العثمانى.

(٥) المرجع السابق، صفحة ٧٣٨-٧٤٠.

(٦) المرجع السابق، صفحة ٧٤٧-٧٥٢.

(٧) نسبة إلى مصطفى كمال، المرجع السابق، صفحة ٧٥٣-٧٥٦.

(٨) المرجع السابق، صفحة ٧٥٧-٧٥٩.

(٩) لعلنا أدركنا خطورة الدور الذى يقوم به المنافقون فى تحقيق أهداف الأعداء التى حذَّر الله منها أمة الإسلام: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ (البقرة: ٢١٧).

ومن هنا كان تحديد الله رب العالمين من المنافقين ﴿فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾ (النساء: ٨٨).

ومن هنا كان الجزاء للمنافقين على قدر جرمهم: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ (النساء: ١٣٨).

(١٠) ما تسمى بالثورة ، نسبة إلى كمال أتاتورك أحد أفراد تنظيم الاتحاد والترقى، المرجع السابق، صفحة: ٧٦٠-٧٦٦.

(١١) فى الأصل هكذا.

(١٢) من الثابت أنه كان عميلا للانجليز .

(١٣) وهكذا كانت كل الانقلابات المسلحة التى أطلق عليها اسم ثورات .

(١٤) ولكنها في ظل السنن الربانية متوقعة ، لأن الله يقول : ﴿يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ ويقول سبحانه : ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم﴾ (محمد:٣٨).

(١٥) المرجع السابق، صفحة ٧٢١-٧٢٧.

(١٦) وذلك يعني أن مصطفى كمال كان عميلا لأعداء الدولة العثمانية والأمة المسلمة .

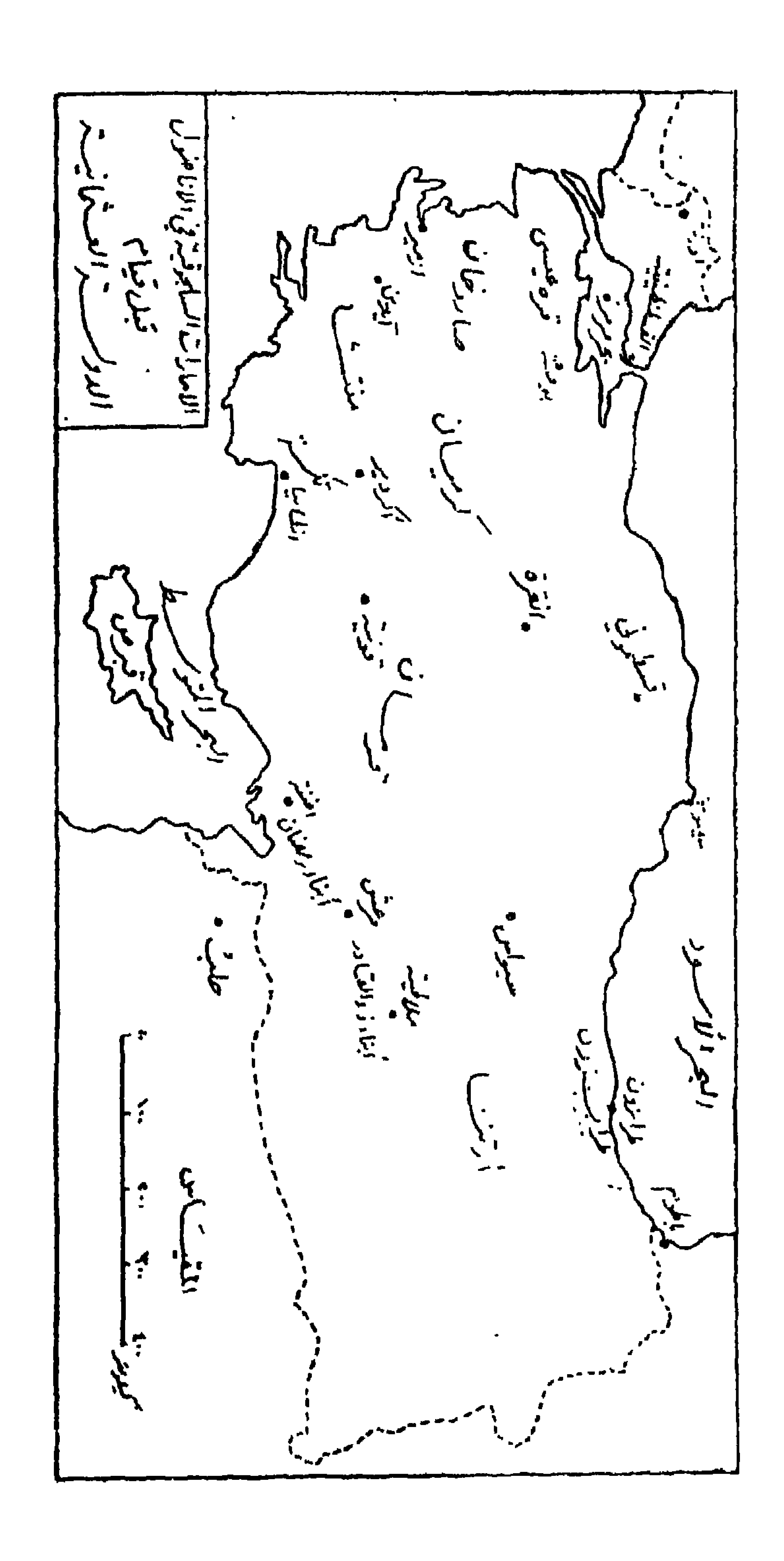
(١٧) هكذا ذكر الأمير شكيب أرسلان هذا الاسم في حاضر العالم الإسلامي.

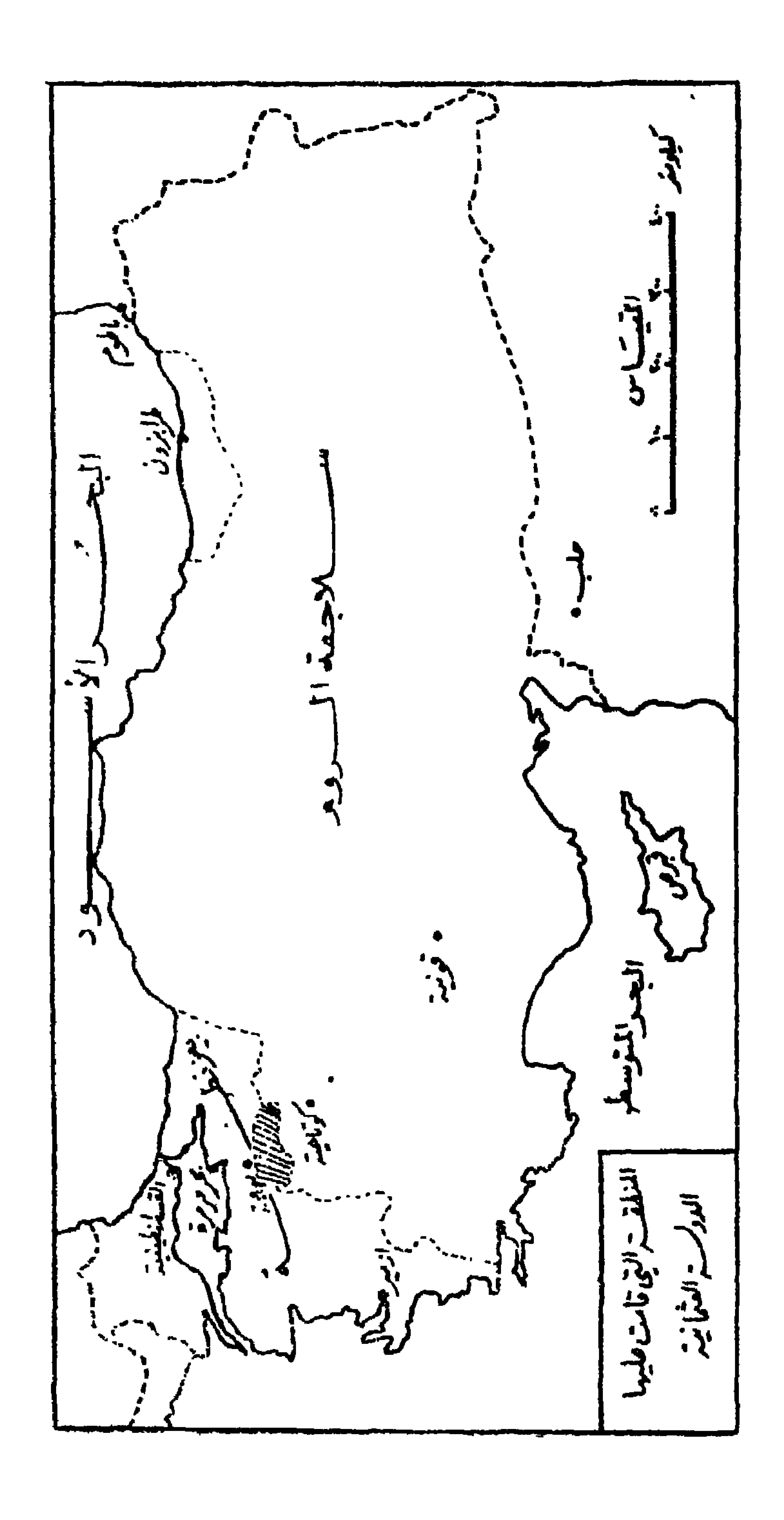
مجموعة خرائط تبين نشأة وتطور الكيان السياسي

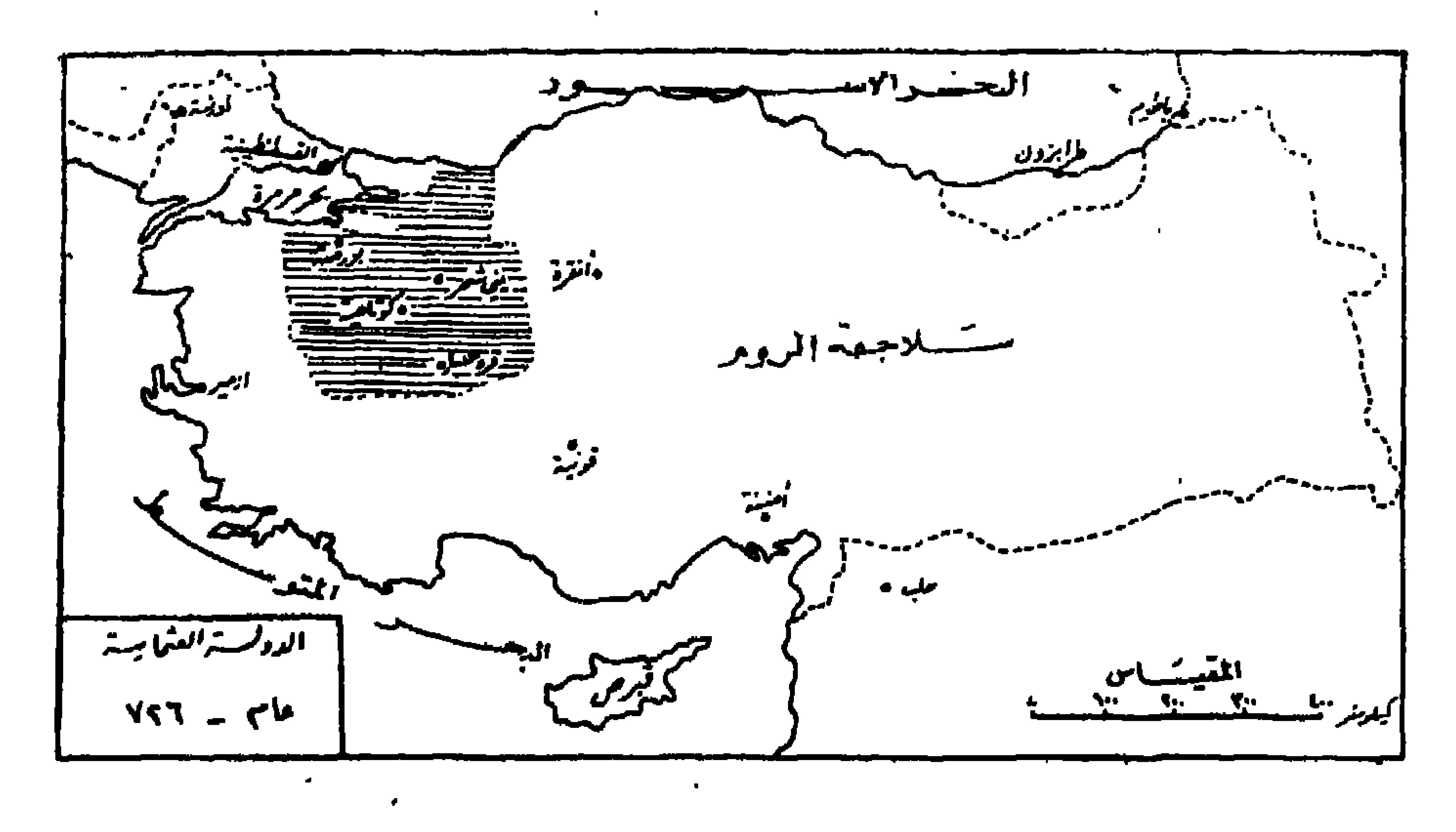
للدولة العثمانية

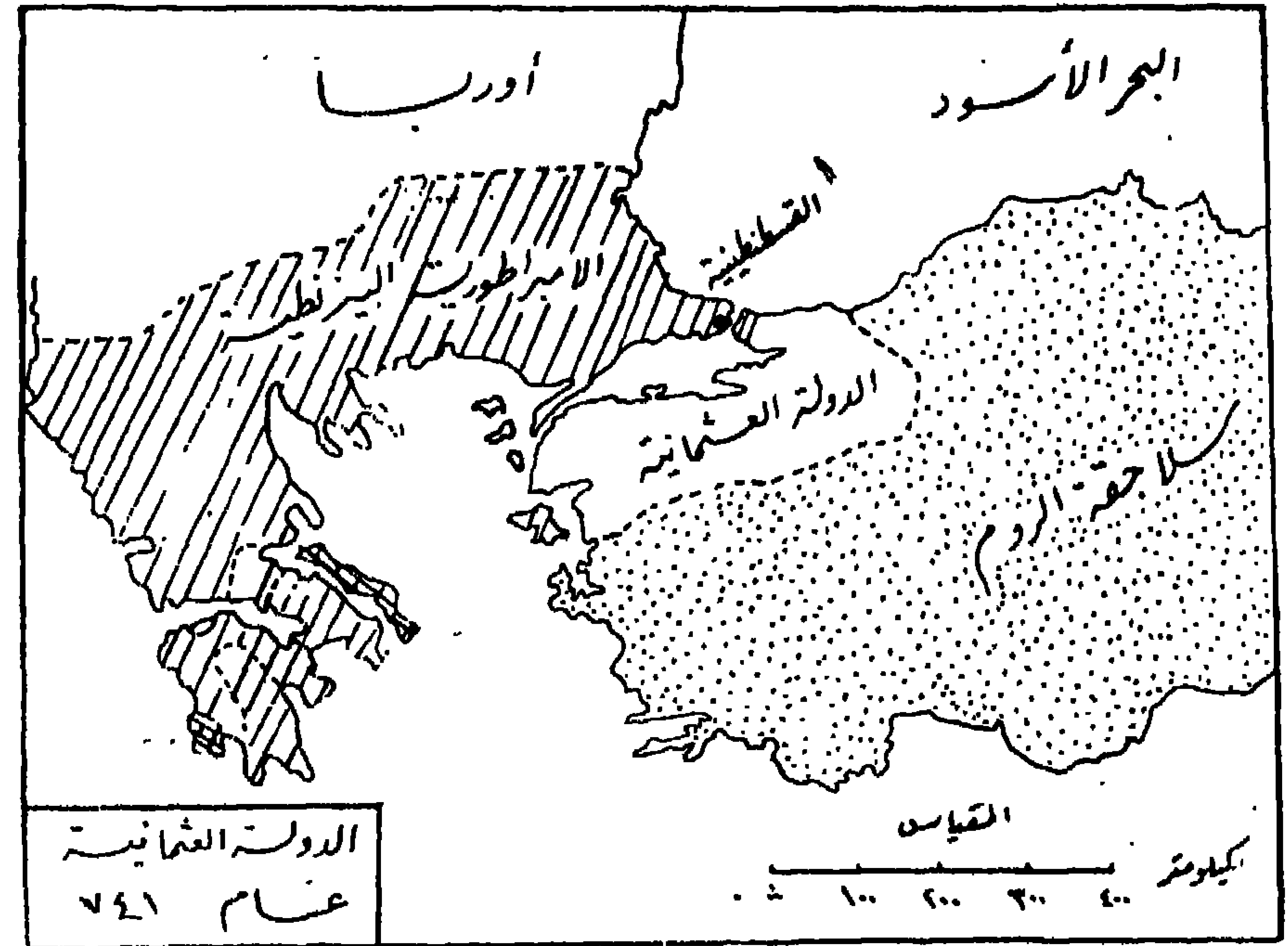
نقلا عن مجموعة التاريخ الإسلامى ، العهد العثمانى

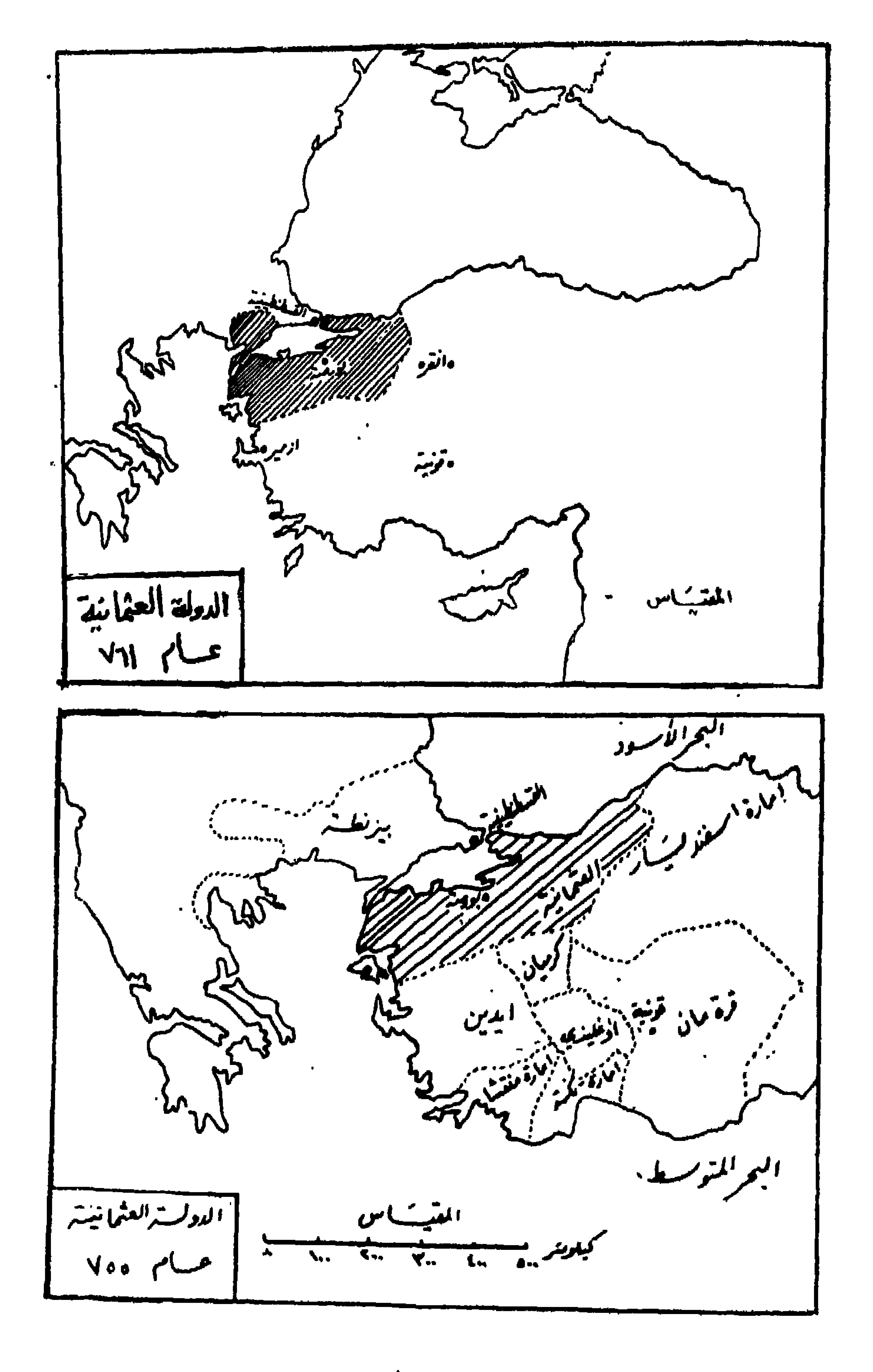
تأليف محمود شاكر


الامارات السلجوقية في الاناضول
قبل قيام
الدولة العثمانية
البحر الأسود
البحر المتوسط
قبرص
بحر مرمرة
قره عيسى
صاروخان
ازمير
آيدين
منتشا
كرميان
اكردير
انطاليا
قونية
قرمان
انقرة
قسطموني
سينوب
طرابزون
طرابزون
باطوم
سيواس
ارتنا
ملطية
مرعش
أبناء ذو القادر
أبناء رمضان
اضنة
حلب
المقياس
كيلومتر

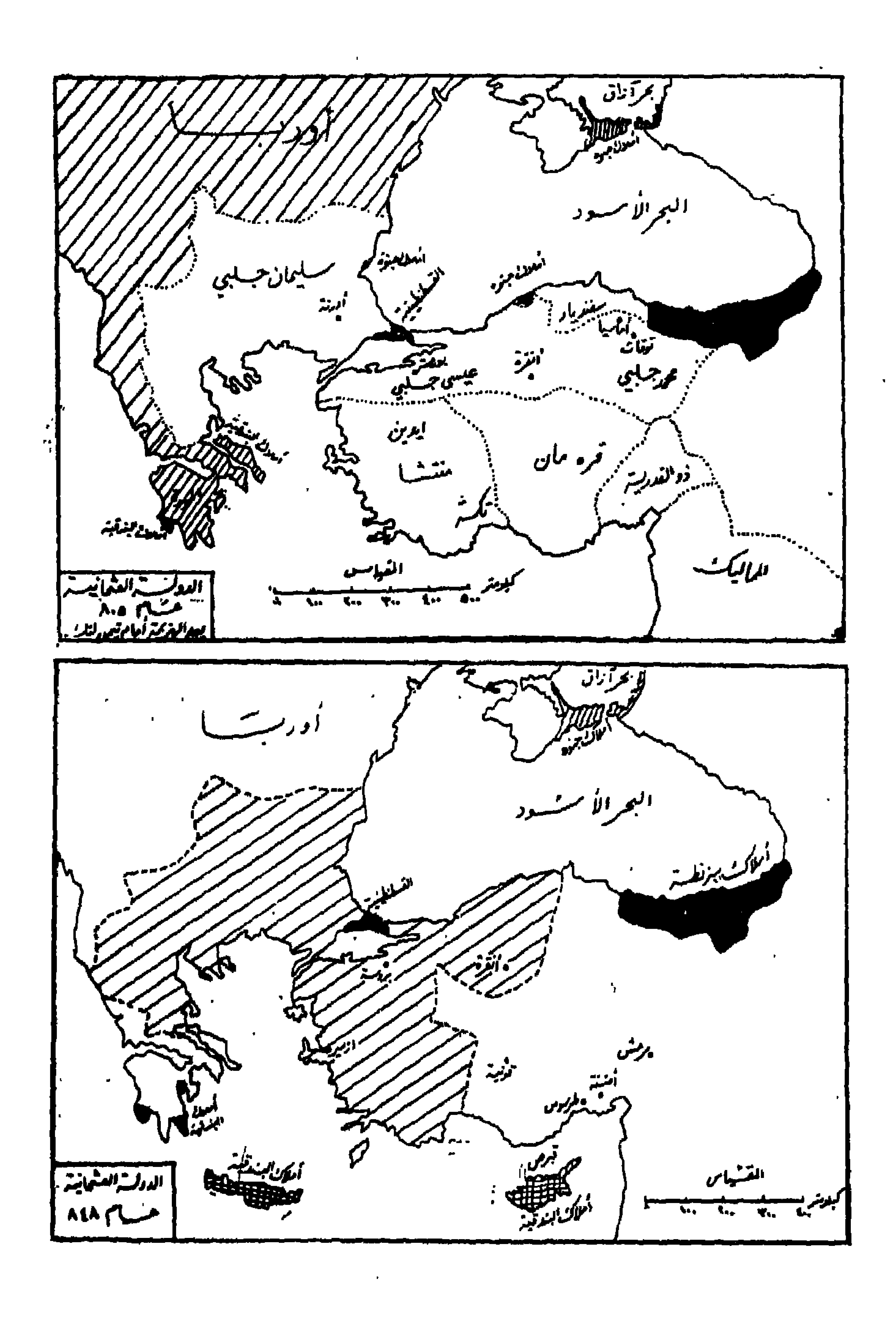

البحر الأسود
باطوم
طرابزون
سلاجقة الروم
القسطنطينية
بحر مرمرة
كوتاهية
ازمير
قونية
حلب
البحر المتوسط
قبرص
المقياس
كيلومتر
المنطقة التي قامت عليها
الدولة العثمانية


البحر الأسود
الدولة العثمانية
عام ـ ٧٢٦
المقياس
سلاجقة الروم

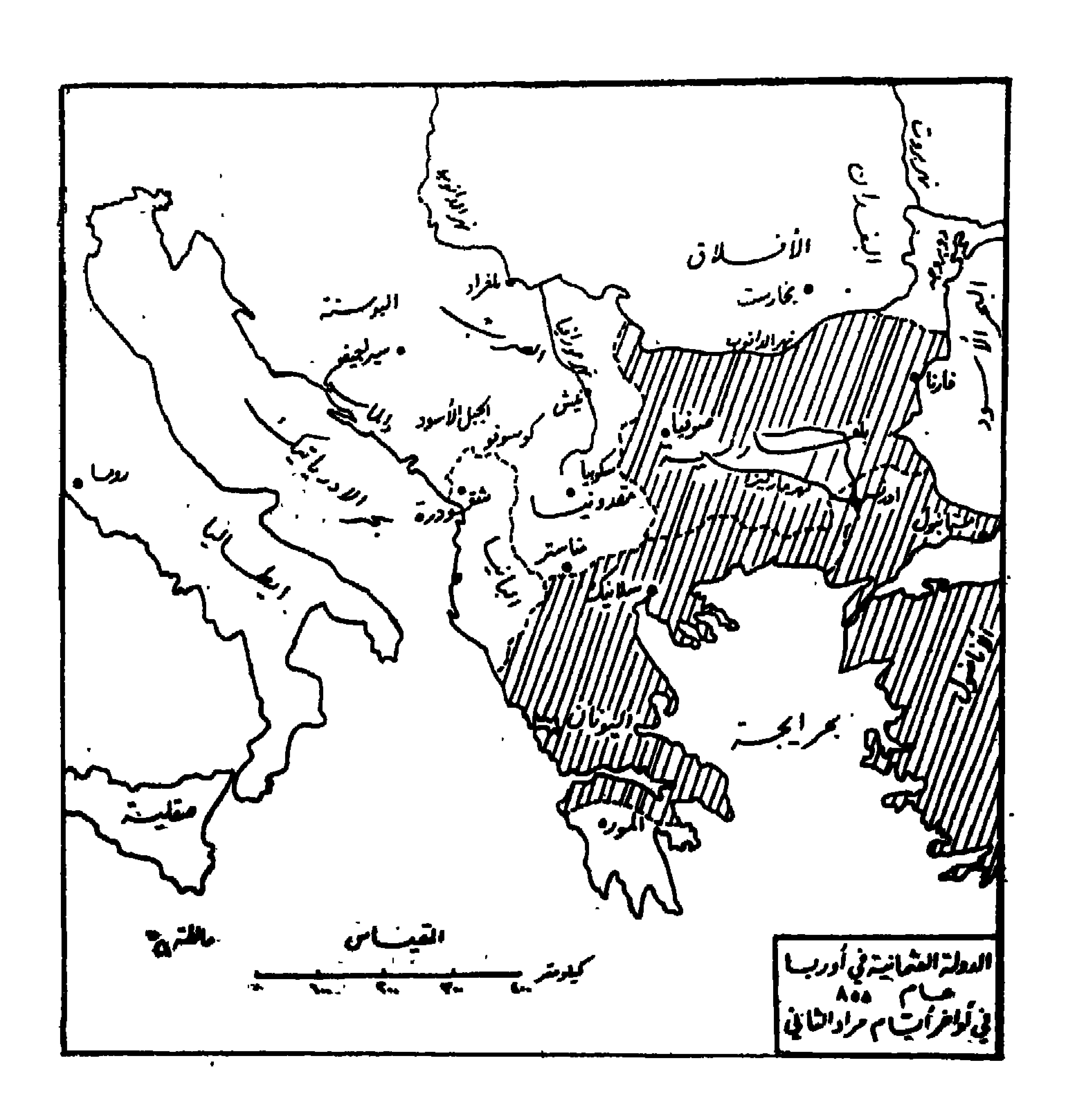

أوربا
البحر الأسود
القسطنطينية
الامبراطورية البيزنطية
الدولة العثمانية
سلاجقة الروم
المقياس
كيلومتر
٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٥٠ ٠
الدولة العثمانية
عام ٧٤١



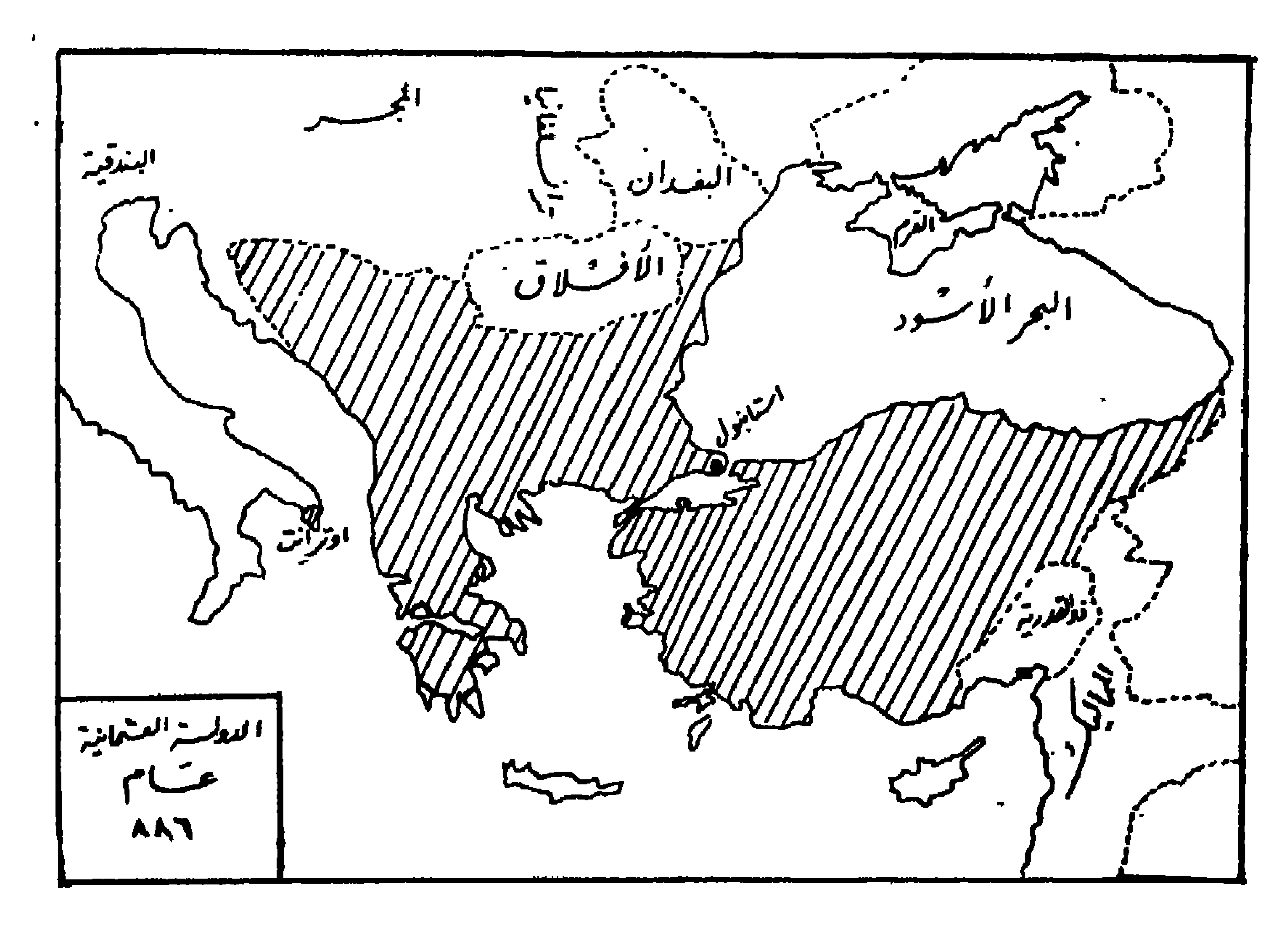
انقرة
ازمير
قونية
المقياس
الدولة العثمانية
عام ٧٦١
البحر الأسود
القسطنطينية
بيزنطة
إمارة اسفنديار
العثمانية
بروسة
كرميان
ايدين
قرمان
قونية
امارة منتشا
امارة تكة
البحر المتوسط
المقياس
كيلومتر
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
الدولة العثمانية
عام ٧٥٥

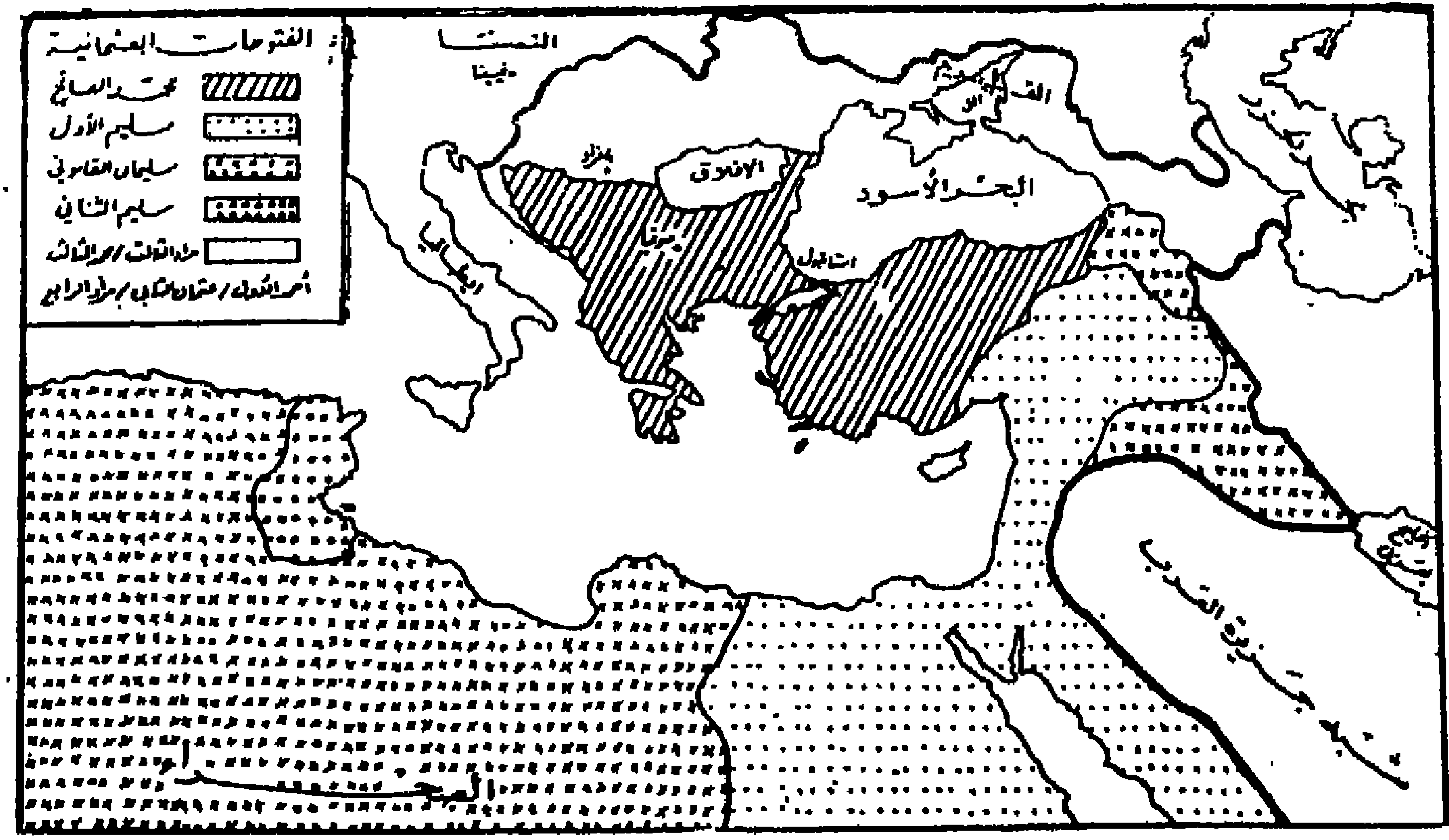


بحر آزاق
البحر الأسود
سليمان جلبي
عيسى جلبي
محمد جلبي
أنقرة
توقات
أماسيا
منتشا
قره مان
ذو القدرية
المماليك
القياس
الدولة العثمانية
عام ٨٠٥
أوربا
البحر الأسود
أملاك بيزنطة
أنقرة
قونية
مرعش
قبرص
أملاك البندقية
القياس
الدولة العثمانية
عام ٨٤٨

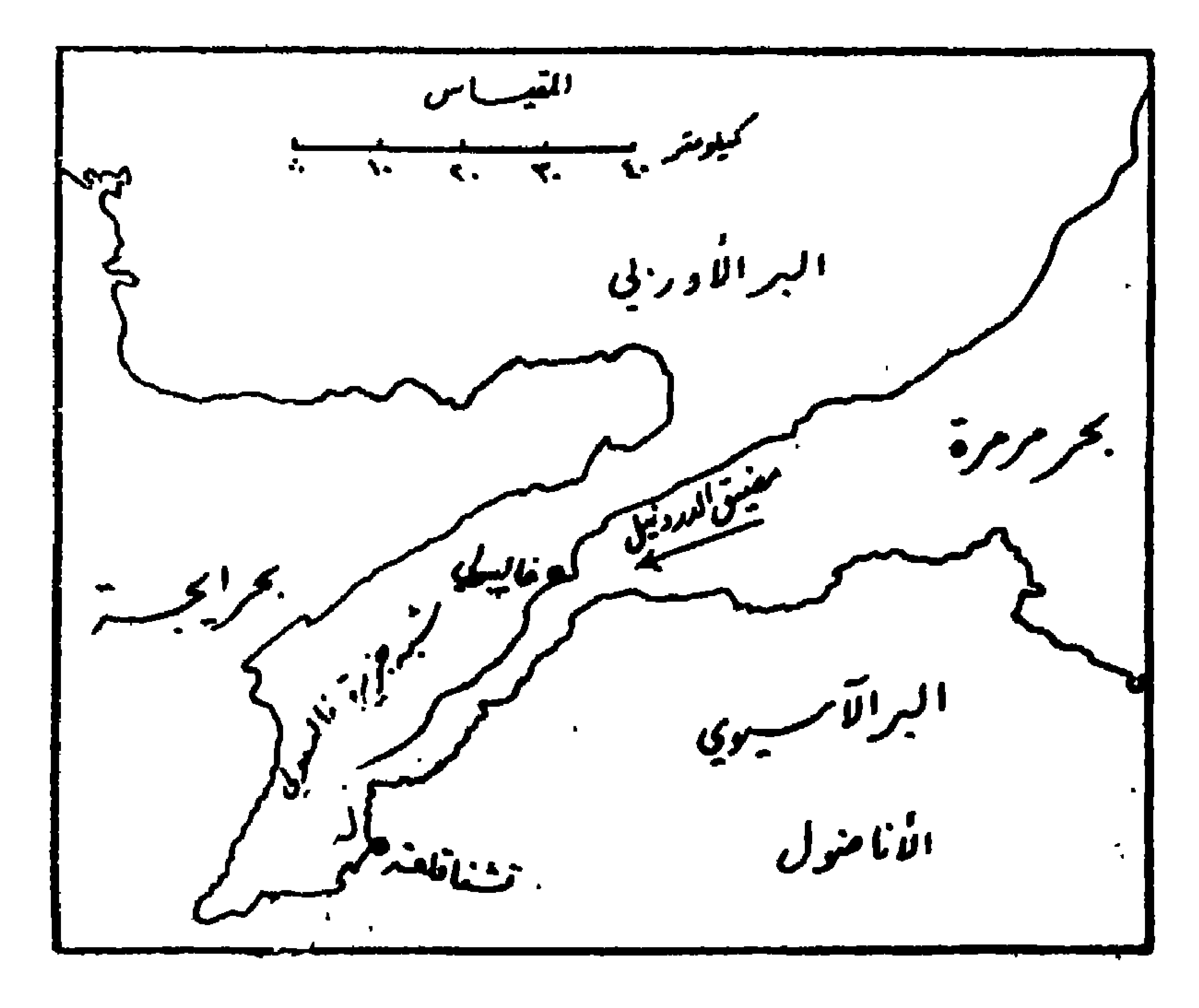


الأفلاق
بخارست
البوسنة
سيراجيفو
بلغراد
نيش
الجبل الأسود
كوسوفو
اسكوبيا
مقدونيا
مناستر
سالونيك
صوفيا
فارنا
بحر إيجة
اليونان
المورة
روما
صقلية
مالطة
القياس
كيلومتر
الدولة العثمانية في أوربا
عام ٨٥٥
في أواخر أيام مراد الثاني


المجر
البندقية
البغدان
الأفلاق
القرم
البحر الأسود
استانبول
اوترانت
ذو القدرية
المماليك
الدولة العثمانية
عام
٨٨٦


الفتوحات العثمانية
محمد الفاتح
سليم الأول
سليمان القانوني
سليم الثاني
مراد الثالث / محمد الثالث
أحمد الأول / عثمان الثاني / مراد الرابع
النمسا
فيينا
بلغراد
الأفلاق
ايطاليا
البحر الأسود
استانبول
شبه جزيرة العرب


أوربا
مضيق البوسفور
غلطة
بحر مرمرة
المقياس
كيلومتر
استانبول


المقياس
كيلومتر
البر الأوربي
بحر مرمرة
مضيق الدردنيل
غاليبلي
بحر ايجة
البر الآسيوي
الأناضول
تشناقلعة

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع : ٨٥١٨ / ١٩٩٥م

I.S.B.N:977-15-0166-6

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت: ٣٤٢٧٧٢١/٣٥٦٢٢٠/٣٥٦٢٣٠

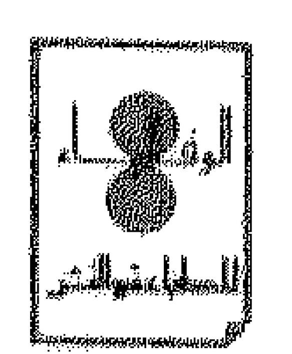
ص.ب: ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

اقرأ في سلسلة أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ :

* منهج كتابة التاريخ الإسلامي ـ لماذا ؟ وكيف ؟
* الإسلام دين الله في الأرض وفي السماء .
* جزيرة العرب ـ الجزء الأول .
* جزيرة العرب ـ الجزء الثاني .
* سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام ، وتاريخ حرم الله الآمن .
* ذرية إبراهيم عليهم السلام والمسجد الأقصى .
* استخلاف أبو بكر الصديق رضى الله عنه .
* إفريقيا يراد لها أن تموت جوعا .
* الطريق إلى بيت المقدس والقضية الفلسطينية - ثلاثة أجزاء .
* ليس لليهود حق في فلسطين .
* تاريخ الأمة المسلمة الواحدة منذ أقدم عصورها وحتى القرن السابع قبل الهجرة في مصر والعراق .
* البوسنة والهرسك جرح ينزف في جسد الأمة المسلمة
* الدولة العثمانية (٦٩٩ ـ ١٣٤٣هـ) ـ (١٢٩٩ـ ١٩٢٤م) .
* بيت المقدس إسلامية

ومن سلسلة التاريخ الإسلامي للبراعم المسلمة :

* تاريخ الامة الواحدة (آدم وزوجه وبنوه يكونون أول مجتمع مسلم) .
* تاريخ الأمة الواحدة (الأصول الثلاثة والكون المسلم).
* تاريخ الأمة الواحدة (نوح عليه السلام أول رسول إلى أهل الأرض يدعو إلى الإسلام) .



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت ٣٤٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت: ٣٤٧٤٢٣ ص ب : ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

تطلب جميع منشوراتنا من :



دار النشر للجامعات المصرية ـ مكتبة الوفاء

١٦ ش عدلي ت : ٣٩٣١٤٣٤ / ٣٩١٢٢٠٩